محمد نعيم

تاريخ العصامية والجربعة

تأملات نقدية في الاجتماع السياسي الحديث



المحروسة

تاريخ العِصاميَّة والجَربعَة

تأمُّلات نقديَّة في الاجتماع السياسي الحديث

محمَّد نَعيم

عنوان الكتاب: **تاريخ العِصاميَّة والجَربعَة**
تأمُّلات نقديَّة في الاجتماع السياسي الحديث
المؤلف: محمَّد نَعيم
مراجعة لغوية: محمود شرف



قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 – المقطم – القاهرة
ت، ف: -28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٣٠٥٢/ ٢٠٢١
الترقيم الدولي: 978-977-313-849-3

تاريخ العِصاميَّة والجَربعَة

تأمُّلات نقديَّة في الاجتماع السياسي الحديث

محمَّد نَعيم

الطبعة الأولى 2021



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

نعيم، محمد.

تاريخ العِصاميّة والجَربعَة: تأمُّلات نقديَّة في الاجتماع السياسي الحديث/

محمد نعيم.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

207 ص؛ 17×24 سم

تدمك 978-977-313-849-3

1 - الاجتماع السياسي، علم

أ- العنوان

320.101

رقم الإيداع 2021/13052

المحتويات

مقدّمة لأن الكتب عادةً ما تبدأ بمُقدّمات

تعمَّدتُ كتابة مقدمة الكتاب بالعربي المصري، المقدمة فقط، فكل فصول الكتاب مكتوبة بالفصحى، وأنا ما زلت والحمد لله محافظ على شخصية المثقف الجاد، ولابس نضَّارة، ووَفي لتقاليد الكتابة القرن عشرينيَّة وكل حاجة... استشرت بعض الأصدقاء قبل ما آخد القرار ده، بعضهم حذَّرني من إن كتابة المقدمة بالدارجة المصرية ممكن يُفقِد باقي الكتاب هيبته كما لو إن الهيبة مرتبطة بالمسافة اللغوية بين المكتوب والمنطوق، في حين إن أصدقاء آخرين شافوا إن الكتابة بالعامية فيها نوع من التواضُع المُفتَعَل، غرضه التودُّد الملَزَّق إلى القارئ، قِلَّة فقط من الأصدقاء هم اللِّي شجَّعوني أعمل كده.

مَعَنديش دوافع عميقة للكتابة بالعامية المصرية أبعد من إني أمارس حريتي في اختيار اللغة اللي باكتب بيها، والتأكيد على حقي في ممارسة الحرية دي، في التحليل الأخير لغة السطور دي كل اللي هيقروها هيفهموها، ولا أعتقد إنهم هيشعروا بالابتذال أو الاعتداء أو عدم تقدير الكاتب ليهم بسبب استخدامها، مش عارف، لربما يشعر البعض بكده، لكن أعتقد إن ده حقي في كل الأحوال، وكتير هي الأمور اللي من حقنا ومش بنجرب نمارسها؛ اتِّقاء لشر سُلطات رمزية

ومعنوية بتحاصرنا وتكتم على أنفاسنا، من غير ما نبقى فاهمين فين الأصل العقلاني للخطأ أو الصواب اللي على أساسه بتحاسبنا بيه.

كتابة المقدمة بالعامية مصدره تساؤل كان بيلِحّ عليّا دايمًا اسمه "فين الضَّرر؟"... هيحصل إيه يعني لو كتبت جزء من الكتاب بالعامية؟ هل الدنيا هتتهد لا سمح الله؟ هل الأفكار المركبة هتتحوّل إلى ملاحظات تافهة مثلًا؟ هل هاتحرم من جايزة الدولة التقديرية يا خَيّ؟ ما أنا هو أنا، والأفكار هي الأفكار، وفي التحليل الأخير اللغة تظل هي اللغة، يا دوب مجرد فروق بسيطة جدًّا في الصياغة وأدوات الربط، وفي المقابل كانت فيه مسألة تانية مريحة جدًّا بالنسبة لي ما اقدرش أنكرها، وهي إني بقى لي كذا شهر باكتب كل يوم بالفصحى، ورغم إني باحب الكتابة بلغة الكتابة وباستمتع بيها جدًّا، حسّيت بعد فترة إن الموضوع مؤلم ومرهق ذهنيًّا، ولا أخفي عليكم إن الكتابة بالدارجة مريحة أكتر على مستوى تحويل الأفكار والأحاسيس إلى شيء مكتوب، وبتكون أسرع وأسلس إلى حد كبير!

لكن بعيدًا عن موضوع دوافع اختيار لغة الكتابة، هادخل مباشرة في دوافع كتابة العمل نفسه، واللي جَت بالأساس مِمَّا أعتقد إنه اعتداء مستمر على ما تَبقَّى من قِيَم جمهورية في مصر، صحيح أنا مؤمن بإن الجمهورية في مصر مُبتَسَرَة ومؤجَّلة من لحظة تأسيسها سنة 1953، ابتسار فِضِل يِمَيِّزها لحد محاولة التأسيس اللي حصلت في يناير 2011، لكنها ظلت حتى في أشد لحظاتها رجعية مبدأ حاكم، ولو على المستوى القيمي والأخلاقي، وظل معنى الجمهورية والاستقلال الوطني ليهم نفس المدلول في ذهن غالبية الناس، لكن في السنين الأخيرة وبعد فشل الثورة وتعثُّر محاولة التأسيس مرحليًّا، الحط من الجمهورية وقيمها بقى واضح وأكثر فجاجة، ممكن تلاقي وزير بيقول إن ابن الزَّبَّال مَينفَعش يكون قاضي من حيث المبدأ، أو تلاقي إعلاميين بيتكلموا عن الشعب المصري باعتباره عبء وعالة، بل ويشتموه بالإسم، ويهدِّدوه صراحة، ويطالبوه بالتقشف والتوفير في الوقت اللي هم نفسهم بيتفاخروا فيه بالملايين اللي بيملكوها وبيكسبوها، في حالة لا يمكن مقارنتها إلا بسلوك ونفسية المستوطنين الأجانب القرفانين من السكان المحليين وقت الاستعمار، اللي كان تَجَلِّيها الأكثر فجاجة هو نموذج المستوطنين الفرنسيين في الجزائر، وبالطبع المستوطنين الصهاينة في فلسطين.

إعـلان كومباونـد "مدينتـي" الـلي اتقـدِّم في التلفزيـون في رمضـان الـلي فـات، ورَدّ الفعـل الشـعبي عليـه كان مُعـبِّر جـدًّا عـن مـزاج الاسـتيطان الأجنبـي ده، ومقاومتـه في المقابـل: لأول مـرة بيبـان مظاهـر للكراهيـة الطبقيـة بـين فئـات اجتماعيـة وبعضهـا مـن غـير مـا تبقـى الدولـة طـرف رئيـسي في الـصراع، وبشـكل يخـلِّي الجُـزُر الاجتماعيـة والطبقيـة والسـلطوية بتبعـد كل لحظـة عـن بعضهـا وعـن باقـي النـاس، وسـؤال البلـد دي بتاعـة مـين بالظبـط هينفجـر إن عاجـلًا أم آجِـلًا، وقتهـا هيحِـقّ للنـاس إنهـا تسـأل عـن شرعيـة اجتماعهـا المشـترك كأمَّـة وشـعب، وأتمنـى إن شـكل الأسـئلة دي وتَجَلِّيهـا مَيبقـاش واخـد شـكل حـرب الـكل ضـد الـكل لأن طاقـة البلـد والنـاس مش مسـتحملة، وده عـلى الرغـم مـن إن اسـتمرار الوضـع بشـكله الحـالي لفـترة طويلـة، والتعايُـش معـاه باعتبـاره وضـع طبيعـي- مُمكِـن جـدًّا يـؤدي في الآخـر إلى المسـار المشـؤوم ده بالتدريـج، وغصـب عـن الجميـع.

الهمـوم والأسـئلة دي هـي الـلي دفعتنـي أشـتغل عـلى الكتـاب، الـلي هـو عبـارة عـن محاولـة متواضعـة باقـدِّم مـن خلالهـا عـدد مـن الملاحظـات الطويلـة الخاصـة بمسـائل تخُـصّ التاريـخ الاجتماعـي في مـصر، وتاريـخ الصعـود الطبقـي وتَطـوُّر حيـاة المصريـين آخـر 200 سـنة، وازّاي ده أعـاد تشـكيل الشـعب وملامحـه كـذا مـرة في محطـات مختلفـة خـلال القرنـين الــ 19 والــ 20، وده في ضـوء إني بقيـت مؤمـن بإنـه بقـى مـن حقِّنـا دلوقتـي طـرح أسـئلة كـبرى لم نكـن نجـرؤ عـلى طرحهـا قبـل كـده، وإننـا أصبحنـا واعيـن بإننـا عشـنا تغيـيرات كبـيرة جـدًّا في السـنين الأخـيرة، جعلـت العـالم الـلي عشـناه قبـل 2011 يبـدو كأنـه مـاضي بعيـد، وبقـى بالفعـل بيتقـال عليـه "زمـان"، وشـفنا تَحـوُّلات كبـيرة غيرتنـا، تخـلِّي عندنـا فضـول السـؤال عـن التحـوُّلات الكبـيرة المشـابهة الـلي حصلـت قبـل كـده.

مَفِيـش شـك في إننـا مـن بعـد 2011 بنعيـش في هـزَّة كبـيرة مسـتمرة بتوابعهـا، اسـتمرارها بقـى بيدفـع النـاس إمَّـا إلى مراجعـة كل شيء في المـاضي ولـو برعونـة، وإمَّـا التمسـك بـأي شيء مـن المـاضي ولـو بغبـاء، وأنـا في الحقيقـة باعتـبر نفـسي إلى حـد مـا مـن أبنـاء المعسـكر الأول، وده لأن حياتنـا في العقـد الـلي فـات اتغـيَّرِت بشـكل لم يعـد يمكـن معـاه إننـا نتخيـل اسـتمرار مسـار الحيـاة مكمِّـل بالرتابـة والسلاسـة والطمأنينـة النسـبية الـلي كانـت موجـودة قبـل 2011، التغـيرات كبـيرة جـدًّا وسريعـة، سـواء جـوه مـصر أو بـرَّه مـصر، وحاجـات كتـير كان بتُعتَـبر ثوابـت بتتهـدم قصـاد عيوننـا عـلى

مستوى الممارسة قبل ما بتتحطّم على مستوى الكلام والأفكار، عوالم جديدة بتتخلق أو هي قَيْد التشكيل، في صمت وأحيانًا في سرية، وبتتفرض كأمر واقع، وصعب كل ده يبقى بيحصل من غير ما تكون فيه محاولات لرصد وتحليل للأوضاع اللي شالتنا ورمتنا على اللحظة الحالية.

أعتقد إن سؤال اجتماعنا المشترك كمصريين أصبح على المحكّ، وبقى محتاج لتأمُّل شجاع، أيًّا كانت عواقبه أو أثمانه، مش معنى كلامي إننا داخلين على حرب أهلية مثلًا، أو إننا لابسين في الحيط بشكل حتمي، لكن معناه إن وجودنا سوا كمجموعة من البشر والجماعات اللي بيشكِّلوا مع بعض حاجة اسمها الأمة المصرية بقى وجود ملتهب ومش سالك، لا على مستوى العلاقة بين الدولة والمجتمع، ولا بين فئات المجتمع نفسه بعضها مع بعض، سواء كانت علاقة بين طبقات اجتماعية في حالة صراع مكتوم أو مُعلَن، أو العلاقة بين الرجل والمرأة، أو علاقات العمل بين رجال أعمال وعُمَّال، أو علاقة المناطق والأحياء والأقاليم ببعض، وهكذا...

وأعتقد إنه بقى حق لينا إننا نتأمل في حاجات ناس كتير مصممة إنها حقايق علمية وتاريخية محل إجماع، لمجرد انها اتكرَّرت في كام كتاب مدرسي وكام مسلسل وكام أغنية، وشكِّلت في لحظة من اللحظات صور هَيمِنِت على خيال الناس عن تاريخهم أو عن ماضيهم القريب وقيمهم وقصة تطورهم كمواطنين، باحاول في الكتاب ده ألقي الضوء على شوية حاجات أسِّست لتاريخنا الاجتماعي القريب والأبعد شوية، وباحاول أرصد التحولات السياسية اللي حصلت في القرن العشرين وعلاقتها بعدد من التحولات الاجتماعية اللافتة اللي أعادت تشكيل المجتمع المصري وتصوراته بأسلوب حاسم، وأكتر من مرة.

في الفصول الثلاثة الأولى اشتغلت على ما اعتبرته قِيَم وخِصال اجتماعية صاحْبِت رحلة التحديث المصري في القرن التسعتاشر والقرن العشرين.

في الفصل الأول باحاول ألقي نظرة على ما أسمِّيه "العصامية" باعتبارها كلمة بتلخَّص المساعي الحميدة والفضائل الأساسية اللي المصريين اتمسَّكوا بيها خلال رحلة تحوُّلهم من فلاحين فقراء بسطاء إلى أفندية وظباط ورجال دولة وطبقات وسطى وعليا، وازاي إن الفضائل دي لعبت دور رئيسي في تشكيل ثوابت

مكمِّلة معانا لحد دلوقتي، وحَدِّدِت دور التعليم وانتشاره وتأسيس أجهزة الميري والالتحاق بيها وتشكيل الجيش الوطني، وكذلك دخول الأفكار الغربية الحديثة والتأثر بيها وسرعة تعلمها، وإن كل ما سبق كان مُحدِّدات أساسية باناقش من خلالها رحلة التطور الاجتماعي دي، وازاي إن كل ما بقى فيه تقليل واستهانة بالفضائل دي كل ما المجتمع بيتعرَّض لرِدّات وانتكاسات عميقة.

بينما في الفصل التاني باتكلم عن المعنى المناقض للعصامية وهو "الجَربَعَة"، كتجسيد لعلاقات اجتماعية وسلطوية بتعبَّر عن نفسها من خلال حالة نفسية وسلوكية، ساهمت طول الوقت في غرس بذور الرداءة والانحطاط والعدمية، وفضلت ترعاها على مستوى الخطاب والممارسة لحد ما أثمرت وبقت زرعة مؤذية ومدمِّرة، بتاكل كل الفضائل المجتمعية اللي بتعتمد على الجهد والبذل وتكافؤ الفرص وصعود من يستحق، وباحاول التأصيل لفكرة الجربعة باعتبارها مش مجرد انعكاس لقيم وممارسات ومعتقدات، بل كمان حصاد لمحطات بعينها في التاريخ ساعْدِت على ظهورها واستثمرت فيها بوعي ونية وإرادة، وباحدد شروط تاريخية بعينها زي المراحل اللي بتشهد هزائم لثورات شعبية ارتفعت فيها توقُّعات، أو لحظات الخضوع للاحتلال الأجنبي، أو لحظات الهزيمة النفسية للطبقة الحاكمة نتيجة فشلها في تحقيق وعودها.

في الفصل الثالث باتجه أكتر ناحية الملاحظات الاجتماعية المباشرة اللي ارتبطت بتاريخ صعودنا الطبقي آخر قرنين، واللي طبعت نفسها في عاداتنا وتقاليدنا الحديثة وشكِّلِت تصوُّراتنا عن معاني رمزية وأمور مادية، فباتكلم عن علاقة المصريين بألوان بشرتهم وهم بيعتبروا نفسهم إيه، وازاي عندنا اضطرابات بخصوص البياض والسمار، إمتى بنشوف نفسنا سُمر وإمتى بنعتبر نفسنا بِيض، وباتناول كمان علاقة المصريين بلهجاتهم المحلية المختلفة، وازاي اللهجة القاهرية سادت على باقي اللهجات بعد ما أصبحت اللهجة الدارجة الرسمية لوسائل الإعلام المختلفة، وازاي البرچوازية المصرية دلوقتي بقت بتحاول تخلق لنفسها لكنة خاصة بيها عشان تتميِّز عن غيرها من خلال إنها تخلط العربي بالإنجليزي، أو تِلوي لسانها بطريقة معينة وهي بتتكلم، الفصل برضه بيتناول ذاكرة الفقر والجوع عند المصريين، وانعكاس ده على إحساسهم بعدم الأمان المستمر، اللي بيخلِّيهم يعتقدوا في الحسد والسحر بقدر مُفرِط، وبيحيلوا ليهم ظواهر كتير جدًّا.

في الفصلين: الرابع والخامس اشتغلت على ملامح السيولة الاجتماعية في مصر، اللي رحلة العصامية والجَربَعَة شغَّالة وسطها وبتتشكِّل مسيرتها بحسب شروطها ومحطاتها، سواء كانت محطات تاريخية زمنية أو محطات استثنائية بفعل عوامل خارجية وتغيرات عالمية كبيرة.

باحاول في الفصل الرابع تَتَبُّع مسار صعود وهبوط معاني العصامية والجربعة وسط حقب تاريخية متتالية، وباسلَّط الضوء على بعض الأوهام اللي بتتقال مؤخَّرًا عن عالم ما قبل 23 يوليو 1952 نكاية في الجمهورية اليوليوية، وباحاول أضع أمور تخص حقبة ما قبل إعلان الجمهورية في إطار مُتَّسِق وموضوعي قدر الإمكان، وبعده باتطرَّق لمرحلة الخمسينات كمرحلة تحوُّل كبير ومهم في تاريخ مصر، حتى لو صُنَّاعه نفسهم مَكَانوش مدركين أهميته كتاريخ تأسَّس عليه كل ما تلاه، وباحاول أميِّز الخمسينات عن الستينات وأحدِّد الملامح المميزة لكل عقد فيهم، باعتبار إن الستينات هي المرحلة اللي تعمقت فيها خيارات الخمسينات واتحسمت واتبلورت واتحطِّت في اختبارات حقيقية أفضت إلى هزائم كبرى. باسلَّط الضوء على المقدمات والأوضاع اللي أفضت ليها، وازاي إن الهزائم الكبرى وتحديدًا هزيمة يونيو 1967 أفضت بعد كده إلى أزمات مستمرة معانا إلى الآن، وأسِّست لواقع أصبح غير راضي عن نفسه، لكن بيعيد إنتاج عدم رضاه ده وبيورَّثه من جيل إلى جيل، ربما لحد لحظتنا الراهنة، وده أنا متناوله من خلال الحديث عن حقبة الانفتاح الاقتصادي في السبعينات والهزة الشديدة اللي مَرّ بيها المجتمع في الفترة دي بشكل غيَّر سِماته، وتقريبًا أعاد تشكيل الخرايط الاجتماعية المصرية من جديد، خصوصًا في الريف، ثم حقبة إعادة تشكيل الطبقة الوسطى المصرية مرة أخرى في فترة منتصف التسعينات وما بعدها، في فترة الطفو الذهبي لحُكم حسني مبارك.

بعد كده باحدِّد في الفصل الخامس عدد من التحولات الكبيرة اللي أثَّرِت على الحراك الاجتماعي المصري في أشكاله العصامية والمتجربعة، خاصة إن بعض التحولات دي كانت خارجية ومَكانش لينا يد فيها، وكانت هتمسِّنا، شئنا أم أبينا، وحددت ظاهرة الأمركة ومحاولة استنساخ النموذج الأمريكي في الحياة وتقليد قيمه الاستهلاكية وتصوراته الثقافية، وازاي ده كان عامل أساسي شكِّل تصوُّرات الناس عن حياتها. وخَصَّصت أيضًا جزء للحديث عن الصحوة الإسلامية اللي ابتدت

بالتزامن مع الأَمرَكَة باعتبارها واحدة من أهم الظواهر السياسية والاجتماعية اللي أثَّرت في مصر في القرن العشرين، وقد إيه كانت ظاهرة مُهَيمِنة وشَكَّلت عالم كامل متكامل له مفرداته ولغته وقيمه اللي انعكست على المجتمع كله، وفي نفس الفصل باتكلِّم عن تأثير هجرة العمالة المصرية إلى الخليج، وازاي لعبت الهجرة دي دور لا يقل أهمية عن دور الصحوة الإسلامية والأمركة، باعتبار الهجرة للخليج كانت أول عملية انتقال واسع للمصريين إلى خارج بلادهم في العصر الحديث، وازاي ده كانت له تأثيرات اقتصادية وحضارية وقِيَميَّة لا يُستهان بيها.

في الفصلين الأخيرين باحاول أسترجع تاريخنا القريب في آخر 20 سنة، وازاي التاريخ ده فرض عدد من الأسئلة الكبرى اللي بتبحث عن إجابة إلى الآن لدرجة خلقت أزمة باسمِّيها "أزمة إعادة التأسيس السياسي والاجتماعي" اللي اتفجَّرت بشكل واضح مع ثورة يناير 2011، وباقول في الفصل السادس إن فيه لحظات جَلَل في التاريخ بيستطيع أبناؤها طرح الأسئلة الكبرى بشجاعة أكتر من لحظات تانية، وأعتقد إن كتير من مقولات الوطنية المصرية بحاجة للمراجعة والتجديد، بل واستحداث قِيَم جديدة فيها، وده باعتبارها الأيديولوچية المُهَيمِنة على خيال كل المصريين، وأحد التابوهات الكبرى في بلدنا، واللي أعتقد إنه آن الأوان نتأمل في جذورها بجرأة وشجاعة أكبر، خاصة إن آخر نسخها اللي بتتقدِّم للمصريين في السنين الأخيرة بقت مجرَّد حالة من الصراخ المستمر اللي بيفتقر إلى الحد الأدنى من التماسُك العقلاني والمنطقي، وفي وقت اتسعت فيه تناقضات واضحة بين الخطاب والممارسة بشكل يهددها من جذورها بالكامل.

أتمنى إن الكتاب يكون بيقدِّم جديد، وإنه يكون بيجاوب على أسئلة زي ما بيطرح أسئلة أخرى... في النهاية كلنا واعيين بدرجة أو أخرى بإننا في أزمة كبيرة، البعض بيتعامل مع ده على طريقة كَنْس التراب تحت السجاجيد، والبعض الآخر بيعتبر الكلام من حيث المبدأ جريمة، بس في النهاية الأزمة تعبير عن شروط موضوعية ومادية، مَهِيَّاش اختراع نظري من بنات أفكاري، وباحاول أصوَّر للناس وجودها. الأزمة المجتمعية بقت أكبر من فيل بيجري جوَّه غرفة مكتظَّة بالبني آدمين، وكل يوم الفيل بيكبر، والبني آدمين بيكتروا، ولازم نشوف حل.

خِصالٌ صاحَبَت رحلَةَ التَّحديث





أهذا عيشنا ..
هذا عيش الضباع..

الفصل الأوّل

في مَكامِن العِصاميّة المصريّة

لعشرات الآلاف من السنين، عاش ملايين البشر على ضفاف وادي النيل، لكن شعبنا المعاصر ليس بالقِدَم الذي نتصوَّره، نحن شعب جديد مقارنة بتاريخ أجدادنا الكُثُر الذين سكنوا الوادي، يقترب تعدادنا الآن من 100 مليون نَسَمة، ومنذ سبعين عامًا كنَّا 20 مليون نسمة فقط، وحين أحصانا الفرنسيون في مُستَهلِّ القرن التاسع عشر لم نكن نتجاوز الثلاثة ملايين نسمة في أعلى التقديرات، تنامَينا سُكّانيًّا بصعودٍ لم يتوقف آخر مائتَيْ عام بفعل التحديث وارتفاع مستويات التعليم والصحة العامة والخاصة، وقوة الدولة وتطوُّر تركيبة السكان.

عالمنا المعاصر هو ابن الحداثة، ونحن منتجات خالصة له، وأول ما شاهده أجدادنا من أهل مصر من هذا العالم، شاهدوه مع الغزو الأوروبي وسمعوه مختلطًا بصدى طلقات مدافع الحملة الفرنسية عام 1798، وما لبث هذا العالم أن أصبح عالَمَهم هم، مع ما أرساه محمد علي باشا الكبير تدريجيًّا من تنظيمات جديدة للدولة والمجتمع، كان هذا العالم مختلفًا عمَّا سبقه بما لم يتصوَّره عقلُ أبنائه حينذاك. بضعة عقود في مطحنة محمد علي التحديثية جعلت أي ماضٍ

قبلها يبدو زمنًا بعيدًا جدًّا، قد لا يتذكَّره الفلاح البسيط، تَعِسُ الحياة، الذي كان يُشكِّل القوام الرئيسيَّ لسكان وادي النيل.

عاش القوام الأكبر من سكان مصر في الريف، وكانت حياة غالب سكان مصر من الفلاحين مروعة الفقر، تصنَّف في مساحة ما بين العبودية والقنانة[1]، لم يعرفوا تقريبًا معنى ملكيَّة الأشياء حتى الثُّلث الأول من القرن التاسع عشر، كانوا يستهلكون ما يتبقَّى لهم من إنتاجهم المباشر الذي يذهب لسادَتِهم، أو يُبادِلونه مكان سِلَعٍ أخرى حيويَّة مُلِحَّة، لم يكن لديهم ما يرثونه أو يورِّثونه: أسمالهم البالية -إن وُجِدَت- وبيوتهم من طين لا تقوى على مقاومة الفيضان أو الزمن، مُعِدَّاتهم وأدواتهم يدويَّة الصُّنع، وكانت العملة المعدنية شيئًا يعرفون بوجوده، ولكن من دون أن يتداولوه هم، لقد كان مستوى من البؤس والتعاسة يصعب تخيُّله حتى على أشدِّنا فقرًا في عالمنا المعاصر، والأمور في الأخير تظل نسبيَّةً مع مرور الزمن، فحين يسبُّ أحدنا الآخر هذه الأيام بأصله الوضيع، فقد ينعت جدوده بأنهم لم يلبسوا لباسًا يومًا، لكننا لا نتخيل أبدًا أن غالبية أجداد أجدادنا لم يرتدوا طوال حياتهم إلا ما سَتَرَ عورتهم بالكاد.

تحَسَّنَت حياة الفلاح في ظل نهضة القرن التاسع عشر تحسُّنًا طفيفًا لو أخذنا بمعايير نظرتنا المعاصرة لمعنى تحسُّن أحوال المعيشة، لكنها كانت طفرةً عملاقة، قياسًا على ما كان عليه آباؤهم أو أجدادهم المباشرون، فانتظام الري والإنتاج وتنظيم أغراضه وتحسين جودته واستتباب الأمن- سمح للفلاح المصري بمساحة بسيطة جدًّا للادخار، ومِن ثَمَّ القدرة على شراء السلع نقدًا من السوق، سواء أكانت تلك السلع ذات قيمة استعمالية أم بغرض تلبية حاجات جديدة ربما لم تكن موجودة من قبل، كشراء إناء من النحاس مثلًا.

لقد كانت النظرة التقليدية إلى السواد الأعظم من المصريين من ناحية حُكَّامهم أنهم "نصف ناس"، خُلِقوا للأعمال الزراعية، قد يأتي من بين وُجَهاء مُلَّاكهم شيخٌ أو عالِمٌ أزهري أو تاجر، لكن ظلَّ الفلاح كحِرفَةٍ وموقع اجتماعي

(1) القِنانة هي الوضع الاجتماعي الاقتصادي لجموع فقراء الفلاحين في ظل الإقطاع، وهي حالة أقرب إلى الرِّقِّ من حيث امتلاك السيد لقوة عمل الفلاح وإنتاجه الزراعي بالكامل، ولكن مع عدم امتلاكه لجسده وحياته، كان القِنُّ يُجبَر على العمل في حقول مُلَّاك الأراضي، في مقابل الطَّعام والحماية والحق في العمل في الحقول المُستأجَرَة.

وجغرافي هو ما يمكن وصفه بـ"المصري المعياري". يتذكَّر المُفكِّر المصري الراحل سعد زهران[1] أنه حين سأل أمه في ثلاثينات القرن العشرين عن ماهيَّة الفلاح (وكانت عائلته تمتلك عددًا لا بأس به من الفدادين في محافظة المنوفية) أجابته الأم بأن الفلاح هو إنسان مَحنيُّ الظَّهر، وجهه في الأرض، يكاد يلامسها، يعمل في الغيط طوال النهار، لا يرى سيده إلا فيما ندر، وإن رآه فهو لن يرى من جسده سوى قدميه، فإذا أراد تقبيلها قد يلكزه السيد لَكزَةً خفيفة بحذائه، كنوعٍ من المداعبة، وإشارة عن الرضا، أو يرفسه رفسة نافرة تطلب منه الابتعاد، كان هذا الوصف المروع البشع هو ما سمعه طفلٌ يعيش في حي روض الفرج في شبرا القاهرة منتصف الثلاثينات، فما بالنا لو دار نفس الحديث في ثلاثينات القرن التاسع عشر مثلًا!

حدَّثنا عبد الله النديم في وصفه للتنكيل المستمر بالفلاح كشاهد عيان أنه "بينما كان الأمير حسين يشغل منصب المفتِّش العام، رأيت الآلاف من الفلاحين يحملون الطين على رؤوسهم، وكان الطين يغطي أجسامهم إلا في الأماكن التي ما زالت تحمل الآثار الواضحة لضربات كرباج المأمور أو عصا الخولي، وفي كل مرة يُعلن فيها عن قيام المفتش العام بجولة في المنطقة، كان أحد الرُّسُل ينطلق على ظهر حصان لكي يخبر مديري المديريات والمآمير في هذه المحافظة بالخبر، فكان الموظفون المساعدون يقطعون أفرع الشجر ويوجِّهون بها ضربات قاتلة إلى أجساد هؤلاء الفلاحين الباكين العارية. كان هذا المشهد يُسعِد قلب المفتش العام الذي يعلن رضاه ويهنِّئ المدير قائِلًا: عفارم عفارم. وبعد ذهاب المفتِّش العام، كان يُحصَى ثلاثون أو أربعون قتيلًا ماتوا من الضرب أو غرقوا في الطين".[2]

استهلالة البؤس هذه ضرورية لفهم أين كُنَّا ومن أين بدأنا، وهي مُهِمَّة بقدر تقدير وزن كفاحات مريرة بذلها المصريون من أجل تطوير حياتهم وتحسينها، كثيرون هم هذه الأيام مَن ينسجون لماضيهم البعيد صورًا خلَّابة من الضَّلال والكذب القُراح ليهربوا من حقيقة لحظة البدء تلك، وفي أثناء هذه الممارسة الشاذة ينكرون على أجدادهم المباشرين عصاميَّتهم وما بذلوه من كفاح وصبر

---

(1) حوار شخصي مُسجَّل مع المفكِّر المصري الراحل سعد زهران عام 2012.

(2) عبد الله النديم: مصر وإسماعيل باشا، سلسلة مقالات، جريدة اللطائف، عدد 6 مايو 1882، دار الكتب المصرية.

علـى الفقـر وسـعي للمعرفـة وتعلُّـم المهـارات، واسـتعداد للتغـيُّر والتأقلـم وإعـادة صياغـة التصـورات السـائدة مـن أجـل تطويـر حياتهـم وجعلهـا أكـثر إنسـانية ورِفعَـة، فهـم يظنُّـون أنهـم امتـداد خَطِّـيٌّ مبـاشر وتقليـدي لأجدادهـم، وأنهـم حافظـون لمـا يُسـمُّونه "تقاليـد"، ضاربـين عـرض الحائـط بتاريـخ عنيـف مـن التَّغـيُّر والتَّطـوُّر يجعـل مـن كل جيـلٍ صاحـبَ تجربـة شـديدة الاختـلاف عـن الجيـل الـذي سـبقه، أو عـن الجيـل الـذي تـلاه، في نـوع بائـس مـن الإنـكار الكافـر لسُـنَن الحيـاة.

خـاض الفلاحـون المصريـون رحلـة عصاميـة طويلـة، طرقـوا فيهـا كل بـاب موصـد، مسـتخدمين كل الأدوات التـي أتيحـت لهـم بفعـل التحديـث، مهـما كانـت محـدودةً أو مشروطـة، كانـت رحلـة المصريـين نحـو التحديـث متمحـورة حـول معـانٍ ومداخـل عصاميـة وشريفـة بالأسـاس، وهـي العلـم والعمـل، فبالتعليـم والالتحـاق بالمـيري ترقَّـى المصريـون اجتماعيًّـا ووضعـوا أنفسـهم عـلى طريـق النِّدِّيَّـة مـع النُّخَـب الشركسـية والأجنبيـة، صـار الفـلاح أفنديًّـا، ثـم صـار بيـك وباشـا، ولم يحتـج الأمـر إلى أكـثر مـن خمسـين عامًـا فقـط خـلال القـرن التاسـع عـشر حتـى وضـع هـؤلاء الفلاحـون اللبِنـات الأولى للحركـة الوطنيـة، وحلمـوا بـأن يحكمهـم واحِـدٌ منهـم.

بين العِلم والتعليم

ربمـا إلى يومنـا هـذا... لا تخجـل نسـبة مُعتَـبَرَة مـن المصريـين مـن التشـكيك في العلـم، بنحـوٍ يصـل ببعضهـم إلى حـدٍّ إنـكاره بالكامـل، أو الإعـلان الصريـح عـن النُّفـور منـه ومـن جـدواه، خاصـة إذا تناقـض مـع معتقداتهـم الدينيـة، أو ذهبـت المعرفـةُ بعقـول البعـض منهـم إلى حَـدِّ التشـكيك في مـا يعتبرونـه ثوابـت وتقاليـد اجتماعيـة يظنُّونهـا أصيلـة وعريقـة، إلا أن التَّشـكُّك والريبـة في العلـم لـدى كثـير مـن المصريـين يقابلهـما مـا يشـبه التقديـس التـام للتعليـم والعمليـة التعليميـة وطقوسـها الإجرائيـة ودرجاتهـا المَراتِبيَّـة، فالمـصري مهـما كان جاهِـلًا أو مُتعلِّـمًا عاشـق للجهـل، يحـترم التعليـم وأهلـه، ويُجِـلُّ مكانتهـم، ويعتبرهـم أرفـع منـه شـأنًا، ويظـل حلمـه أن يصـير أبنـاؤه مـن المتعلِّمـين، ويـزداد فخـرًا بهـم كلَّـما ارتفعـت مكانتهـم العلميـة التـي قـد لا يفقـه هـو عنهـا شـيئًا.

العلاقة المتناقضة بين حب التعليم كوسيلة للترقّي الاجتماعي وكراهية العلم والمعرفة كمُنغِّص ذهني وقِيَميّ على التقاليد والأفكار المحافظة، علاقة مستمرَّة حتى لحظتنا المعاصرة، بَلَغَت نقطة تَعادُلِها الحَدِّيَّة التاريخية في اللحظة التي استفاد منها دَجَّالٌ مُخضَرَمٌ من النوع النادر، اختبأ داخل واحدة من أهم مظاهر الرفعة الاجتماعية وأحد أهم علامات الصعود العصامي المصري بمعناه التاريخي والرمزي، وهي البدلة العسكرية المصرية، وعلى أكتافها رتبة اللواء ذات النسر والسيفين، حين ظهر متحدِّثًا بثقة لا مثيل لها عن قدرته على تحويل ڤيروس الإيدز إلى بروتين، شَبَّهه بأصابع الكُفتَة التي يتغذَّى عليها المريض في رحلة شفائه، إنه اللواء مُكلَّف إبراهيم عبد العاطي، صاحب أكبر ضربة معنوية أصابت سُوَيداء قلب المُتعلِّمين المصريين، أخافتهم بشدَّة من قواتهم المسلحة، وأخافتهم عليها في نفس اللحظة[1].

الإمعان في إهانة العلم ليست مُمارَسةً جديدة في بلادنا بالطبع، ولها تراثها الخاص منذ بَدْء مشروع الحداثة في مصر، فمحاولات التوفيق بين العلم والدين أو إثبات علوِّ الدين على العلم لطالما قَدَّمت لنا أُناسًا من نوع زغلول النجار، من الذين يحاولون إثبات أن كل نظرية عِلميَّة لها في الأصل مصدر قرآني ما، وما أكثر العيادات التي تدَّعي علاج الناس بالطب النبوي والحِجامة، وكم من دَجَّالين ونصَّابين كنزوا من جيوب الناس بالسُّحت، بدعوى أن السِّحر مذكور في القرآن. الظاهرة ليست جديدةً بالمرة، ولن تتوقَّف ما دام العلم والتعليم مَعنَيَيْن منفصِلَيْن في عقل ووجدان الناس.

كان التعليم الحديث في بداياته محلَّ شَكٍّ عامَّةِ الناس بحكم طبائع الأمور، فمعنى العلم قبلها كان مُعرَّفًا بدراسة العلوم الدينية في أروقة الجامع الأزهر، كان العلم والدين مُترادِفَيْن؛ لذا كانت المدارس الحديثة محلَّ شَكٍّ من العامَّة، خاصة وأن كثيراً من المشايخ أظهروا نوعًا من عدم الرضا عن نُظُم التعليم الجديد؛ بدعوى أنها بِدعَة، و"كل بِدعَةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار"[2]، ولولا قسوة محمد علي وشِدَّته على الجميع لاحتاج التعليم الحديث إلى فترة أطول كي ينتشر ويُحبَّه

(1) محمد أبو الغيط، الشروق، 3 مارس 2014، تحقيق بعنوان: "بالوثائق والصور: بوَّابة الشروق تتتبَّع مخترع علاج ڤيرس سي"

(2) عبد الله النديم: مصر وإسماعيل باشا، سلسلة مقالات، جريدة اللطائف، عدد 6 مايو 1882، دار الكتب المصرية.

العامـة ويألفـوه، خاصـة بعـد أن أظهـر لهـم نتائـج ومـردوداتٍ بنَّـاءة لا يمكـن إنكارهـا. لكـن خـلال فـترة الاعتيـاد تلـك كان القَسـر والإجبـار مـن الدولـة هـو عنـوان الموجـة الأولى مـن إلحـاق بعـض العامَّـة بالمـدارس الأميريـة، التـي ظنُّوهـا في البدايـة شـكلًا مـن أشـكال الإلحـاق الإجبـاري بالخدمـة العسـكرية[1]، وهـي العمليـة التـي مَقَتهـا الفلاحـون مقتًـا شـديدًا؛ نظـرًا إلى طـول فـترة التجنيـد الإجبـاري، التـي كانـت تصـل في بعـض الفـترات التاريخيـة إلى عـشر سـنوات أو أكـثر، وقـت أن كان متوسِّـط عمـر الفـرد لا يزيـد عـلى بضعـة وثلاثـين عامًـا في أحسـن الأحـوال.

لعـب التعليـم دورًا أساسـيًّا في تحقيـق قفـزات اجتماعيـة عملاقـة للإنسـان المصري، خاصَّـةً في القـرن التاسـع عـشر؛ إذ كانـت الوثبـات أعـلى لأن فُـرَص التعليـم كانـت أكـثرَ نُـدرَةً، وفي هـذا سِرُّ تقديـس المصريـين للتعليـم كتعليـم؛ فهـم يؤمنـون بأنـه جـسر العبـور مـن الفقـر إلى النعمـة، ومـن الخطـر إلى الأمـان، ومـن الذِّلَّـة إلى المكانـة العالية، بـل وربمـا إلى أعـلى مراتـب السُّـلطة والجـاه؛ لـذا بَجَّـل المصريـون الأطبَّـاءَ والمهندسـين، وفي زمـن كان للقانـون سـيادة أعـلى مـن الآن كان المحامـون في نفـس المرتبـة. لقـد حفـل تاريخنـا الحـي والـروائي بعـشرات القصـص التـي رسَّـخَت مكانـة التعليـم في عمليـة الانتقـال الاجتماعـي الآمِـن والمُسـتحَق، ففـي سـيرة طـه حسـين "الأيـام" نعيـش رحلـة مأسـاوية لطفـل مـن ريـف محافظـة المنيـا أصيـب بالرمـد، فعالجـه مشـايخ قريتـه بـدَسِّ مسـتخلص زيـت روث الفـئران في عينيـه حتـى فقـد بـصره تمامًـا، ثـم تبـدأ رحلـة كفاحـه المعـرفي الطويـل ويعتـدل الميـزان بتلقِّـي العلـم والوصـول إلى مرتبـة الحصـول عـلى الدكتـوراه في الأدب مـن جامعـة السـوربون الفرنسـية، والعـودة إلى مـصر والمسـاهمة في تأسـيس جامعـة القاهـرة (فـؤاد الأول وقتهـا) ثـم الحصـول عـلى رُتبَـة الباشـوية ومنصـب وزيـر المعـارف.

وفي السـيرة المَحكيَّـة عـن داوود يزيـد باشـا المـصري، يأخذنـا أديبنـا الفيلسـوف نجيـب محفـوظ في رحلـة دراميَّـة تبـدأ مـن اختطـاف عسـكر الباشـا لطفـلٍ يلعـب في الحـارة، وإلحاقـه قـسرًا بإحـدى المـدارس الأميريـة الجديـدة، لتنتهـي بـه الرحلـة مبعوثًـا إلى فرنسـا، ثـم طبيبًـا مرموقًـا، حاصِـلًا عـلى رتبـة الباشـوية. وفي حكايـة داوود باشـا

(1) وربمَّـا كان مـن الـدلالات المصادِفـة لهـذه الـروح أن التعليـم الأسـاسي في السـابق كان "التعليـم الإلزامـي"، في صياغـة لغويـة تُصـادِف نفـس وقـع كلمـة الخدمـة الإلزاميـة عـلى النفـوس.

المصري نرى مشاعر الحسرة والهلع عند عائلته حين اختُطِف -طفلًا- من أجل تعليمه قسرًا، ثم مشاعر الفخر به وتبجيله حين عاد سالمًا غانمًا طبيبًا، حتى تعميده كبيرًا لعائلته ومصدر فخرها وعمودها التربوي.

الميري والالتحاق بالعائلة القوية

فتح التعليم الحديث بابًا جديدًا لعَوَام المصريين وهو الالتحاق بالميري، فمع تحديث دولاب الدولة بدأت النِّظارات والهيئات تأخذ أشكالًا أكثر عصرية، استُحدِثت هيئات ومؤسسات حكومية جديدة بالجملة لمواكبة خطط التنمية والتوسُّع والضبط والسيطرة. فتح سلك الميري فُرَصَ عمل وتَرَقٍّ اجتماعي لآلاف المصريين، وغيَّر كثيرًا في آفاق التركيبة الاجتماعية الفلَّاحيَّة المصرية، وأحدث عددًا من التغيُّرات المباشرة مثل إعادة توطين الأُسَر والعائلات المرتبطة بالعاملين بالجهاز الحكومي، والمنتقلين بين المحافظات بحسب حاجات العمل، وكذلك تأسيس مفهوم "القُطر" أو الوطن المُعرَّف بحدود وجود ونفوذ وسيادة أجهزة الدولة نفسها، ليحلَّ مَحلَّ النظرة المحدودة القاصرة المتأصِّلة لدى فلَّاحي ما قبل الميري، والتي كانت تختزل الوطن في حدود القرية أو الكفر الذي يولد فيه الإنسان.

كذلك لعب الميري دورًا كبيرًا في إعادة تعريف الانتماء لدى الفلاحين الذين عملوا فيه، فلقد كانت حدود تصوُّرهم عن الانتماء لا تتجاوز عائلاتهم الصغيرة أو حدود قراهم، أمَّا مع الميري فقد صار الفلَّاح ينتمي إلى عائلة أكبر وأكثر قوة ونفوذًا وانتشارًا، عائلة تجمع الفلاح والشركسي والخواجة، في إطارٍ تنظيميٍّ واحد وعمومي، وهي كذلك عائلة تمتلك قوة مسلَّحة لا يستطيع أحدٌ مقارعتها: قوة الجيش والشرطة.

بالتالي خلق الميري لدى الفلاح المنتمي حديثًا إليه إحساسًا بالرِّفعة والأهمية والتمكُّن لم يكن يشعر به من قبل، من هنا جاء تقديس الميري لحدِّ التَّمرُّغ في ترابه إذا ما فات الإنسان، والأمر لا يقف عند حدود الرِّفعة والتَّمكُّن فقط، بل والإحساس بالأمان الناتج عن ثبات الدخل وضمانه من خزينة غنيَّةٍ لن تفلس، ثم ظهور مفهوم جديد لم يكن معروفًا من قبل كان أشبهَ بالسحر الاجتماعي، وهو مفهوم المعاش الوظيفي، فالملتحق بالميري لن يحصل على أجر وحوافز

وإنعامات خديوية وسلطانية من وقت لآخر فحسب، بل سيحصل لاحقًا حين يتوقَّف عن العمل لتقادُم عُمره على دخل ثابت، أي إن كرامة مَن يعمل في الميري محفوظة من لحظة التحاقه به وحتى مماته، ولأسرته من بعده.

دخول الفلاح إلى الميري فتح مداركه على مفهوم أوسع للاجتماع العام، يتجاوز قريته ومشكلاتها وتناحُرَها مع القرى المجاورة ومشاعر الخوف التي تستبدُّ بها حين يأتيها عسكر الوالي أو غُزاة الإفرنج، فهو الآن جزء من عملية تنظيمية أكبر، وصار يشعر بدوره في بناء المجتمع وتطويره والحفاظ على وجوده، وبدأ يعي بنوع جديد من المراتبية تُدخِل الكفاءة والجهد والذكاء كأسس في منظومة تقييمها وإثابتها، مثلما تدخل قيم الطاعة والموالسة والخضوع المُذِلّ لمَن هم أعلى في المرتبة، في السابق لم يكن لدى الفلاح من خيار إلا الخضوع المُذِلُّ والطاعة العمياء، أمَّا الآن فقد دخلت معانٍ جديدة في مصفوفة خياراته، تتَّصل بالكرامة والعمل والإبداع وإضافة القيمة، جنبًا إلى جنب مع قيم الإخضاع الموروثة.

لقد كان التحاق الفلاحين المصريين بالميري هو اللَّبِنة الأولى لمطالبتهم بالمساواة مع أبناء الإقطاع التركي الحاكم، أثبت المصريون كفاءةً عجَزَ السَّادةُ الأتراك عن تجاهلها، وزعزعت شعورهم الراسخ بالاحتقار ناحيتهم، وصار صعود الفلاح إلى أعلى المراتب مسألةَ وقت. لقد غزا الفلاحون كل أركان الدولة، اقتنصوا فرصة التعليم، واختبؤوا بصبرٍ ومكر في جنبات الميري، ليصيغوا تصوُّراتهم الحديثة عن احترام الذات والمكانة.

الجيش بلاط الفلاحين

بأسلوب مباشر وحاسم كره الفلاحون المصريون الجهادية والتجنيد في جيش الباشا محمد علي، كرهوه كرهًا عنيفًا لا مثيل له، حتى إنهم تفنَّنوا في إصابة أنفسهم بالعاهات المستديمة أملًا أن يعفيهم ذلك من الخدمة الإلزامية، بدءًا من قَطع أصابع اليد والقدم، وصولًا إلى حَدِّ فَقءِ الأعين، ودَقَّ بعضهم وُشومًا وصُلبانًا على أياديهم؛ لأن المسيحيين حتى عهد محمد سعيد باشا كانوا مستثنين

مـن الخدمـة العسـكرية بحُكـم القوانـين الذِّمِّيَّـة[1]. لم يجـد الفـلاح المـصري مغـزًى إيجابيًّا مـن الالتحـاق بالجيـش، فهـو أوَّلًا مَقتَلَـةٌ شـبه حتميَّـة في حـروبٍ يذهـب إليها الإنسـان، واحتـمالات ألَّا يعـود حيًّـا أعـلى مـمَّا عداهـا، والجيـش غربـةٌ طويلـة شـبه دائمـة؛ لطـول فـترة الخدمـة التـي كانـت في بعـض الفـترات تصـل إلى عـشر سـنوات، فضـلًا عـن أن كثـيرًا مـن حـروب الباشـا لم تكـن مفهومـةً لهـم؛ فمعظمهـا كان ضـد جيـوش السـلطان العثـماني في إطـار مـا فهمـوا أنـه جـزء مـن فِـتَن وصراعـات داخـل الدولـة العثمانيـة، أمـور لا ناقـة لهـم فيهـا ولا جمـل؛ فهـي لم تكن حروبًـا ضـد "الكُفَّار" مثـلًا؛ لـذا احتـاج الأمـر إلى عـشرات السـنين، وكثـيرٍ مـن الاعتيـاد والتطبُّـع حتـى أدرك الفلَّاحـون أن الجيـش هـو جـزء مـن المـيري، وأن التطـوُّع في صفوفـه قـد تكـون لـه ميـزة مـن ميـزات المـيري العمومـي.

اختلـف الأمـر مـع مَـن دخـل سِـلك الجُنديَّـة وترقَّـى ضابطًـا، فتلـك كانـت النقلـة النوعيـة التاريخيـة بحـقٍّ. يشـير خالـد فهمـي في كتابـه العُمـدَة المهـم "كل رجـال الباشـا" إلى أن جيـش محمـد عـلي باشـا في بدايـة تأسيسـه لم يكـن يسـمح لأولاد العـرب والفلاحـين بالترقـي إلى مـا فـوق رتبـة اليوزبـاشي، وحتـى لم يُـرَقَّ منهـم إلى هـذه الرتبـة إلا قِلَّـة، وبالنسـبة إلى رتبـة المـلازم أول والمـلازم ثـانٍ كان يجـب أن يكـون نصفهـم مـن الـترك والأرنـاؤوط، والنصـف الثـاني مـن العـرب داخل كل تشـكيل عسـكري (أورطـة)[2]؛ فقـد كان محمـد عـلي يـدرك أن السـماح للعـرب بتـولِّي مناصـب قياديـة في الجيـش أو في الإدارة المدنيـة سـوف يشـكل تحدِّيًـا لقاعـدة سُـلطَته القائمـة عـلى أسـاس تـركي-مملـوكي[3]، وقـد كان الباشـا المؤسِّـس مُحِقًّـا في حسـاباته تلـك، فابنـه الـوالي محمـد سـعيد حـين سـمح للفلاحـين وأولاد العـرب بالترقِّـي حتـى رتبـة القائمقـام (العقيـد) لم يحتـج الأمـر إلى أكـثر مـن عِقديـن حتـى هـدَّد الأمـيرالاي (العميـد) الفـلَّاح أحمـد عـرابي عـرشَ الخديـوي محمـد توفيـق باشـا حفيـد محمـد عـلي نفسـه.

معادلـة الضبـاط الفلاحـين كانـت مختلفـة عـن معادلـة الجنـود الفلاحـين، فالضبـاط سـيصبحون جـزءًا مـن حسـابات القـوة المباشرة وصراعـات السـلطة التـي قـد تصـل بصاحبهـا إمَّـا إلى أعـالي المقامـات، أو أسـافلها؛ فهـم يحملـون السـلاح، ويتبعهـم

(1) علي الرَّجَّال: مجتمع الاشتباه الدائم، المركز المصري للدراسات الاقتصادية والاجتماعية، ص 13.

(2) خالد فهمي: كل رجال الباشا، الفصل السادس "جيش محمد علي والأمة المصرية"، صفحة 342.

(3) نفس المصدر، صفحة 347.

الرجـال والقِطَـع العسـكرية المتطـورة، ومهـما بلـغ احتقـار الضبـاط الأتـراك والشركـس والأجانـب لهـم وإنكارهـم لوضعهـم الصاعـد الجديـد، فهـذا لـن ينفـي الحقيقـة المادية الجديـدة التـي أثبتـت وجودهـم كجـزء مـن معادلـة السـلطة والحكـم؛ فقـد صاروا يصاهـرون الأتـراك والشركـس ويندمجـون في الطبقـة البيروقراطيـة العليـا مـن دون نسـيان أصولهـم الريفيـة، ويخوضـون صراع المسـاواة في المكانـة والرواتـب مـع الضبـاط الشركـس، فظهـرت أسـماء أحمـد عـرابي وعبـد العـال حلمـي وعـلي فهمـي ومحمـد عبيـد وطلبـة عصمـت، وآخريـن.

وبـصرف النظـر عـن تصـوُّرات العامـة في مـصر عـن شـكل نظـام الحكـم -التـي غالبًـا مـا تتَّسِـم بالبسـاطة والجهـل- فـإن ثـورة عـرابي وضُبَّاطـه وبـزوغ نجـم كبـار ضُبَّـاط الجيـش مـن أولاد العـرب والفلاحـين، كانـت بدايـةً أوَّليَّـة جـدًّا لتصوُّر إمكانيـة نظريـة بـأن يحكـم مـصر واحـدٌ مـن أبنـاء الفلاحـين، وهـي فكـرة لم تكـن تخطـر عـلى بـال أي مـن كان، ولـو ابتعدنـا عـن تصـوُّرات الحـد الأقـصى التـي طرحهـا مُثقَّفـو الحركـة الوطنيـة المصريـة لاحقًـا عـن شـكل مـصر في المسـتقبل، وأحلامهـم بوجـود حُكـمٍ نيـابيٍّ دسـتوري، وصـولًا إلى حلـم تأسـيس الجمهوريـة، لوجدنـا أن تصوُّرات الحـد الأدنى لـدى المصريـين مـن الفلاحـين لم تتجـاوز حـدود أن يصبـح واحِـدٌ منهـم حاكِمَهـم، أي واحـد مـن أبنـاء الفلاحـين، شريطـة أن يكـون مُتواضِـعَ الصفـات، ورحيـمَ النَّفـس، ويشـعر بالانتـماء والامتنـان لأصولـه الفلاحيَّـة، ويخاطـب أبنـاء الريـف كواحـدٍ منهـم، أيًّـا كانـت صيغـة حُكـم هـذا الحاكـم أو مـدى تقدُّمهـا وحداثتهـا.

لقــد كان الجيــش -ولا يــزال- أحـدَ أكـثر مؤسَّسـات الدولـة حداثـة وتطـوُّرًا مـن حيـث تمكـين فضيلـة المسـاواة وإعـلاء مبـدأ تكافـؤ الفـرص وفتـح بـاب الترقـي الاجتماعـي إلى أعـلى المراتـب، وجعلهـا إمكانيَّـةً مادِّيَّـةً فِعليَّـة قابِلـةً للتَّحقُّـق؛ فنظريًّـا يمكـن حتـى الآن لواحـد مـن أبنـاء الفلاحـين والبسـطاء أن يلتحـق بالكليـة الحربيـة، ونظريًّـا يمكـن لهـذا الضابـط الشـاب أن يتـدرَّج في سُـلَّم الرُّتَـب العسـكرية حتـى الوصـول إلى مرتبـة "الباشـا الكبـير" نفسـه، مـن دون النظـر إلى المكانـة الاجتماعيـة والطبقيـة الأصليـة لهـذا الضابـط، وبالنظـر إلى النزعـة الطبقيـة المتأصِّلـة في المجتمـع المـصري حتـى يومنـا هـذا، فسـيظل هـذا الأمـر مـن علامـات التقـدُّم في مجتمـعٍ يعشـق الانتصـار للمعـاني المحافِظَـة والصيـغ التَّراتُبيَّـة، وبالنسـبة إلى عمـوم الشـعب -المُغيَّبـة إرادتـه قسرًا، وعـن نِيَّـةٍ وقصـد، ومـع اعتـماد كافـة أشـكال القهـر الاجتماعـي في أعمـق

مكامنـه- يكـون الجيـش -موضوعيًـا- هـو بـلاط الفلاحـين الذيـن يتقـدَّم مـن بينهـم "ملـك في صـورة رئيـس"، يجلـس عـلى عـرش "نصـف جمهوريـة"، أو لِنَقُـل "جمهوريـة مُرجَـأة الاكتـمال"[1]، ومؤجَّلـة الإعـلان الحقيقـي، بفعـل تغييـب الشـعب وإرادتـه.

القابِليَّة للتغيير وتَبنِّي أفكار ومهارات جديدة

يدَّعـي جـزء لا بـأس بـه مـن المتبنِّـين للسرديـة الوطنيـة المحافِظَـة بـأن المصريـين لا يُرحِّبـون بالأفـكار الجديـدة، ودائمًـا مـا يُشـكِّكون فيهـا ويحتاجـون إلى زمـن طويـل للبـدء في هضمهـا وفهمهـا وتبنِّيهـا، لكننـي أعتقـد اعتقـادًا راسـخًا بـأن هـذا الادعـاء غـير صحيـح بالمـرة؛ فبالنظـر إلى التاريـخ القصـير جـدًّا لرحلـة تعليـم المصريـين التـي لا تتجـاوز مائـة وثمانـين عامًـا -بـدءًا مـن ثلاثينـات القـرن التاسـع عـشر- سـنجد أن معظـم الأفـكار الرائجـة عالميًّـا خـلال هـذا القـرن انتـشرت انتشـارًا سريعًـا بـين المصريـين، مثلهـم مثـل أبنـاء بقيـة الأمـم، عـرف المُتعلِّمـون المصريـون معنـى الجمهوريـة والأمـة وسـيادة الشـعب والفصـل بـين السُّـلطات والأفـكار الفلسـفية المُؤسِّسـة لمعنـى حريـة الإنسـان والـصراع الاجتماعـي، تعـرَّف المُتعلِّمـون المصريـون في ظـرف نصـف قـرن عـلى أُسُـس القوميـة والليبراليـة والاشـتراكية، عرَّبـوا المصطلحـات الغربيـة الفلسـفية وحاولـوا إعطاءهـا مدلـولات محلِّيَّـة، انتـشرت الصحـف المُروِّجـة لتلـك الأفـكار والقيـم ولـو عـلى اسـتحياء، في مقاومـة للطبيعـة الأمنيـة الراسِـخة للدولـة في مـصر ودعاياتهـا الدائمـة منذ عهـد محمـد عـلي ضـد الأفـكار الأجنبيـة، وتحذيـر العامَّـة مـن تَبنِّيهـا والإنصـات لهـا، سـواء أكان بالترهيـب والعنـف، أم بالدعايـة الدينيـة المضـادَّة؛ لذلـك لا يمكننـي أبـدًا اعتبـار مـصر مـن البلـدان بطيئـة التفاعـل مـع مـا يحـدث خارجهـا، بـل عـلى العكـس تمامًـا، لقـد تمكَّـن المتعلِّمـون المصريـون في ظـرف عقـود قليلـة مـن الوثـبِ وَثبـاتٍ عملاقـةً في مسـيرة رحلـة بحثهـم عـن مشروعهـم الخـاص للتحديـث.

يـورد محمـد صـبري السـوربوني في كتابـه المؤسِّـس "نشـأة الـروح القوميـة في مـصر 1863 - 1882" مقـالاتٍ مـن صحـف فرنسـية صـادرة في الإسـكندرية في أواخـر سـتينات القـرن التاسـع عـشر، تتحـدَّث عـن تَغـيُّر كيفـيٍّ حـدث للفلاحـين المصريـين خـلال فـترة

(1) مزيد من التفصيل في الفصل الأخير.

حكـم الخديـوي إسـماعيل، وكيـف بعـد أن كانـوا لا يرغبـون البَتَّـةَ في محادثـة الأجانـب في أي شـأن لـه طابـع عـام خوفًـا مـن البوليـس والـدَّرَك، راحـوا يتبادلـون وجهـات النظـر معهـم وينصتـون لأفكارهـم الجديـدة عـن الحريـة والمسـاواة والمواطنـة، بـل راح بعضهـم يتبنَّـى تلـك الأفـكار بحماسـة، وخاصـة عُـمَّال الـورش والمصانـع الجديـدة.[1]

لم يكـن التعليـم الأمـيري والبعثـات الخارجيـة المَصدَريْـن الوحيديـن للمعرفـة في مـصر، فهنـاك عامـل آخـر لا يمكـن إغفالـه سـاهم في تكوين طبقـة المثقفين مـن أصحاب الفكـر والميـول المختلفـة، خاصـة الراديكاليـة منهـا، وهـو تأثـير الأجانـب المقيمـين بمـصر في المصريـين أنفسـهم تأثـيرًا يوميًّـا مبـاشرًا. كان لغالبيـة هـذه الأفـكار طابـعٌ اشـتراكيٌّ ومسـاواتي لم تكـن السـلطة تعلِّمـه للطلبـة في المـدارس بالطبـع، بعـض هـؤلاء الأجانـب أنفسـهم كان عُـمَّالًا وفنِّيِّـين مـن أنصـار الأفـكار الاشـتراكية الداعمـة لحقـوق الطبقـة العاملـة، وبقـدر مـا كان المجتمـع الأوروبي في مـصر كبـيرًا مـن حيـث عـدد الأجانـب المقيمـين بمـصر وتَنـوُّع جنسـياتهم؛ تنوَّعَـت التيـارات السياسـية والفكريـة التـي ظهـرت بداخلـه، مـع الأخـذ بالاعتبـار أنهـم كانـوا مـن ذوي الامتيـازات التـي متَّعَـت أصحابهـا بحمايـة دوليـة ونظـم قضائيـة خاصـة ومحاكـم قنصليـة؛ مـا حمـى النشـاط الفكـري والسـياسي الأجنبـي داخـل مـصر مـن بطـش السُّـلطة المحلِّيَّـة.

لقـد تَـشرَّب المصريـون الأفـكار القوميـة والليبراليـة والاشـتراكية تباعًـا، إمَّـا عـلى أيـدي المثقفـين الوطنيـين الجُـدُد المتأثريـن بدورهـم بالمـدارس الفكريـة الأوروبيـة، وإمَّا عـن طريـق المثقفـين الأوروبيـين الموجوديـن داخـل مـصر، ولعـل قصـة إبراهيـم الورداني الـذي اغتـال بطـرس غـالي رئيـس وزراء مـصر في مطلـع القـرن العشريـن مثـالٌ جيِّـد لتبنِّـي المثقفـين المصريـين أفـكارًا راديكاليـة، فقـد كان الورداني يتبنَّـى الأفـكار الأناركية[2] في زمـنٍ لم تكـن فيـه الأفـكار الاشـتراكية والأناركيـة مَحـلَّ انتشـارٍ، أو موضوعًـا للتدريـس في المـدارس.

علينـا فقـط أن نتذكـر ونتأمَّـل في تصـورات المثقفـين المصريـين عـن أساسـيات العلـم وقواعـد الثـواب والعقـاب ونظـام العدالـة في مطلـع القـرن التاسـع عـشر؛ لنـدرك

(1) محمد صبري السوربوني: نشأة الروح القومية في مصر 1863 - 1882، صفحة 170.

(2) الأناركيـة (الـلا سـلطوية) هـي المدرسـة الفكريـة التـي تقـع عـلى أقـصى اليسـار بـين التيـارات الاشـتراكية، وتؤمـن بـضرورة تحطيـم سـلطة الدولـة -أي دولـة- في المطلـق، كـشرط أسـاسي لبنـاء مجتمـع خـالٍ مـن الطبقيـة، قـادر عـلى تقويـض أُسُـس النظـام الرأسـمالي.

القفـزة العملاقـة التـي حدثـت خـلال هـذا القـرن، فعبـد الرحمـن الجـبرتي، وهـو أحـد ألمـع مثقفـي مـصر وقتهـا، كان يقـف مشـدوهًا أمـام تجـارب الفرنسـيين العِلميَّـة، ولم يفهـم مـن الأصـل ماهيَّـة التجـارب المَعمَليَّـة للجـنرال الفرنـسي كافاريلـلي عندمـا كان يُسـيِّر تيـارًا كهربائيًّـا في جسـم ضفـدع هـو وعـدد مـن علـماء الحَملَـة، وكان يسـخر كذلـك مـن القـادة الفرنسـيين لمحاكمتهـم سـليمان الحلبـي أمـام محكمـة ثلاثيـة، وتوكيـل الفرنسـيين لمحـامٍ يدافـع عنـه بعـد أن قتـل كبيرهـم الجـنرال كليـبر، كان لا يفهـم مغـزى إقامـة محكمـة طويلـة بإجـراءات مُعقَّـدة لرجُـلٍ شَـهِدَ بِجُرمِـه واعـترف بـه بعـد أن قُبِـض عليـه متلبِّسًـا، فيذكـر الجـبرتي:

"رأيـت كثـيراً مـن النـاس تتشـوَّق نفسـه إلى الاطِّـلاع عـلى صـورة المحاكمـة لتَضَمُّنِهـا خـبر الواقعـة وكيفيـة الحكومـة، ومـا فيهـا مـن الاعتبـار وضبـط الأحـكام مـن هـؤلاء الطائفـة الذيـن يُحكِّمـون العقـل ولا يَدينـون بديـن، وكيـف وقـد تَجـارَى عـلى كبيرهـم ويعسـوبهم رَجُـلٌ آفاقـيٌّ أهـوَجُ وغَـدَرَه، وقبضـوا عليـه وقـرَّروه، ولم يعَجلَـوا بقتلـه وقتـل مَـن أخـبر عنهـم بمجـرد الإقـرار بعـد أن عـثروا عليـه، ووجـدوا معـه آلـة القتـل مُضمَّخَـةً بـدم سـاري عسـكرهم وأميرهـم، بـل رتَّبـوا حكومـةً ومحاكمـةً، وأحـضروا القاتـل وكـرَّروا عليـه السـؤال والاسـتفهام، مـرَّةً بالقـول، ومـرَّة بالعقوبـة، ثـم أحـضروا مَـن أخـبر عنهـم وسـألوهم عـلى انفرادهـم ومجتمعـين، ثـم نفَّـذوا الحكومـة فيهـم بمـا اقتضـاه التحكيـم".[1]

منـذ لحظـة الجـبرتي تلـك، لم يسـتغرق الأمـر أكـثر مـن سـبعين عامًـا حتـى صـار بـين أبنـاء البلـد مَـن يعتـبرون أنفسـهم ديمقراطيـين أو قوميـين أو ليبراليين أو اشـتراكيين. إذًا بالنظـر إلى العمـر القصـير جـدًّا لرحلـة التحديـث والتعليـم المصريـة، سـنجد أن ظهـور أفـكار جديـدة وتبنِّيهـا حـدث بإيقـاع شـديد السرعـة والحـماس، وهـو مـا ينفـي عـن المصريـين سِـمَة رفـض التطـوُّر وقبـول الأفـكار الجديـدة، ولم يقتـصر الأمـر عـلى الأفـكار والنظريـات المُجـرَّدة التـي تحتـاج إلى مسـتوى مُعـيَّن مـن التراكـم المعـرفي والتعليمـي، بـل امتـدَّ أيضًـا إلى تطويـر المهـارات الفنيـة واليدويـة، واسـتحداث حِـرَفٍ جديـدة وتعلُّـم مهـارات مرتبطـة بالحيـاة الحديثـة لم تكـن موجـودة مـن قبـل، غـيَّرت

(1) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الرابع، ص 173، نسخة مؤسسة هنداوي للعلوم والثقافة.

مـن طريقـة عمـل أربـاب الحـرف والصنايعيـة في مـصر، مـن طوائـف المعـمار وصُنَّـاع الأثـاث والسَّرَّاجـين، وابتدعـت حِرفًـا جديـدة كالسَّـبَّاك والميكانيـكي والمطبعجـي.

تغـيَّرَت حيـاة المصريـين وطرائقهـا ومفرداتهـا أكـثر مـن أربـع مـرات خـلال مائتـي عـام، كانـت رحلتهـم في كل مـرة هـي ابنـة لعالمهـا الجديـد ومفرداتـه، جنبًـا إلى جنـب مـع المـوروث مـن معتقداتهـم وتصوُّراتهـم التراثيـة، لقـد سـكنوا الموانـئ وعاشـوا في مجتمعـات عمرانيـة جديـدة عـلى طـول قنـاة السـويس، المُسـتَحدَثَة مـن الأصـل، عمـروا مـدن بورسـعيد والسـويس والإسـماعيلية، وجـاوروا الأجانـب، وأعـادوا تشـكيل الإسـكندرية الجديـدة، التـي صـارت مرفـأ متوسـطيًّا عملاقًـا ومجـالا جديـدًا للعَيـش الطيـب بعـد شَـقِّ ترعـة المحموديـة، لم يـترك المصريـون بابًـا إلا وطرقـوه مـن أجـل كسـب أرزاقهـم، غامـروا ضـد معتقداتهـم القديمـة وخاضـوا مغامـرة الهجـرات الداخليـة، بعـد أن كانـوا يعتـبرون الابتعـاد بضـع مئـات مـن الأمتـار عـن قراهـم غُربَـةً مريـرة.

وفي رحلـة المصريـين العصاميـة المعـاصرة نحـو المعرفـة والترقِّـي الاجتماعـي والحضـاري، لا يمكننـا إغفـال آلاف النـماذج التـي اسـتفادت مـن الانفتـاح المعـرفي الـذي وفَّرَتـه شـبكات الإنترنـت، واعتمادهـم عـلى المـواد المتاحـة في الشـبكة لتثقيـف أنفسـهم بنحـوٍ طَوعـيٍّ وعصامـي، منهـم مَـن علَّـم نفسـه مهـارات فنيـة وتقنيـة مثـل لغـات البرمجـة، ومنهـم مَـن نهـل مـن مكتبـات العـالم المتاحـة والمُقَرصَنَـة ليقـرأ في الأدب والسياسـة والعلـم والفلسـفة، حتـى ظهـر مؤخَّـرًا العديـد مـن المثقفـين والباحثـين المُدقِّقـين الذيـن أسَّسـوا أنفسـهم بنحـوٍ عصامـي تمامًـا، معتمديـن عـلى جهدهـم وسـعيهم الـدؤوب نحـو المعرفـة في ظـروف وشروط غـير مشـجِّعة بالمـرة لهـذا النـوع مـن الرحـلات العظيمـة.

لقـد بَخَسَـت تدهـوراتُ تاريخنـا المعـاصر حـقَّ وقـدر رحلـة المصريـين العصاميـة نحـو التطـور والتحضُّر، وغطَّـت الإخفاقـات المعـاصرة بغمامـةٍ تعيسـة عـلى الوجـدان، فلـم نعـد نـرى في مـرآة ماضينـا القريـب إلا السـوءات التـي ورثناهـا منـه وشـكَّلَت ملامـح انحطـاط حاضرنـا، لقـد حـدث نكـران لمـا صنعـه بسـطاء الفلاحـين آخـر مائتـي عـام مـن أجـل تحسـين حياتهـم ورفـع شـأن أبنائهـم، وكـذا جهودهـم المكافحـة مـن أجـل توفـير مـا يمكـن توفـيره مـن مـال بسـيط لدفـع فـرد واحـد مـن أفـراد العائلـة

نحـو التعليـم والمـيري، ليرمـي لهـم حبـال الإنقـاذ لاحقًـا، وذلـك بمنتهـى التضحيـة، واقتطاعًـا مــن الأقـوات والأرزاق، يُطمَــس تاريــخ هــذه الرحلــة العظيمــة في غمـرة الادِّعـاءات الطَّبقيَّـة الجَربوعـة الكذوبـة لأبنـاء اللحظـة الراهنـة، الذيـن يريـدون إعـادة كتابـة تاريخهـم الشـخصي كـما لـو كانـوا وُلِـدوا وفي خياشـيمهم ملاعـق مُذهَّبـة لينكـروا عصاميـة وكفاحيـة أجدادهـم، بـل والإحسـاس بالعـار منهـا، فجـأة صـارت لهـؤلاء مـن ذوي البـشرة القمحاويـة الداكنـة أصـولٌ تركيـة، وفجـأة صـار كل الأجـداد باشـاوات سـابقين أو مـن ذوي الملكيـات الكـبرى التـي تأمَّمَـت لاحقًـا، لقـد صـار الحـاضر حـاضرًا جربوعًـا لدرجـةٍ نالـت مـن كل معنـى عصامـي تأسَّــس عليـه تاريخنـا، لنـترك وحدنـا مـع آبـار لا تنضـب مـن جَرْبَعَـةٍ تحتـاج إلى أن تُمَـزَّق بفـؤوس ومناجـل، وربمـا چراكـن كيروسـين وكـرات مـن لَهَـب.

الفصل الثاني

في أصول الجَربَعَة المصريَّة

الجَربَعَة ليست تعبيرًا عن موقع اجتماعي متواضع، فلا الفقر ولا الجهل وَصمَة، بل في الغالب تعبير عن شروط مادية خارجة عن إرادة أصحابها، مفهومي عن الجربعة لا علاقة له بالمال والمكانة الاجتماعية على أي نحو، لقد وُلِدَت الجربعة من داخل رحلة العصامية المصرية ونقيضةٌ لها، ومن ثقافة البؤس ومواريث القهر التي سبقتها، تقوى الجربعة وتتعزَّز على حساب العصامية وقِيَمها، بإضعاف المؤسسات والعلاقات التي أنبتتها وأرستها كالتعليم والميري والجيش والاتصال المتجدِّد بالأفكار الحديثة، لتغرس مكانها قِيمَ احتقار الثقافة وحصارها، وتمكين مُرَكبَّات الخوف والهزيمة من المعاني النقدية والمُركَّبة.

يمكن تعريف الجربعة بأنها حزمة من التصوُّرات الفردية والجماعية التي تعمل على إنتاج وإعادة إنتاج نفسها نفسيًّا وسلوكيًّا، باختصارٍ يتوخَّى التجريد قدر الإمكان. الجربعة هي الاستهانة بسلامة واتساق المنطق الأخلاقي بنحوٍ يحرم صاحبه من الدرجة المطلوبة من احترام النفس واحترام الآخر واحترام المعاني

عمومًا، فتنحطُّ تفاعلاته مع الوجود إلى حدود تجعل الخوف بتجلياته المختلفة ملازمًا لكل العلاقات، "الخوف من أو الخوف على" كعناوين رئيسية حاكِمَة للاجتماع الإنساني المشترك، بنحوٍ يَجتثُّ كرامة الإنسان وينال من فضائل وجوده، قد تبدو الكلمات صعبة، لكن يمكن تفكيكها عبر إيضاحات أكثر تفصيلًا مثل عدم اتِّساق القول مع الفعل أو تناقضهما واستمراء هذا التناقض بتبجُّحٍ دون وخز للضمير، أو التخلِّي عمَّا يتصوَّره المرءُ قناعةً أو خطًأ سليمًا لمجرد تعثُّر هذه القناعة في محنة من المحن، أو تقديس القوة -أيِّ قوة- لمجرد أنها منتصرة.

على مستوى التطبيقات الاجتماعية لتطوُّر المفهوم مع الزمن فإن "الزياط" والمزايدة الدينية والأخلاقية غير المتَّسِقة مع سلوك صاحبها المشين هي سِرٌّ من أسرار الجربعة، اقتحامَ الحياة الخاصَّة للناس ومحاكمتها باسم الدفاع عن قِيَم المجتمع: جَربَعَة، اعتبارَ تمسُّك أصحاب المبادئ بمبادئهم تعبيرًا عن مثاليَّةٍ فارغة ومنطقٍ حالِمٍ وغير عمليٍّ: جربعة، تقديسَ النَّزعات الفردانية والرفض الأناني لصيغ العمل الجماعي: جربعة، احتقار الثقافة وكل تفكير مُرَكَّب باسم ادِّعاءات شعبوية عن صعوبة هذه الأفكار والطروحات وابتعادها عن "حقيقة الشعب": جربعة، طلب الشكر على الواجب: جربعة، إذلال الناس بفعل الخير واستعراضه: جربعة، اعتبار كل نقد حقدًا وكل خلاف صراعًا وكل نقاش شِقاقًا: جربعة، تَوَرُّمَ الذات والتهابها دون توقُّفٍ وتَبيُّن: جربعة، إيجاد تسويات دائمة للمشكلات بالانتصار للطرف الأقوى وقهر وتدجين المستضعفين: جربعة، استسهال المكسب من نشاطات سيَّارة دون النظر إلى قيمتها المضافة ولا رسوخ واستدامة أُسُسِها: جربعة... وهكذا!

أيُّ تجربة تُنتِج وتعيد إنتاج الجربعة؟

لكن هناك شيئًا بدا لي دائمًا عصيًّا على الفهم، وهو حرج كثير من أغنياء مصر وأفنديَّتها المتعلِّمين والموظفين من أصولهم الاجتماعية البسيطة والمتواضعة، باعتبار أن البحث عن تفسير هذا الحرج غير المبرَّر يعتبر مدخلًا محوريًّا لفهم الجربعة ومنطق عملها، ففي الغالب وباستثناءات نادرة، لا يوجد في مصر أبناء حَسَبٍ ونَسَب بالمعنى الذي يدَّعيه البعض، وتاريخ المصريين بالمعنى الواسع هو

تاريخ التخلُّص من الفقر ووصمته، وبدلًا من أن يعتبر المصريون أنفسهم فقراء أو فقراء سابقين، ويحتفوا بقصص كفاح وعصامية أهلهم وأجدادهم المباشرين التي اعتمدت على الجهد والتعليم واستغلال اللحظات الطيبة في التاريخ التي سمحت بتكافؤ الفرص، راحوا ينكرون هذا التاريخ لصالح ادِّعاءات كاذبة عن تاريخ خاص لتميِّز عائلاتهم أو أصولهم الاجتماعية.

التفسير الأول هو أنه مثلما ترقَّى البعض اجتماعيًّا بمسيرة من العصامية وبذل الجهد وتحصيل العلم والمعرفة، فهناك أيضًا من تَرَقَّوا بالفساد والإنعامات السُّلطويَّة والجريمة الاقتصادية، وهو تاريخ غير مُشرِّف، ولا يمكن لأحدٍ الفخرُ به، خاصة وأن ثقافتنا قد تغيَّرَت، وصرنا مواطنين، لا رعايا وعبيدَ إحسانات أفندينا؛ لذا لا أعتقد أن يتفاخر أحدٌ بأن عائلة جدِّه الباشا بدأت مسيرتها من هِبَةٍ خديوية في صورة عدد من الفدادين مُنِحَت لأحد بستانيِّي قصره الحُفاة من مُتشقِّقي الأقدام، مثل قصة الخادم المَلَكيِّ إدريس الأقصري[1] الذي أمر الملك فؤاد الأوَّل بطبع عملة ورقية من فئة الجنيه وعليها صورته، ومَنَحَه رتبة البكوية لأنه تنبَّأ له حين كان أميرًا بأنه سيجلس على عرش مصر، أشياء كهذه تُذكِّرنا بسَفَهِ وضِعَة بعض الخطابات التي تَحِنُّ إلى العهود الملكية.

التفسير الثاني، وهو عطفٌ على الأول، ويتعلَّق بسيادة إرث خطابي بدأ منذ منتصف سبعينات القرن العشرين، صاحَب تأسيس طبقة رأسمالية طفيلية استفادت من سياسات الانفتاح الاقتصادي التي أطلقها الرئيس الأسبق أنور السادات، واتَّسَمَت غالبية أنماط صعود هذه الطبقة بممارسة الجريمة الاقتصادية الفجَّة، فقد راكم بالفساد عددٌ لا بأس به من موظَّفي الدولة ومديري المؤسَّسات في ستينات عبد الناصر ثرواتٍ تسمح لهم باعتلاء الوثبة الانفتاحية في سبعينات السادات، وكان عدد آخر منهم من أبناء الطبقات الإدارية والبيروقراطية العليا المستفيدين من معرفة واحتكار المعلومات الاقتصادية والفنية، فسبقوا الآخرين في جلب التوكيلات الأجنبية وفتح نشاط الاستيراد. تمَّ هذا الصعود السريع المُتعجِّل لهذه الرأسمالية الطفيلية في ملابسات يشوبها الفساد والانحطاط وانعدام الشفافية، ولم يكن نشاطهم الاقتصادي إنتاجيًّا بقدر ما كان ريعيًّا واستهلاكيًّا

(1) تاريخ العملات المصرية.. جنيه إدريس: مجلة قطاع الأمانة العامة لوزارة المالية، عدد يونيو 2016، صفحة 27.

بالأساس، ومستفيدًا من عطش الأسواق المحليَّة المُغلَقة، وهي حالة من الصعب جدًّا وصفها بالعصامية، لناسٍ قَرَّروا في سياق هذه الملابسات التعيسة أن يمارسوا البلطجة والتزييف التاريخيَّيْن، ويعلنوا أنفسهم أرستقراطيَّةً جديدة، تختال بوضعها وتحاول أن تدَّعي لنفسها -بالزُّور- أصولًا تاريخية من الرِّفعة والمقام، عبر الكذب وغسل السمعة والمصاهرات، كان هؤلاء -ولا يزالون- هم العِماد الأساسي وحَجَر الزاوية للبرچوازية المصرية "الجربوعة" الجاثمة على أنفاسنا إلى يومنا هذا.

التفسير الثالث يتعلَّق بطبائع غريبة داخل ما تُسمَّى بالطبقة الوسطى المصرية، طبائع تُنتِج مَيلًا غريزيًّا لرفض الوافدين الجُدُد عليها؛ بدعوى أنهم سيفسدون نمط حياتهم "الراقي"، هؤلاء الوافدون الجدد هم في الغالب نِتاج رحلةٍ عصاميَّةٍ ما بحُكم التطور والنُّموِّ الطبيعيَّيْن للاقتصاد والجماعة السكانية، بالطبع لا يمكن أن تُعزَى هذه الطبائع الغريبة إلى أساسٍ قِيَميٍّ؛ كالحسد والحقد أو الشعور بالتهديد، فميل الطبقة الوسطى لرفض الوافدين الجدد عليها غالبًا ما يرجع إلى حالة السيولة الاجتماعية الدائرية في هذا البلد، حيث لا يوجد مشروع تنموي متماسك يقود ويُهندس عملية الحراك الاجتماعي بنحو يضع في اعتباره مردودات هذا الحراك من الناحية الاجتماعية والثقافية، فكل طبقة وسطى في حينها هي بمعنى من المعاني طبقة وسطى جديدة ومُحدِثة نعمة، لا يرجع تاريخها لأكثر من عقدين أو ثلاثة في أحسن الأحوال؛ لذا فسماتها المعيشية والثقافية ليست بالرسوخ الذي يُمكِّنها من امتلاك صيغة للهيمنة الاجتماعية والثقافية على الوافدين الجدد، صيغة تستطيع أن تحتويهم داخلها وتعيد صياغتهم على شاكلتها. أشكال الهيمنة تلك مظاهرها يجب أن تكون قيمية وتربوية وناعمة وتتمتع بالاحترام والقدرة على الإقناع، بحيث تُشكِّل قدوة للقادمين الجُدُد ويرون من منظارها هي شكلَ عالمهم الجديد، عالمهم الجديد المتغيِّر دومًا، خاصة إذا كنَّا من أبناء بلد الأصل فيه هو الهجرة الداخلية، وأحد أكثر أسئلة التعارُف انتشارًا بين مواطنيها هو "إنت منين" أو "بلدكم إيه"، كسؤالٍ طبيعي يفترض بَداهةً أن الأصل في التجربة الاجتماعية والديموغرافية المصرية الحديثة هي الهجرة المستمرَّة من الأرياف إلى المدن.

في ظنِّي لم توجد في مصر قَطُّ صيغة ناجحة من صيغ الهيمنة الثقافية لأي طبقة وسطى- عُليا في أي لحظة كانت، ففي الغالب كانت عملية الحراك الاجتماعي نتاجًا لسياسات ليس عليها إجماع وغير محسوبة التبعات لأنها غير

مفهومة للناس من الأصل، بحكم إسقاطها مِظليًّا من جانب سلطات الدولة، فضلًا عن أن هذه الطبقات الوسطى لطالما افتقدت القدرة على التنظيم المجتمعي الفعَّال الذي يمكنها من إرساء قواعد معيشتها وصيغها الثقافية، وبالتالي القدرة على حملها إلى الآخرين كنَسَقٍ مُتماسِك، بنحوٍ جعل استقرار الهيمنة البرچوازية في مصر -بالمعنى الدقيق للهيمنة- إمَّا ضعيفًا وإمَّا منعدمًا، وفي هذه الدائرة المستمرَّة لا تمتلك الطبقات الأعلى حيال الطبقات الأدنى إلا مَدخَلَيْن للتَّمايُز وإثبات الرِّفعة، أولهما هو الهروب المستمر إلى مرافئ جديدة تتخيَّلها آمِنةً من غزو "الواغش" عبر عملية هجرة سكنية تتجدَّد كل عشرين عامًا تقريبًا لتجمُّعات جديدة بعيدة، وصلت الحال ببعضها هذه الأيام إلى أنها صارت مُسيَّجة بالأسوار الخرسانية والتشكيلات المُسلَّحة. وثاني مداخل السعي للتمايُز وإثبات الهيمنة هو الاستهلاك المستمر لسلع وخدمات يعجز غيرهم عن استهلاكها، فتصير قيمة الطبقة الأعلى من قيمة ما تستهلكه وليس من قيمة ما تنتجه أو تبدعه، وكلما كان هذا الاستهلاك ومفرداته يتَّسِم بالإفراط والمباهاة والحصرية نجحت رسالة التمايُز تلك في الوصول إلى ما ترمي إليه من مفاصَلَة وهروب، وتخيُّل للقُدرَة على التحكُّم عن بُعد.

وماذا عن السادة المؤسِّسين الذين يحيل البعض إلى عَظَمَة أيامهم؟

دائمًا ما يَحِنُّ المصريون إلى ماضٍ ما، سواء أعاشوه أم لا؛ فالماضي لديهم أعظم من أي حاضر أو أي مستقبل. قليلة هي الأمم والشعوب التي تمتلك سرديَّتُها الوطنية شعورًا بالاستحقاق على التاريخ بذاته، ولديها إيمان بوجود وعيٍ قومي واحد وفريد عبر كل الأزمان، وادِّعاء بوجود تماسك عضوي لأمة لها سماتها وملامح ثقافتها الخاصة عبر تاريخ يتجاوز التسعة آلاف عام، ويكون الادِّعاء مثيرًا أكثر للإغراء لو كان هذا التاريخ تاريخًا عظيمًا بالفعل، تشهد عليه آثاره التي تحاصرنا في كل شِبرٍ في حياتنا؛ لذا فالمصريون من عمالقة احتراف النوستالچيا والوَلَه بالماضي؛ لأسباب يمكن فهم منطقها بإرجاعها إلى ثِقَل وعمق تاريخ الوجود السكاني والحضاري على وادي النيل.

غير أني لست قادرًا على هضم هذا المُبرِّر ولا شرائه، ولا أراه كافيًا لتفسير فيض سيلان الحنين المستمرِّ لدى المُتعلِّمين المصريِّين ناحية الماضي، وأي ماضٍ وكل ماضٍ، فرعونيًّا كان أم إسلاميًّا أم مَلَكيًّا أم ناصريًّا، فأنا لا أرى في حنينهم المزعوم هذا إلا تعبيرًا مكشوفًا عن عجز واضح عن مواجهة تحديات الواقع المعاصر، أو تَعَامٍ مقصود عن قراءته، وقد يتجاوز الأمر أزمات اللحظة الراهنة، ليصير الحنين هذا ناتجًا عن تراكُماتٍ خطابية لهذا العجز المستمرِّ الذي تتوارثه أجيال عن أجيال، يتحدث فيه كل جيل عن ماضٍ ما أجمل.

بعض رُوَّاد الحنين في مصر يروِّج لخطابات عن الحَسَب والنَّسَب والأصالة في بلد لم تتأسَّس فيه معايير المِلكيَّة بالوراثة أو بالأقدميَّة، بل بالمغامرة والصراع عليها واستغلال الفرص وإدراك اللحظات الفارقة. لقد ظَفَرت بنصيب كبير من هذا البلد حفنة من المغامرين ومُستغلِّي الفرص والأذكياء واللصوص وخُدَّام السلاطين وسعيدي الحظ، علاقة المصريين بمفهوم الملكية الزراعية نفسه كانت قريبة جدًّا، ولربما ينبغي على البعض معرفة أنه حتى إصدار اللائحة السعيدية سنة 1858 لصاحبها المغفور له الوالي محمد سعيد، كانت مِلكيَّة غالبية الأراضي الزراعية في مصر لا تورَّث كحقٍّ مكفول، وكان جزءٌ مُعتَبَرٌ منها يُسمَّى بالأواسي والأبعديات والجفالك[1]، وهي أراضٍ منحها محمد علي باشا لرجاله وخُدَّامه المباشرين، أو تُستَزرَع من الفلاحين لصالح الوالي مقابل كسور بسيطة من قيمة المحاصيل، فكانت أنماط ملكية الأرض ذات طابع احتكاري للدولة، ولم يتمَّ تنظيم عملية الملكية ثُمَّ تَوارُثها داخل العائلة الواحدة إلا عبر سلسلة من القوانين، بعضها صدر أيام محمد علي نفسه، لكنها لم تكتمل بنجاح وإحكام إلَّا مع إصدار اللائحة السعيدية.[2]

حتى ذلك التاريخ لم تكن في مصر ملكيات زراعية كبيرة بحوزة الفلاحين أهل البلد بنحو يسمح لهم بأن يكونوا جزءًا من الطبقة المُهَيمِنة، واحتاج الأمر إلى

---

(1) رؤوف عباس: كبار المُلَّاك والفلاحين في مصر 1837 - 1952، الفصل الثاني، ص 28.

(2) لائحة الأطيان الزراعية، وتُعرَف باللائحة السعيدية، صدرت في عام 1858 بقرار من الوالي محمد سعيد باشا، وبموجبها نُظِّمَت عملية توريث الأرض المملوكة للدولة والمستزرعة من الفلاحين بنحوٍ يُمكِّنهم من ملكيتها، فكانت بذلك الخطوةَ الأولى في اتجاه تكوين طبقة من المُلَّاك الزراعيين المصريين، تَبِعَتها خطوات أخرى في عهدَي: سعيد وإسماعيل.

سنين طويلة وصولًا إلى نهاية القرن التاسع عشر حتى تكوَّنت بالتراكم مِلكيَّاتٌ كبيرة كان للمصريين من أبناء الفلاحين سَهمٌ مُعتَبَر فيها، وظلَّت مصدرًا مهمًّا من مصادر الملكية تلك ونقطة انطلاقها الإنعامات الخديوية والأبعديات المقطوعة من الباشا الوالي لأفراد تدين له بالولاء، بعضهم من أصاغر القوم والشماشرجية وصغار الضباط.

محمد علي باشا نفسه وذريته وصحبه من الألبان والأرناؤوط كانت لديهم مشكلة أخرى في موازين الملك والمقام الرفيع، فقد كانوا من أصول متواضعة قياسًا بأهل الملك والحُكم العثماني ونبالاته، فوالد محمد علي تقول رواياتٌ بأنه كان تاجرًا للدخان "دخاخني" وعسكريًّا من ذوي الرُّتَب المتوسطة، ومحمد علي نفسه انضمَّ إلى سِلك الجندية مبكِّرًا في سن الرابعة عشرة؛ نظرًا لفقدانه أفراد عائلته تباعًا في الحروب، حتى صار -لاحقًا- عسكريًّا مغامرًا يقود عسكر الحامية الألبانية في مصر، لقد كانت الأسرة العلوية في مصر دائمًا محطَّ تندُّر واستعلاء من جانب البرچوازية التركية في الأستانة وكبار الإقطاعيين العثمانيين؛ لوضاعة أصلها الاجتماعي وفقًا لمعايير النَّبالة العثمانية، ودائمًا ما كانوا يضمرون ناحيتهم شعورًا بأنهم محض مغامرين من مُحدَثي الحُكم ولصوصه، ابتسم لهم الزمان بحكم مصر في ظرف تاريخي استثنائي، وكان هذا أحد دوافع اهتمام البلاط العلوي المصري لاحقًا نحو الإسراف في الفخامة والفخفخة وتشييد القصور المهيبة، ومحاكاة تقاليد النَّبالة الرفيعة من أوروبا وإثبات الجدارة والمكانة.

أمَّا الأجانب الذين استوطنوا مصر في هذه الفترة وكوَّنوا داخلها طبقة من المستوطنين المتمتِّعين بحماية استثنائية من قناصل دولهم، فغالبهم كان من أصول متواضعة، جاؤوا إلى مصر وأقاموا فيها سعيًا للرزق والكسب، وقتَ كانت أرض الفُرَص والرواج والمغامرات الاقتصادية الناجحة، سواء أكان بعد افتتاح قناة السويس أم بعد أن صارت مصر هي مُورِّد القطن الرئيسي في العالم، في أعقاب انقطاع إمدادت القطن الأمريكية إلى السوق العالمية بسبب الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب الأمريكي. هاجر أيضًا إلى مصر كثيرٌ من يهود الدولة العثمانية الساعين لمُراكَمَة الثروات في أرض الفرص، ومنهم من كانوا هاربين من الاضطهادات المعادية للسامية في شرق أوروبا. وقَدِم إلى مصر مهاجرو موانئ البحر المتوسط من اليونان وإيطاليا، مستفيدين من انتعاش ميناء الإسكندرية، كما حلَّ بمصر عدد

كبير من "السان سيمونيين الفرنسيين"، وهم أبناء تيَّار اشتراكي قديم اختار مصر والعمل على إصلاحها تطوُّعًا؛ لكونها من وجهة نظرهم بلدًا بكرًا، ولأن شعبها متخلِّفٌ تخلُّفًا مريعًا، ولكن يمكنها التقدُّم لأن لديها قائدًا متنوِّرًا قويًّا يسعى للمجد على حدِّ وصفهم.[1]

وهكذا، فإن الخلطة المؤسِّسة لنخبة الحكم والصفوة الاقتصادية في مصر عَشيَّة عهدها "الذهبي" كانت مُكوَّنة من وافدين جدد على معنى التَّملُّك، ومحدثي سُلطَة وأجانب مغامرين، فهم إمَّا فلاحون من أهل البلد عرفوا للتَّوِّ معنى ملكية الأرض وتوريثها، وإما عُصبَة عسكرية أرناؤوطية لم تكن تحلم عندما أبحرت من ميناء قَوَلة[2] في مطلع القرن التاسع عشر أنها ستُسَيطِر على مصر في غضون سنوات قليلة، ليستمر نَسلُها في الحكم قرنًا ونصف قرن من الزمان، وإمَّا مغامرون أجانب حلموا بالمال والكسب السريع، أو بتحقيق أحلامهم اليوتوبية الأيديولوچية، وإمَّا ضحايا هاربون من الاضطهاد الديني.

مسارات الجَربَعَة وحواضِنُها

نظريًّا، وعلى مستوى المسار التاريخي، توجد حاجة إلى توافُر شروط بعينها تجعل الإمكانية الجربوعية الكامنة واقعًا ماديًّا جربوعيًّا سائدًا ومُعمَّمًا، أدَّعي أن انتصار الهزيمة والتآخي مع الخطيئة شرطٌ أوَّليٌّ لذلك. وانتصار الهزيمة ليس معناه وقوعها، بل امتداد وقعها وقدرة آثارها على التمكُّن من المهزوم بنحوٍ يُغيِّر من طبائعه ومن تصوُّراته عن نفسه، ويخلخل يقينه في صحة خياراته، ولنأخذ مثلًا بهزيمتنا المُذلَّة في الخامس من يونيو 1967، فعلى الرغم من دويِّها المهول في حينه لم يأتِ حصادها الجربوعي في نفس اللحظة، بل احتاج الأمر إلى سنواتٍ من التآخي مع الهزيمة وإهدار الزمن، والعجز، والتواطؤ على عدم اتخاذ الإجراءات الجراحية اللازمة للتعاطي الجاد والمستحق مع مصيبة بهذا الحجم؛ ما مكَّن الهزيمة من الانتصار والتمكُّن من عقل مصر وروحها في منتصف السبعينات، ليسطر دخولنا في مرحلة التآخي مع الخطيئة والتطبُّع بطبائعها واعتياد مفاعيلها.

(1) السَّان سيمونيِّين في مصر 1833 - 1851: الفصل الرابع، ص 99.

(2) قَوَلَة هي مسقط رأس محمد علي باشا، وهي ميناء يوناني حاليًا.

تعقب مرحلة انتصار الهزيمة والتآخي مع الخطيئة مرحلةُ تنظيم الانحطاط وتوارثه وإعادة إنتاجه، وجعله تيارًا رئيسيًّا، ففي النهاية يجب أن تستمرَّ الحياة، وهناك دائمًا أمل ولو كاذب بتصويب الأخطاء وإصلاح المسار عبر اتخاذ مسارات جديدة ومختلفة، وهناك أيضًا الاستسلام للأماني الزائفة والدعايات الدَّجَّالة، لكن الحياة لا تقف أبدًا مهما انحطَّت شروطها، ودائمًا ما يدلنا الزمن على مَخرَجٍ ما للتواطؤ والتعامي عن ثِقَله عبر تحسُّن نسبي لظروفنا كأفراد في مصادفات تأتي من وقت لآخر، وهنا تصير القدرة الحقيقية لنظام الحكم على الحكم متمثِّلة في تسيير الدَّفَّة في اتجاه استمرار الحياة ووضع أسس جديدة لها، بنحوٍ يجعلها قادرة على إدارة الفشل والرداءة والتيه وتمكينهم من إعادة إنتاج أنفسهم، فتولد في ظل هذه العملية أجيال وأجيال تظنُّ أن ما وعته هي الحياة الطبيعية، وأن الشروط المادية لهذه الحياة تشكِّل الإطار الطبيعيَّ والسَّويَّ للاجتماع والعيش المشترك. هذه العملية بالذات يمكن أن نطلق عليها اسم "الانحطاط التاريخي" أو "مسار الجربعة".

إدارة الفشل والرداءة وإعادة إنتاجهما ليس بالأمر السهل؛ فهو أشبه بقيادة عربة مسرعة على طريق جبلي، ومرور الزمن في هذه الرحلة يحتاج إلى شروط أخرى لتأمين مسيرة الانحطاط؛ ذلك أن إعادة إنتاج الفشل لا تفضي فقط إلى مشكلات قيمية تمكن إدارتها بالكلام والدعاية وحسب، بل تنتج بالأساس مشكلات مادية تتفاقم بمتواليات عددية أو هندسية ما دام الحديث يدور حول بلد كبير بحجم مصر، فما العمل إذًا؟ ما العمل مع مشكلات لا يمكن إنكارها كالزيادة السكانية الرهيبة دون إدارة رشيدة لها، مع تآكُل الرقعة الزراعية من دون التوسُّع في التصنيع، مع انفجار الهجرة الداخلية نتيجة النمو الاقتصادي غير المتكافئ بين أقاليم الجمهورية، وذلك من دون وجود مخطط عمراني يستوعب ويتعامل هذا الحراك الاجتماعي الديموغرافي العنيف، مع تدهور مستوى التعليم العام والخاص ومُخرَجاتها في المراحل السِّنِّيَّة كافَّة بنحوٍ لا يخطئه أي تقييم مُنصِف، مع هجرة العمالة للخارج بالجُملة في مراحل تاريخية بعينها، بقدرٍ أعطب ماكينة التنمية الداخلية أو أصابها باختلالات في بعض قطاعاتها الحيوية، مع عدم قدرة الدولة على إدارة وتوجيه عملية التحوُّل الاجتماعي بنفسها، أو رعاية عملية التحول عبر السماح للقوى الاجتماعية الحيَّة بتنظيم نفسها في ظل تفاوضات ثنائية

بينهما، تفضي في النهاية إلى تقوية المجتمع المدني للدرجة التي تُمكِّنه من لعب الدور الرئيسي في عملية التنمية؟ ما سبق كان مجرَّدَ عيِّنة اخترتُها بعناية شديدة لأُحدِّد عددًا من المشكلات الموضوعية المتفق عليها تمامًا من كل الفُرَقاء في مصر، باعتبارها مشكلات وطنية ذات طابع كلِّيٍّ تؤثر في الجميع بلا استثناء، فكيف إذًا تمكَّنَت ذهنيَّةُ إدارة الفشل والرداءة من السيطرة في ظلِّ تَنامي تلك المشكلات؟

المدخل الجربوعي الأول لإجابة هذا السؤال هو المزيد من الاستثمار في السيولة الاجتماعية التي تُشكِّل سمة رئيسية بين سمات المجتمع المصري، فترعى الدولة صعودًا اجتماعيًّا لفئات جديدة تستفيد من عملية "الاستمرار من أجل الاستقرار"، وتُسلِّط الضوء على صعودهم كنموذج يُحتَذى به، مهما بلغت هامشيَّة أو ضآلة النسبة المئوية لهذه الفئات من عموم السكان، فتصبح -مثلًا وليس حصرًا- عودة المهاجرين من أبناء الطبقة الوسطى العليا من العمل في الخليج ومعهم تراكمات مالية -وهي عملية لم تلعب فيها الدولة المصرية أيَّ دور- عنوانًا للنجاح الاجتماعي، وشكلًا من أشكال النَّمذَجَة، بحيث تصبح هذه العملية هي الرافعة الرئيسية للتحوُّل الاجتماعي من منتصف السبعينات، ولاحقًا، أي أن إنتاج القيمة وتدوير عجلة التنمية في كيان سياسي واقتصادي آخر اسمه دول الخليج، والعودة بمدَّخرات نواتج العمل إلى بلد الموطن، أصبح مَناطَ التميُّز والنجاح في بلد الموطن، وتُمكِن -اختصارًا- تسمية هذا المدخل الجربوعي لإعادة إنتاج الرداءة والفشل باسم "تحسين الظروف المعيشية لقطاعات من السكان في ظل ظروف مُهينة ومتدهورة".

المدخل الثاني لإدارة الفشل هو العمل على خلق جدالات فارغة فراغًا تامًّا بين صفوة ومتعلِّمي البلد، جدالات تسبح في الفراغ التام، وفي أحيان أخرى منع الجدل العام من الأصل إذا احتدمت أزمات الجدل الفارغ لدرجة أصبحت خطرًا على البنية المادية للدولة ككُلٍّ، وهنا نتوجَّه بخالص اللعنات التاريخية على القوى التي شكَّلَت المشهد السياسي في هذه الحقب، وفي طليعتها التيار الإسلامي بالطبع، كأكبر تيارات العمل السياسي والتنظيمي في مصر لمدَّةٍ تزيد على أربعين عامًا، فما ورد أعلاه هو مجرَّد عَيِّنة من مشكلات وطنية بنيوية تحجب نور الشمس، وأساسها سياسيٌّ اقتصادي اجتماعي، ومكمنها الرئيسي هو سؤال إدارة السلطة والثروة وشكل الخريطة الطبقية في مصر. ومع ذلك سنجد أن ما عاصرته

مـصر مـن جـدل عـامٍّ لعقـود وعقـود لم يتطـرَّق إلى أيٍّ مـن تلـك المشـكلات، ومـن أي مُنطَلَـق؛ سياسـيًّا كان أم حركيًّـا وبرنامجيًّـا، فقـد اسـتُنزِف الجـدل العـام في مـصر استنزافًا تامًّـا داخـل الحيِّـز الضيـق لمشـكلات الخطـاب الإسـلامي واحتقاناتـه الذاتيـة: مـا يجـب أن نرتديـه ومـا لا يجـب أن نرتديـه، هـل نحـب المصريـين غـير المسـلمين، أم نكرههـم، أم نحبهـم حبًّـا مشروطًـا، أم نبغضهـم بغضـاءَ منضبطـة، هـل قَطـعُ يَـدِ السـارق ورجـم الزانيـة والبـدء في تنفيـذ العقوبـات البدنيـة عـلى المجرمـين، مـن أجـل ردع مَـن تُسـوِّل لـه نفسـه هـو الحـل الناجـع للمشـكلات الأخلاقيـة المتفاقمـة؟ هـل سـقوط الخلافـة العثمانيـة هـو الخطيئـة الأولى أم سـقوط الأندلـس؟ مـا موقفنـا مـن الشـيعة؟ ومـا موقفنـا ممَّـن قـال إن اللـه ثلاثـة؟ هـل فوائـد البنـوك حـرام أم حـلال؟ وإن كانـت حرامًـا هـل مـن الواجـب علينـا دعـم مؤسسـات ماليـة إسـلامية تقـي النـاس شرَّ الوقـوع في المعـاصي؟ مـاذا نفعـل بالمـرأة؟ هـل هـي موضـوع للإخفـاء في المنـازل أم للحضـور في الحيـاة العامـة بـشروط مقيِّـدة؟ ومـا الـشروط؟ ومـا الآليـات التـي سـتُنفِّذ هـذه الـشروط؟ ومـا الضمانـات التـي تُعـزِّز مـن قـدرة (المجتمـع/ المسـلم/ الرجـل) عـلى ضبـط المـرأة وحركتهـا وجعلهـما في الأُطُـر والحـدود الصحيحـة.

لم يتوقَّـف الأمـر عنـد هـذا الحـد، فالصحـوة الإسـلامية وإن سـادت خطابيًّـا عـلى مُجمَـل المشـهد لم تحتكـره تمامًـا، فقـد كانـت هنـاك أصـوات تشـاغبها مـن تيـارات علمانيـة لا تقـل تأزُّمًـا عنهـا، تعيـش هـي الأخـرى في عوالمهـا المحتـضرة، ليكـون حاصـل صراعهـما الفكـري العمـلاق هـو طـرح أسـئلة ألمَعيَّـة ومفتخـرة مـن نـوع: هـل نحـن دولـة مدنيـة أم إسـلامية، أسـئلة وصراعـات يَضِـلُّ فيهـا كلُّ طـرف، واحـد حين يقـول إنه يدافـع عـن مدنيَّـة دولـة لم تكـن يومًـا مدنيَّـة، وآخـر يقـول إنهـا دولـة غـير إسـلامية في بلـدٍ دسـتوره يضـع الإسـلام دينًـا رسـميًّا للدولـة، والشريعـة الإسـلامية مصـدرًا أساسـيًّا للتشريـع تخضـع لهـا القوانـين المنظمـة لمُجمَـل العلاقـات الاجتماعيـة مـن ميـلاد ومواريـث وأحـوال شـخصية، وصـولًا إلى طقـوس الدفـن، وتلتـزم بهـا التزامًـا صارمًـا.

اسـتمرَّت الجـدالات العامـة في مـصر هكـذا، ولعقـودٍ، أُهـدِرَ فيهـا الزمـن الغـالي والثمـين، وراحـت كل الأطـرف تُوغِـل في ضلالهـا، حتـى سـكرت سُـكرَ الضُّفـدع بالطـين كـما قـال يومًـا شـاعرنا ومشـاعرنا الراحـل صـلاح عبـد الصبـور[1]، وراح طـين الجـدل

(1) مسرحية ليلى والمجنون، للشاعر الراحل صلاح عبد الصبور.

الضال ينفخ في أحشاء ضفادعنا حتى انفجرت تمامًا، وصحونا على صوت الدبابات تطالب الجميع بالصمت التام، وطول مدافعها يضع أيًّا مَن كان في حدود ذاته التَّعِسَة. فأهلًا وسهلًا بكم في مصر المعاصرة، حيث لا جدل على الإطلاق.

انهزام الثورات وخلق سرديات الجربعة

لكن هل تُمكِنُنا الإحالة إلى الفترات التي تلي مباشرة هزيمة نزعات التحوُّل التَّقدُّمي في المجتمع، كلحظات مؤسِّسة لواقع وقِيَمٍ أكثر جربعة من تلك التي سبقتها؟

يمكننا تأمُّل علاقة الجربعة في تعاطيها مع تاريخنا وسردياته، من حيث كونها حالة تُروِّج لروايات متناثرة عنه، مُجزَّأة وشائهة ومبتسرة، يستطيع كل جزء منها على حدة تشكيل تاريخ كامل من العبث بمعنى التاريخ نفسه، وبنحوٍ يفضي في النهاية إلى خلق وتبنِّي سرديات تاريخية غير منطقية بالمرة، وتفتقر إلى الحدِّ الأدنى من التماسُك، فيضطر أصحابها إلى سد ثغراتها وترميم ضعف منطقها بالخرافات والأوهام والمقولات العصبية المتشنِّجة المشحونة بالارتباكات الأخلاقية والمبدئية، وصولًا إلى محاولة منع الجدل بالكلية واللجوء أحيانًا إلى العنف البدني إذا ما فشلت كل الحيل، ليس هذا فقط، بل السعي طوال الوقت لتسييد تلك الروايات المتهاوية التي لا يقف الحق والمنطق في جانبها، باستخدام القسر والتكرار وسيادة سلطة الصوت الواحد؛ ما يُسبِّب لصاحب تلك الروايات أزمات نفسية وضميرية تُفسِد قدرته هو على التفكير البنَّاء والتأمُّل الشجاع، أو تجعل هذه القدرات حَذِرَة ومُشوَّهة وقابلة للتعثُّر بسهولة، وربما وصلت بصاحبها إلى مرحلة الهذيان التام.

المأساة العرابية

أدَّعي أن منعطفات تاريخية بعينها نبتت فيها بذور الجربعة، لتسقط ثمارها فوق أقفيتنا لاحقًا. فلو عدنا مَثَلًا إلى النقطة التاريخية التي عيَّنتها سابقًا كلحظةٍ للصعود العصامي والجربوع على حدٍّ سواء، وهي فترة حكم الوالي محمد سعيد

والخديـوي إسـماعيل، سـنجد أن اختـمار شروط الأزمـة الوطنيـة الديمقراطيـة وقتهـما قـد تصاعـد، سـواء أكان بسـبب تزايـد النفـوذ الإمبريـالي الأنجلـو فرنـسي في مـصر، أم معارضـة صيغـة حكـم الفـرد المطلـق المتمثِّلـة في شـخص أفندينـا الخديـوي، إلى الحـد الـذي تبلـورت معـه اللبنـات الأولى للحركـة الوطنيـة المصريـة التـي طالبـت، وللمـرة الأولى، بمراجعـة الصيغـة المطلقـة لحكـم الفـرد ومـن سيطرة النفـوذ الأجنبـي المتحكِّـم في حكـم هـذا الفـرد، عـبر سيادة سـلطات تشريعيـة منتخبـة تـأتي بعـد إقـرار دسـتور يحـدِّد العلاقـة بـين السـلطات والمواطنـين، ويسـتمد شرعيتـه مـن الشـعب.

بالنظـر إلى هـذه الحقبـة سـنجد أن تصاعُـد الأزمـة الوطنيـة التـي بلغـت ذروتهـا في أعـوام 1881 و1882 سـبَّب شرخًـا عميقًـا في البـلاد، بـين مؤيِّـدي أحمـد عـرابي والإصـلاح، ومؤيِّـدي الخديـوي محمـد توفيـق، وتفاقَمَـت الأزمـة ووصـل مداهـا إلى حـدِّ تَدخُّـل البحريـة البريطانيـة واحتـلال الإسـكندرية، بعـد تدميرهـا، ثـم الزحـف نحـو القاهـرة لترجيـح كفَّـة الخديـوي عـلى كفَّـة عـرابي، وتثبيـت عرشـه، حتـى لـو كان المقابـل هـو احتـلال مـصر. قليلـون هـم مَـن يتعاملـون مـع حقيقـة أن الاحتـلال البريطـاني لمـصر كان عـلى خلفيَّـة صراع أهـلي داخـلي، وحسـمًا منـه لصالـح الطـرف الأكـثر اسـتعدادًا للخضـوع للمصالـح الإمبرياليـة البريطانيـة. لم يكـن الغـزو البريطـاني غـزوًا مـن أُمَّـةٍ لأُمَّـة، بـل كان تدخُّـلًا مـن طـرف ثالـث لنُـصرَة طـرف أهـليٍّ عـلى طـرف أهـليٍّ آخـر؛ لـذا حـين دخلـت القـوات البريطانيـة إلى القاهـرة، كانـت في اسـتقبالها مظاهـرات عملاقـة مـن أنصـار الخديـوي توفيـق، مُؤيِّـدَةً ومُبتَهِجَـة بقدومهـا، وراحـت صحيفـة الأهـرام -المؤيِّـدة للخديـوي وقتهـا- تُهلِّـل قائلـة:

"وَرَدَ تلغـراف رسـمي مـن الباسـل الجـنرال ويلسـلي بـأن السـواري الإنجليزيـة احتلَّـت العاصمـة، مسـاء أمـس، تحـت قيـادة نجـل الملكـة، دون أدنى مقاومـة، وأن الجـنرال ويلسـلي يدخلهـا اليـوم مـع البيـادة، فابتسـم ثَغـرُ مـصر واهتـزَّ عِطفُهـا طَرَبًـا وتهلَّلَـت القلـوب فرحًـا ريثـما اقتبلـت البـشرى بانقضـاء الأزمـة، فبُـشراكِ يـا مـصر بُـشراكِ؛ فقـد نِلـتِ المُنـى، ودَخَلَـت العسـاكر الإنجليزيـة باسـم الحـضرة الخديويـة عاصِمَـةَ بـلادك فاحتلَّتهـا، وقبضـت عـلى أحمـد عـرابي وطُلبـة عصمـت وحسـن مظهـر وإخوانهـم، واسـتلمت القلعـة وقـصر النيـل، وانفتحـت لأبنائـك أبـواب العـصر الجديـد، فادخلوهـا في سـلامٍ آمنـين، وارتَـعْ أيُّهـا الأمـير في بحبوحـة النـصر والظفـر واهنـأ، فـإن

لـك مـن المُهَيمِـن عَضُـدًا، ومـصر تناديـك؛ فأنـت روح البـلاد، وبـك حياتهـا، أطـال اللـه بقـاء سُـموِّكَ".

لعلَّ المقطـع السـابق المأخـوذ مـن جريـدة الأهـرام المصريـة في 15 سـبتمبر 1882 يوضِّـح حجـم الشِّـقاق الأهـلي الحـادث في مـصر وقتهـا، فمؤيِّـدو حكـم الخديـوي اصطفُّـوا بـالآلاف في القاهـرة عـلى جوانـب الطُّـرق لتحيـة الجيـش البريطـاني الغـازي -وكانـت الإسـكندرية مُحطَّمـة تقريبًـا- هاتفـين ضـد عـرابي وإخوانـه، مكيلـين لهـم السـباب والشـتائم.

أحـدث الغـزو البريطـاني لمـصر في هـذه الملابسـات شرخًـا حقيقيًّـا في وجـدان المصريـين، وسـوف يحـاول الطـرف المنتـصر بمنتهـى البجاحـة والجربعـة فَـرضَ روايـات مفادهـا أن عـرابي هـو المسـؤول عـن قـدوم البريطانيـين، وأنـه هـو مـن صعَّـد سياسـيًّا ضدهـم فسـبَّب الاحتـلال، كـما لـو لم يكونـوا هـم مَـن تآمـر واسـتنجد بهـم عَلَنًـا. وسـتوصف حكومـة الثـورة، ووزارة محمـود سـامي البـارودي قصـيرة العُمـر بأنهـا حكومـة فـوضى واضطـراب وعـدم قـدرة عـلى ضبـط البـلاد، وسـتبدأ ملاحقـة العرابيـين واجتثاثهـم عـلى مـدى عـشر سـنوات بمنتهـى القسـوة مـن جانـب أجهـزة أمـن السـلطات الخديويـة والاحتـلال البريطـاني، وسـيهرب عبـد اللـه النديـم مـن منـزل إلى منـزل طيلـة تسـعة أعـوام، وحـين يعـود عـرابي مـن منفـاه في سـيلان بعـد عشريـن عامًـا سـيجد مَـن ينتظـره ليهجـوه شِـعرًا قائِـلًا: "صَغـارٌ في الذَّهـابِ وفي الإيـابِ... أهـذا كُلُّ شـأنِكَ يـا عُـرابي".[1]

مأسـاة هزيمـة الثـورة العرابيـة خلقـت ما سـمَّيتُه سـابقًا "انتصـار الهزيمـة، والتآخي مـع الخطيئـة"، ففـي ظـل الاحتـلال البريطـاني ستتحسَّـن أحـوال مـصر إداريًّـا، وسـتجري الإدارة الإنجليزيـة إصلاحـاتٍ كبـيرةً وفعَّالـة في جهـاز الدولـة، وسـتظهر ثمـار التحديـث الاسـتعماري السـلطوي، وسـينعقد تحالـف اجتماعـي متـين بـين إدارة الحكـم البريطانية وبـين طبقـة كبـار المُـلَّاك الزراعيـين، ومـع تعميـق أواصر هـذه العلاقـة سيتحسـن أداء الإنتـاج الزراعـي في مـصر، وسـتزداد أربـاح وثـروات طبقـة المُـلَّاك، وهـم مَـن سيشـكِّلون بدورهـم قـوامَ الطبقـة الوطنيـة الحاكمـة بعـد عقـود قليلـة. وهنـا يحتقـن

(1) نُشِرت القصيـدة بعنـوان "عـاد لهـا عـرابي" في الخامـس عـشر مـن يونيـو لعـام 1901 في "المجلـة المصريـة"، ثـم نُشِرت بعـد ذلـك بأقـل مـن شـهر بتوقيـع "نديـم" في جريـدة "اللـواء"، واتَّضـح فيـما بعـد أنهـا مـن تأليـف أحمـد شـوقي.

التناقض ويتجلَّى، فالطبقة الصاعدة التي ستشكِّل لاحقًا قيادة الحركة الوطنية المصرية قد ارتفع شأنها واستقرَّ، في ظل روايات تُحقِّر من الثورة العرابية ومن فوضويتها وجنوحها، فأصيبت الحركة الوطنية منذ ذلك الوقت بالخوف الشديد من محاولة القضاء الحاسم على الحُكم الاستبدادي للقصر، وتأسيس الجمهورية بالطرائق الثورية وعبر اللجوء إلى الشارع ودعم الجماهير، مُفضِّلَةً -عوضًا عن ذلك- أسلوب المفاوضة الطويل.

ستتعايش التناقضات وسيستمر الخديوي توفيق حيًّا معنا إلى الآن في صورة ميناء بور توفيق وعدد من الأحياء والأندية التي لا تزال تُسمَّى بالتوفيقية، وسيعيش معنا أيضًا اسم أحمد عرابي في صورة شوارع ومدارس ومحطَّة مترو أنفاق في وسط القاهرة، مات الرجلان، كُلٌّ في حينه، لكن الذي ظل حيًّا هو التناقضات التي نتجت عن صراعهما، وأحفاد الجرابيع الذين يُمجِّدون كلَّ مُنتصرٍ ويعملون لصالحه، والانتهازيون، مُدَّعو الواقعية السياسية الذين سيظلُّون خدمًا لكل استبداد ورعاة له في كل عصر، سيحاولون سرد القصة العرابية على أنها حرب قومية بين مصر وبريطانيا، هُزِمنا فيها بسبب خيانة البعض[1]، لا بِفِعل وجود تحالف رجعي قوي بقيادة خديوي مصر ومباركة السلطان العثماني، مدعوم من قطاعات من المصريين، وقفوا في وجه الثورة التي تطالب بالحرية والمواطنة، ليعيدوا تأسيس سلطان الاستبداد والحكم المُطلَق ببارود مدافع الاحتلال البريطاني.

الرِّدَّة اليوليويَّة

في زمن أقرب، مرَّت مصر بمسارٍ مشابه من انتصار الهزيمة والتآخي مع الخطيئة، فبعد هزيمة يونيو 1967 لم تتغيَّر أُسُس النظام السياسي والاجتماعي بالنحو الذي يتناسب مع حجم الكارثة الوطنية، بل على العكس، راحوا يرفعون شعارات تقول إن الانتصار الحقيقي هو في الحفاظ على النظام الوطني المُعادي للاستعمار، وإن الحفاظ على الدولة مقدم على معنى وجودها، ولأن ذلك كان محض انحطاط وتشبُّث عصبوي بالسلطة من الكتلة الحاكمة؛ راح النظام يُكيِّف

(1) مرة بالحديث عن خيانة فرديناند ديليسبس ومرة عن خيانة چنرال مصري اسمه "خنفس"، ومرة أخرى خيانة البدو... ورحنا لهم في الغرب فأتوا لنا من الشرق، وهكذا!

أوضاعه مع النواتج الاستراتيجية للهزيمة، وبدلًا من أن يدين نفسه لعجزه عن تحقيق شعاراته الوطنية والتقدمية والثورية، راح يتنكّر لهذه الشعارات من الأصل، بل ويعتبرها سبب الهزيمة، في تشابُهٍ لافِتٍ مع ما تلى المأساة العرابية المؤسسة للوعي الوطني، فتمكّن تيّارٌ يمينيٌّ جَربوعيٌّ من مفاصل الحُكم ومن وسائل الإعلام الصحفي والمرئي خصوصًا، وسادت خطابات تُحقِّر من قِيَم التحرُّر الوطني وتعتبرها حنجوريّاتٍ وعنتريات، وأصبحت فلسطين "أوَّلُها فَلَس وآخرها طين!"، واعتُبِر دعم ثورات التحرُّر الوطني في الجزائر وإفريقيا إهدارًا للموارد المصرية وتورُّطًا في ما لا يعنينا.

كانت حالة أشبه بانتقام روح عابثة من جوهرها المهزوم عبر المزيد من التغوُّط في هزيمتها، فالأمر لم يقتصر على نقد المرحلة الناصرية على خلفية تورُّطاتها الإقليمية والخارجية، بل امتدت الحالة الجربوعية لتطال كل معنى تقدُّميٍّ سبق وترَسَّخ في وعي الحركة الوطنية المصرية، فسادت خطاباتٌ تُحقِّر من العلم والمعرفة، كُلٌّ بأسلوبه، راح بعضها يسخر من الثقافة والمثقفين لأن كلامهم كبير وفارغٌ ومجرَّد تعبير عن أزمات نفسية لمجموعات من البشر ترتدي نظّارات النظر، وراح البعض الآخر يهاجم أيَّة فكرة مُركَّبة أو أي معنى نقدي، ناعتًا إياه بالشيوعية المشنونة عليها حرب ضروس من أنور السادات، بل وراح بعضها يأخذ منحًى دينيًّا عبثيًّا وصل بأشهر الأئمة وأكثرهم شعبية إلى القول بأنه لم يقرأ كتابًا في آخر خمسين عامًا من عمره سوى القرآن الكريم.

كانت لحظة واعية بهزيمتها ومستسلمة لها، فحتى قيمة مُجمَعٌ على إدانتها كالفساد المالي والإداري أصبح التطبيع معها أمرًا مُتَّفقًا عليه، بل ذهب السادات نفسه بالأمر بعيدًا، وقال إن مَن لن يَثْرَى في عهدي لن يعرف الثَّراء أبدًا، وراح البعض يروِّج تدريجيًّا أن الفساد أمرٌ مُؤسِفٌ ولكنه حتميٌّ، وممارسة شائعة وموجودة في كل العالم، ومحاولة محاربته نوع من العبث والكلام الكبير أيضًا، أصبح كل معنى يحاول محاربة قِيَم الجربعة يُنعَت بـ "الكلام الكبير"، يُرفَض ابتداءً؛ لأنه كلام كبير، حتى بلغنا مرحلة تُعتَبر فيها الأُسُس البدائية للقيم الشريفة كلامًا كبيرًا، وأصبحت مقولات مثل "شوف مصلحتك يا سيد" و"كُلْ عيش يا عم" و"اللي يتجوِّز أمي أقول له يا عَمِّي"- مقولاتٍ شائعة تُعبِّر عن "الشطارة" والوعي اليَقِظ باللحظة.

ومن قلب التآخي مع الخطيئة أتى تقديس القوة لمجرَّد كونها قوة، فصيغت في تلك الفترة الملامح الأولى للعلاقة شديدة التعقيد بين المصريين وبين الولايات المتحدة. فهناك تسليم بقوة أمريكا وكلِّيَّة قُدرَتها بدءًا من النُّخَب وحتى العوام، وأصبحت مقولة السادات بأن 99% من أوراق أي لعبة سياسية في يد الولايات المتَّحِدة مقولةً مقدَّسَة يحفظها كل السياسيين كابرًا عن كابر، ونشأت معها علاقة شديدة التعقيد بالولايات المتحدة يمكن تسميتها بالافتتان الكاره الأبدي، علاقة لا أفق لتجاوزها ولا توجد رغبة جادَّة في تأمُّل تناقضاتها، وصُوِّرت العلاقات والصراعات على أنها أبدية سرمدية مستمرَّة حتى تقوم الساعة، وهو ما يفضي إلى أطوار أكثر مرضًا، تتردَّد معها أنماطٌ من الهذيان التَّعِس، من نوعية ما رُوِّج له شعبيًّا عبر شبكات التواصُل الاجتماعي في أعقاب 30 يونيو 2013 -خاصة مجموعات تطبيق واتساب- عن أَسْرِ مصر لقائد الأسطول السادس، في الوقت نفسه الذي كانت مصر تطالب فيه باستئناف المعونة العسكرية والفنية من الولايات المتحدة.

بالفعل تُمكِننا الإحالة إلى الفترات التالية مباشرة لهزيمة نزعات التحول التقدمي في المجتمع، كلحظات مؤسسة لواقع وقيم أكثر جربعة من تلك التي سبقتها، فقط انظر حولك، لعلَّ مأساة اللحظة المعاصرة هي أن قيم الجربعة خاصَّتها أكثر شراسة وجنوحًا وعنفًا وعصبية، لدرجة تُعجِزها عن صياغة خطاب أو مفردات تشكِّل إطارًا يتمتَّع بالحد الأدنى من التماسُك القادر على احتواء الجربعة الجديدة داخلها بنحوٍ آمِنٍ ومستقر ومستدام. لدينا الآن إمَّا صراخ مُنفِّر مستمر يأتي من قنوات التلفزيون ومحطات الراديو، وإما صمت تام مطبق، وللأسف على قدر الرجاء تأتي الخيبات، وكلما كانت الرغبة في التقدُّم واضحة وقتالية كانت هزيمتها مريرة ووقعها على القلوب ثقيلًا، وكانت تبعاتها الجربوعية شديدة الوطأة. لذا؛ فاللحظة الجربوعية المعاصرة لحظة كاشفة وفجَّة، انحطَّت معها قيمة كل ما هو رمزي بنحوٍ غير مسبوق، وانهارت قامات علمية وأدبية وفنية وإنسانية، وارتفع شأن ناس لا اسم لهم.

الفصل الثالث

بعضٌ من شفرات التَّمايُز الاجتماعي المصري

لستُ من عُشَّاق التعلق بالهويات الجامعة ولا محاولات إثبات رسوخها وأصالتها، فأنا أميل إلى اعتبار الهوية مسألة شخصية بالأساس، أعتقد في تغيُّرها المستمر وتطوُّرها بتطوُّر الأفراد والجماعات عبر مسيرة تجاربهم، فما يعتبره البعض في يومنا هذا ثوابت لا تتغيَّر كانت بالأمس أفكارًا جديدة يعتبرها الأقدمين معاني دخيلةً على ثوابتهم هم؛ لذا أجدني شديدَ الحذر عند الحديث عن سِماتٍ جامعة مُميِّزة لشعوب أو جماعات، لكنني في الوقت نفسه أجدني غير قادر على إنكار ما سبق وأسماه عادل العمرى "ميمات ثقافية مصرية" والتي هي -وفقًا لتعريفه- وحدات تشبه ڤيروسات الكمبيوتر، تنتقل بين الناس، سواء في نفس الفترة الزمنية، أو تُتَوارَث بين الأجيال؛ بعضٌ منها ينشأ تلقائيًّا، وبعضها تخلقه السُّلطَة عن عَمدٍ، وبعضها يصنعه وينشره أصحاب المصالح من شركات ومؤسسات إعلامية ومروِّجي البضائع، وقد يستمرُّ تَوارُثها حتى إذا اختفت عوامل ظهورها.

وأكثر ما أجدني مهتمًّا به في هذا الصدد هو المفاتيح الرمزية التي يحاول من خلالها سُكَّانُ مصر إثبات تمايُزهم الاجتماعي بعضهم عن بعض خلال مسيرة حياتهم، وسر اهتمامي هذا يرجع إلى ما أعتقده غيابًا حقيقيًّا لهيمنة الثقافة البرچوازية بالمعنى المتحقِّق للكلمة كما ذكرت في الفصل السابق، بنحوٍ جعل المشهد الاجتماعي المصري يسعى بدأب -وعبر محاولات غائية ومصطَنعة- إلى خلق شفرات خاصَّة بين فئاته، لا هدفَ منها سوى إثبات وجود ذلك التمايُز الاجتماعي بين الطبقات، وغالبًا ما تتمُّ محاولات الإثبات تلك بأشد الأساليب فجاجةً وبمنتهى إحداث النعمة، فضلًا عن السَّعي القَسري لفرض شرعيَّتها واستحقاقها بكل الطرائق، وبعض الميمات الثقافية المصرية المعاصِرة لا تسعى إلا وراء هذا الهدف فقط بصرف النظر عن أي مضمون آخر، بدءًا من ثقافة الطعام وطريقة الكلام ومفرداته ونغمة الصوت ولون البشرة، وصولًا إلى شكل الأثاث المنزلي، لكن المثير للدهشة في المقابل هو وجود بعض الميمات الثقافية الأخرى، لها نفس القوة والتأثير، غالبها موروثٌ من ذاكرة الفقر وعدم إحساس بالأمان، كثقافة الإيمان بالحسد وثقافة الإفراط في تناوُل الطعام، تُفكِّك أوهام التمايُز الاجتماعي تلك وتُثبِت مدى هشاشتها وتفسد شفراتها تلك المصنوعة على عجالة.

في ظل غياب فضيلة المساواة على المستوى الرمزي قبل المادي هذه الأيام، على مستوى الخطاب والممارسة على حَدٍّ سواء، ومع سيادة حالة من حالات الاستنطاع الاجتماعي للبعض باسم خطابات محافظة معادية للكادحين والجماهير الأوسع وباسم ما يتصوَّره البعض قيمًا لليبرالية وحرية السوق، واعتقادًا في بداهة الظلم الطبقي والاجتماعي وحتميته، أجد نفسي ملتزمًا بنحو أخلاقي وعقائدي بتبيان هذه الملاحظات والتناقضات، ولا أجد أي غضاضة في التعريض بها وإدانتها والسخرية منها، بل و"التحفيل" عليها، والاستمتاع بذلك أيَّما استمتاع.

رجالٌ سُمرٌ ونساءٌ بيضٌ

على الرغم من محاولات بعض المؤمنين بالوطنية المصرية "ذات الخصائص الأبدية" إثبات تاريخية وجود جماعة متماسكة عِرقيًّا تسكن وادي النيل عبر آلاف السنين، فإن غالبية محاولاتهم البحثية ذهبت غالبًا في اتجاه يُثبِت عكس فرضيَّاتهم[1]. فمن الواضح والمؤكَّد أن مصر كانت مكانًا لتلاقُح أعراق العالم القديم، الإفريقية والآسيوية والمتوسِّطيَّة، شأنها في ذلك شأن معظم بقاع الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وفي تلاقُحها هذا خلقت مجموعات سكانية مُتنوِّعة بشكل أو بآخر على مستوى السِّمات العِرقية في كل تلك المناطق، خاصة إذا كُنَّا نتحدَّث عن إمبراطوريات تكوَّنَت فيها حواضر مدينية كبرى، تلاقت فيها الأعراق واللغات عبر عمليات التبادُل والتجارة والمعرفة، مثل الإسكندرية الهيلينية والقاهرة العربية.

ليس هذا محلَّ اهتمامي على أية حال، فيقينًا نحن المصريين المعاصرين لسنا إلا أحفاد المليونَيْن ونصف المليون الذين أحصاهم الغزاة الفرنسيين قبل 220 عامًا مع بداية حملتهم على مصر، قبلها كان وادينا السهل المنبسط أرضًا للهجرات والغزوات وقوافل التجارة والحجاج ومفاعيل الأوبئة والطواعين التي حصد بعضُها أكثر من ثلث السكان في أحيان كثيرة، فأعادت تلك العوامل جميعًا تشكيل الخريطة السكانية بالتوالُد والتَّصاهُر والاستيطان مرَّة، وبالاجتثاث الوبائي أكثر من مرة؛ لذا فلا يوجد تاريخ دقيق وتتبُّع علمي متماسِكٌ لقصة أصول وتكوين وتوالد وفناء السكان الذين عاشوا على وادي النيل عبر آلاف السنين، فمحاولة ذلك مع بلد مثل مصر كان قلبًا للعالم القديم وأول حضاراته المستقرَّة، هي مسألة أشبه بالحرث في البحر، وعليه؛ فالأجدر أن نعي أننا أبناء عالمنا المعاصر وشفراته، حيث دلالة ما يتعلَّق بالعِرق والشكل يُرَدُّ في الغالب إلى ما هو طبقيٌّ وثقافي ومعاصر أكثر ممَّا هو چينومي، وكلها في المُجمَل أمور يمكن لنا فهمها وتتبع آثارها ومصادرها من الحاضر ومن الذاكرة الحية المَعِيشة.

يقينًا نحن المصريين متنوِّعون على مستوى السَّمت والملامح، لدرجةٍ تجعل من الصعب تعيين شكل معياريٍّ لمن هو المصري، خاصة وأن الشكل المعياري أو المثالي يختلف حتى الآن بين إقليم وآخر، وبين طبقة وأخرى، وهي مسائل

(1) جمال حمدان: شخصية مصر، الجزء الثاني، الفصل التاسع عشر.

مـا زالـت محـلَّ خـلاف وتفـاوُت في التقديـر، تعـبِّر عـن احتقانـات ثقافيـة صامتـة أحيانًـا وفي أحيـان أخـرى مُعلَنـة، تحديـدًا حـين تتجـلَّى مـن خـلال تناقـض خطابـات المصريـين بخصـوص الملامـح والألـوان وتاريـخ تلـك التناقضـات ونقـاط الالتهـاب فيهـا، فعلاقـة نظـرة المصريـين إلى ألـوان بشرتهـم وارتبـاكات هـذه النظـرة هـي جـزء لا يتجـزَّأ مـن تاريـخ العصاميـة والجَربَعَـة وإن تغـيَّرَت وتنوَّعَـت مـع الزمـن، فبـين فـترة وأخـرى تُطـرَح تسـاؤلات مـن نـوع: هـل المصريـون المعياريـون سُـمرٌ أم بِيـضٌ؟ هـل نحـن السُّـمر الذيـن يعـون أنهـم سُـمرٌ لكنهـم يَـودُّون تصنيفهـم كجماعـة أكـثر بياضًـا؟ أم نحـن جماعـة مـن ذوي البـشرة السـمراء الذيـن يحملـون ضـلالاتٍ تُصـوِّر لهـم أنهـم مـن البيـض ابتـداءً؟ أم نحـن السُّـمر الذيـن يفخـرون بسُـمرَة بشرتهـم؟ ومـا موقـع ودلالـة لـون البـشرة واختلافهـا بـين الرجـال والنسـاء، أو بـين الأغنيـاء والفقـراء، أو بـين الريـف والمدينـة؟

قصتنـا الحيـة مـع "الألـوان" تبـدأ مـن تصوُّراتنـا القديمـة عـن شـكل السـادة، لـون بشرتهـم وتفاصيـل ملامحهـم. لقـرون طويلـة كان السـيد في مـصر هـو الرجـل الأبيـض، لكنـه ليـس ذلـك الأبيـض الأوروبي، بـل الرجـل الأبيـض الشركـسي المسـلم، الـذي حكمنـا منـذ عهـد المماليـك البحريـة والبُرجيَّـة، واسـتمرَّ حُكمُـه مـع العثمانيـين ووُلاتِهـم حتـى القـرن العشريـن، وهـو ليـس مُجـرَّد رَجُـلٍ أبيـض البـشرة؛ ذلـك أن بَيـاضَ البـشرة وحـده لا يكفـي، بـل يجـب أن يكتمـل بالحُمـرة واسـتدارة الوجـه؛ دلالـةً عـلى حُسـن التغذيـة وسَرَيـان الـدم في العـروق وانعـكاس العِـزِّ والنعمـة عـلى الأبـدان، فوقتهـا كنَّـا الشـعب الفقـير مُتشـقِّق القسـمات كالـح الوجـه، المحـترق بقيـظ شـمس الغيطـان، سـيئ التغذيـة، نحيـف الجسـد، هزيـل البنيـان؛ لـذا كانـت السِّـمنة حتـى زمـن أغـاني سـيد درويـش هـي علامـة العـز والجـمال للرجـال والنسـاء عـلى السـواء في مـصر، فـكان كـرش الرجـل المتقـدِّم للـزواج دلالـةً عـلى ثرائـه وكـرم أصلـه، ويتغنَّـون بـه في أغـاني الأعـراس، وكانـت الهوانـم سـيدات المنـازل القاهريـة الفخمـة بدينـاتٍ بَدانَـةً مُفرِطَـة، حتـى إن ضبـاط الحملـة الفرنسـية عـبَّروا باسـتغرابٍ شـديد في مذكِّراتهـم عـن اختـلال معايـير الجـمال لـدى المصريـين وقتهـا، وكانـوا يتعجَّبـون مـن سِـمنَة وتَرهُّـل هوانـم

المشربيات اللاتي يُدَخِّنَّ النرجيلة في خمولٍ مقابل رشاقة وخِفَّة الفلاحات الفقيرات وبائعات الشوارع.[1]

ظلَّت صورة السيد ولقرونٍ طويلة مقترنة ببَياض البَشرَة واحمرارها وسمنة أصحابها، حتى دخلت على خَطِّ التاريخ مُعطياتٌ جديدة بدأت في تحريك المُعادَلَة، فقد التحق أولاد العرب وأبناء الفلاحين بالجيش في عهد الباشا محمد علي، ثم تَرَقَّوا تدريجيًّا في عهد أبنائه، وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهر من بين أبناء الفلاحين مُلَّاكٌ للأراضي الزراعية وأغنياء جُدُدٌ من الباشوات المصريين الذين أسَّسوا لبدايات الحركة الوطنية المصرية وخطاباتها الأولى، ومع هذا الظهور بدا وجود حاجة إلى خلق صورة بصرية جديدة لمن سيُسمَّى لاحقًا "ابن البلد"، ومن خلال صورة ابن البلد هذه ستُصاغ تصوُّرات رمزية عن الأصالة والكفاح والاستحقاق وعن السِّمات البصرية لصاحب الوطن الحقيقي، وسيكون ابن البلد هو الفلاح أسمر اللون الفخور بلفحة الشمس على جبين رأسه، وقسمات ملامحه هي نفس قسمات الفلاح الفقير، ولكن بعد أن تظهر عليها سيماء النعمة والتغذية.

الصورة الجديدة تلك للمصري "الحقيقي" احتاجت إلى ما يقارب قرنًا من الزمان كي تترسَّخ وتصبح مع الوقت هي الصورة النمطية للذَّكَر المصري، أو مَن أسمتهم الراحلة شادية في أغانيها "الولاد السمر الشُّداد"، لكن خلال هذه الفترة أيضًا سيسعى المصري الفلاح لتبييض بشرته قدر الإمكان ليصبح أبناؤه على شاكِلَةِ السيد التركي؛ ليشاركه بياض بشرته المرتبطة برِفعَةِ مكانته، وذلك من خلال عملية ستسمَّى لاحقًا وبمنتهى الجربعة "تحسين النسل"، وهو -للأسف- مصطلح لا يزال مستخدمًا في البيوتات المصرية إلى يومنا هذا، كما لو كُنَّا نتحدث عن تهجين سلالات من البقر والجواميس، فتحسين النسل هنا يعني استيلاد أطفال للمستقبل هم أكثر جَمالًا عبر تزويج القبيح بالجميلة، فيكون الهجين الوليد من صلب القبيح، لكن أقل قُبحًا من أبيه، ولا حاجة هنا لتعيين مرادفات القبح والجمال في هذا السياق، فهي لا تعني فعليًّا إلا السُّمرة والبياض.

---

(1) چان چاك لوتي: نظرة على مصر في زمن بونابرت، الفصل الرابع، ص 177.

عملية "تحسين النسل" في القرن التاسع عشر كانت محاولة الفلاح "شَركَسَة" نسله عبر الزواج بامرأة لها أصولٌ تركية ذات بشرة بيضاء، حتى ولو كانت من فئة اجتماعية أدنى منه، يتزوَّج الضُّبَّاط الجدد من جواري ووصيفات الخديوي وعائلته، ومن خلال هذه العملية ستأتي مبادلة رفعة المكانة الاجتماعية العصامية ببياض واحمرار لحم النساء، فتصبح الزوجة البيضاء جائزة نجاح الصاعد الجديد، وفي المقابل سترقّى الزوجة البيضاء اجتماعيًّا مقابل التغاضي عن دُكنَة بشرة الزوج، وهو منطق لا يزال له بعض الأثر له في مصر حتى الآن، حيث يعتبر جمال المرأة مدخلًا طبيعيًّا لتَرَقِّيها اجتماعيًّا حالَما كانت الفتاة تنتمي إلى بيئة اجتماعية متواضِعَة، والواقع هذا هو حال البلدان التي يسودها التفاوت الطبقي العنيف والفقر المُدقِع، حيث يصبح مع الوقت جمال الملامح مرتبطًا برفعة الطبقة الاجتماعية كما هي الحال وبنحو صارخ في مكان شديد القسوة مثل الهند.

في القرن العشرين عرفنا "بياضًا" من نوع جديد، وهو بياض الإنسان الأوروبي الذي هيمن هو الآخر كصورة بصرية، ليست من خلال المستعمر البريطاني بالأساس، بل من خلال المواد الدرامية الأمريكية والهيمنة الهوليوودية على المُخيِّلة البصرية في مختلف بقاع الأرض. فرضت المعايير الجمالية الهوليوودية نفسها على الآخرين لدرجة أتت بآثارها إلى السينما المصرية نفسها، جعلت ممثِّلًا بوزن الراحل أحمد زكي يجد صعوبة في أن يجد عروضًا من المُنتِجين لتقديم أدوار البطولة؛ نتيجة سَمار بشرته الشديد، وذلك حتى أواخر سبعينات القرن العشرين. كان الأمر بالتأكيد أكثرَ فداحةً وبجاحة مع المُمثِّلات؛ فالنجمة الأنثى الفاتنة لا يمكن إلا أن تكون بيضاء، ولو ظهرت نجمة سمراء البشرة على سبيل الاستثناء النادر فسيأتي تعريفها للتَّوِّ من خلال سُمرَتها تلك على اعتبارها شيئًا استثنائيًّا، فأنت حين تصف مديحة يسري بأنها سمراء النيل أو تُسمِّي عبد الحليم حافظ بأنه العندليب الأسمر؛ فذلك يأتي من كونهما استثناءً لقاعدة غير سمراء توجِبُ ذِكرَ سُمرَة بشرتهم هم؛ ذلك أن السينما المصرية لم تطلق قطُّ على مريم فخر الدين أو نادية لطفي لقب بيضاء الشاشة أو صهباء النيل.

تناقُضات الألوان المصرية

الثقافة الشعبية من جانبها كان لها رأي مختلف في المسألة "الألوانية"، الثقافة الشعبية في وقت مُبكِّر استبطنت في خطاباتها إدانة لبياض بشرة الرجال واعتبارها رجولة ناقصة، لا تزال هذه المعاني موجودة حتى الآن في الأحياء الشعبية حيث يوصف الرجل الأبيض بأنه "أبيض ومأحلى"، فبياض البشرة -وفقًا للذهنية الشعبية- مرتبط بالنساء أو مرتبط بالكائن الآخر عمومًا سواء أكان تركيًّا أم أجنبيًّا، حتى إن شاعرًا مثقفًا بوزن فؤاد حداد عبَّر عن ذلك في إحدى قصائده الساخرة من الإنجليز واصفًا الجندي البريطاني بأن "عينه خَضرَا وشَعره أصفر وله شنب زي الرجال"، وما زالت حتى الآن صفات الرجولة والمَجدَعَة والأصالة مرتبطة ذهنيًّا بصورة ابن البلد أسمر البشرة التي يحاول المُمثِّل محمد رمضان هذه الأيام النَّهلَ من معينها بلا رحمة.

على جانبٍ آخر دفعت النساء المصريات -وما زلن- ثَمنَ هذه المعايير المختلَّة، فالنساء المصريات -وغالبيتهن سمراوات البَشرَة- مطالبات دائمًا ببشرة أكثر بياضًا، ولو أنجبت أُسرَة مصرية توأمًا أحدهما ذَكَر والثاني أنثى، وكان للاثنين نفس البشرة؛ فإن الذَّكَر الأسمر لن يُتوَقَّف عند سمار بشرته نفسَ تَوقُّف أخته التوأم؛ فثقافة الألوان المصرية تطالب الفتيات بألَّا يتعرَّضن كثيرًا للشمس كي لا تَدْكن بشرتهن، وتُروِّج لمساحيق وكريمات تفتيح البشرة، نفس الثقافة التي طالما عايَرَت النساء بشعورهن المُجعَّدة في بلدٍ الأصل فيه هو الشَّعر المُجعَّد، فعلى المرأة أن تكون بيضاء، أو بيضاء قدر الإمكان، وإن لم تكن بيضاء اللون فعلى الأقل تحاول أن تتشبَّه بالبيضاوات في انسدال شعورهن، ولَطالَما عانت نساء كثيرات بسبب ذلك التمييز والتنمُّر، رغم أنَّهنَّ لسن الاستثناء، بل هُنَّ الأصل والغالبية، في ظاهرة عميقة للجربعة والانبطاح أمام تصوُّر شديد التَّشوُّه والارتباك لمعنى الجمال وتَذوُّقه، وللأسف الشديد جزء أصيل من التصوُّرات البطريركية والذُّكوريَّة المصرية التي يتبنَّاها الرجال والنساء على حَدٍّ سواء تذهب في اتجاه إذلال المرأة بسَمارها، بدءًا من سمار وجهها، نزولًا إلى سَمار فَرْجِها، وهو الأمر الذي يقاومه الآن تيار واسع من الفتيات على أكثر من صعيد، أكثرها وضوحًا هو الفخر بتجعُّد شعورهن وتحويل الشَّعر "الكيرلي" إلى علامَةِ جَمالٍ وجاذبية.

لم تكـن مـصر مـن البلـدان التـي تلعـب فيهـا الأعـراق دورًا مفتاحيًّـا في تحديـد مكانـة النـاس ونفوذهـم، فصحيـح أن عبـد الحكيـم عامـر، في إحـدى لحظـات الـصراع المُحتَـدِم عـلى السـلطة في مـصر أعقـاب هزيمـة 1967، سـبَّ أنـور السـادات في اجتـماعٍ سـياسيٍّ خـاصٍّ، وطالبـه بالتـزام الأدب والصمـت واصفًـا إيَّـاه بــ "البربـري" الـذي لا يَحِقُّ لـه الـكلام[1]، إلاَّ أن هـذا السِّـباب العنـصري لم يمنـع السـادات لاحقًـا مـن أن يكـون الرئيـسَ التـالي لمـصر بعـد وفـاة جـمال عبـد النـاصر، وغالبيـة المصريـين حتـى الآن لا تضـع لـون بـشرة أنـور السـادات في الاعتبـار حـين يـأتي الأمـر لتقييمـه كسـياسي مهـمٍّ ومحـوريٍّ في تاريـخ مـصر الحديـث، وغالبهـم يتفاجـأ وهـو في الخـارج مـن تصنيـف الأمريكيـين والأوروبيـين لـه كرئيـسٍ أسـود عـلى غـرار الرئيـس الأمريـكي الأسـبق بـاراك أوبامـا، فنحـن في الحقيقـة -ورغـم كل شيء- لا نَـزِنُ الأمـور بهـذا الميـزان.

مـا سبق ليـس معنـاه أن مـصر بلـدٌ خـالٍ مـن العنصريـة عـلى أسـاس اللـون لا سـمح اللـه، حاشـا للـه، فالعنصريـة في مـصر موجـودة ومتأصِّلـة ومُتنوِّعـة، جُـلُّ مـا في الأمـر أنهـا عنصريـة تمتلـك مـن الشـفرات الخاصـة والمُعقَّـدة مـا يجعلهـا شـديدة التميُّز والخصوصيـة؛ نتيجـة التنـوُّع الشـديد في التركيبـة العِرقيَّـة المصريـة وقِدَمِهـا الشـديد، ونتيجـة وجـود خطـاب وطنـي موجَّـه لـكل السُّـكَّان، لكـن بالطبـع توجـد عنصريـة ضـد السُّـود وضـد الخواجـات في مـصر، كلٌّ منهـا لهـا دوالُّهـا الخاصـة في التعبـير عـن نفسـها، العنصريـة ضـد السـود في مـصر مرتبطـة بالملامـح الأكـثر إفريقيـة وليـس بلـون البـشرة فقـط؛ لـذا سـيعاني بعـض أهـل النوبـة وسـودانيِّي الجنـوب مـن قبائـل الدينـكا والنويـر أكـثرَ مـن النوبيـين "الفادچيـة" وسـودانيِّي الشـمال، وسـتظل إجـادة اللكنـة المصريـة هـي المعيـار الحاسـم والقـول الفصـل في تحديـد درجـة العنصريـة التـي يعـاني منهـا أصحـاب البـشرة السـوداء، فمَـن يجيـد اللهجـة المصريـة إجـادةً تامـة سـتتحوَّل العنصريـة العدوانيـة منزوعـة الأَنْسَـنَة ضـدَّه إلى عنصريَّـةٍ مِحوَرُهـا المَـرَحُ وإظهـار الوجـه المتآخـي مُدَّعـي اللطـف، ومـا يـسري عـلى سـود البـشرة يـسري كذلـك عـلى بيـض البـشرة مـن ذوي السَّـمت الأوروبي، والذيـن هـم غالبًـا موضـوعٌ للاسـتحلال وعـدم "الاسـترجال"، حتـى يتحـدث الخواجـة منهـم بلهجـة مصريـة سـليمة تمامًـا؛ فيسـتوي الميـزان، ويكسـب الـود والاحـترام.

---

(1) موت الرجل الثاني: فيلم وثائقي، الجزء الثاني، إنتاج قناة الجزيرة.

لكـن في كل الأحـوال، وعـلى الرغـم مـن المحـاولات الجربوعيـة المسـتمرة لإيجـاد وزن لمسـألة الألـوان في مـصر بنحـوٍ يتجـاوز ثنائيـة الرجـل الأسـمر الـذي يبحـث عـن زوجـة بيضـاء- سـتظلُّ مـصر بلـدًا طبقيًّا بالأسـاس، لا يُصنَّـف فيـه النـاس بحسـب لـون بشرتهـم، بـل بمسـتوى نضـارة هـذه البـشرة وبيـان النعمـة عليهـا، خاصـة وأن السُّـمر تَحوَّلـوا طـوال القـرن العشريـن إلى أصحـاب مـالٍ وجـاه، ولم يعـودوا هـؤلاء الفلّاحـين مَحنيِّـي الظهـر مُتشـقِّقي القسـمات؛ لـذا صاحَـب هـذه التغيـيرات اسـتخدامُ أوصـافٍ تحقيريـة للفقـراء والمحتاجـين مـن ذوي البـشرة الفاتحـة، مثـل وصـف الأبيـض الكالـح والأبيـض "المقيَّـح" و"المقشِّـف"، ومـع الوقـت أصبـح المعيـار هـو النِّعمـة الباديـة عـلى الوجـوه: نظافـة البـشرة ولمعانهـا، طريقـة الملبـس والحديـث، ثقـة الإنسـان بنفسـه وبموقعـه الاجتماعـي، إلى آخـره مـن شـفراتٍ أكـثر تعقيـدًا انبثقـت مـن ثنائيـات الـتركي والفـلاح بِنـت القـرن التاسـع عـشر.

تظـل الآثـار المتبقيـة مـن الاختـلالات السـابقة إرثَ الـصِّراع عـلى صـورة مَـن هـو "المـصري الحقيقـي والمصريـة الحقيقـة"، وهـي آثـار ستسـتمرُّ مـا اسـتمرت الطبقـات العليـا والمتميِّـزة في البحـث الجربـوع والنشـط عـن كل شـفرة ومفتـاح يحاولـون مـن خلالـه تمييـز أنفسـهم عمَّـن هـم تحتهـم في المرتبـة الاجتماعيـة، وفي المقابـل سـيحاول قِطـاعٌ مـن المُهَيمَـن عليهـم محـاكاة المتميِّزيـن والـذوات عـبر خلـق أنفسـهم عـلى شـاكلتهم وصورتهـم قـدر الإمـكان، ويحاولـون الاحتيـال عـلى تلـك الشـفرات التـي تحـاول البرجوازيـة أن تُميِّـز بهـا نفسـها، خاصـة وأن غالبيتهـا شـفرات تافهـة غـير ذات دلالـة عميقـة أو جـادَّة... وهكـذا دواليـك.

اضطرابات حادَّةٌ في عضلة اللسان

الثقافـة الاجتماعيـة للمصريـين تميـل إلى فـرز النـاس بعضهـم عـن بعـض طبقيًّـا، بفجاجـة وباسـتمرار، لا يخجلـون مـن ذلـك ولا يعتبرونـه تعدِّيًـا عـلى معنـى المواطنـة، وهـم في حاجـة مسـتمرَّة إلى عمليـة الفـرز تلـك نظـرًا إلى التَّنـوُّع الشـديد لمكوِّنـات الخريطـة الطبقيـة ومدلولاتهـا؛ لـذا فـإن عمليـة إنتـاج وإعـادة إنتـاج الشـفرات الطبقيـة والتصـوُّرات التَّراتُبيَّـة في مـصر مسـألة بديهيـة، وفي صُلـب الممارسـة الثقافيـة اليوميـة للمصريـين.

تخضع عملية إنتاج الشفرات الاجتماعية للتَّكيُّف والمواءمة المستمرَّة مع موجات الحراك الاجتماعي المستمر بدوره هو أيضًا. المصريون يحتاجون إلى شفرات طبقية لمَّاحة وسريعة، تستطيع أن تتعامل مع تكدُّس جغرافيتهم السكانية وتنوُّع خلفياتهم الاجتماعية والجِهَويَّة، فسكَّان نطاق إقليم القاهرة الكبرى مثلًا، فضلًا عن أن تعدادهم يتجاوز عشرين مليون نسمة وينتمون إلى عوالم طبقية شديدة التنوُّع والثراء، يأتي ملايين آخرون كثرٌ غيرهم إلى قاهرتهم الكبرى تلك كلَّ يومٍ من المحافظات المختلفة لمزاولة نشاط أعمالهم، ويغادرونها في نفس اليوم عائدين إلى أقاليمهم بعد يوم عملٍ شاق.

حياة المصريين تتَّسِم بالسرعة والازدحام والارتباك في مجتمع شديد الطبقية، يتطلَّب منهم قدرة سريعة على قراءة بعضهم لبعض اجتماعيًّا في فترة قصيرة جدًّا، قد لا تتجاوز ثواني معدودة، كي يعرف كل إنسان موقعه من الإنسان الآخر، ويحدد بناء على ذلك كيف يصوغ علاقته معه وبأي طريقة يحدثه، ولأن العِرق ليس مفتاحًا أساسيًّا للتمييز الاجتماعي في مصر لأننا متنوِّعون بقدر ما نحن متشابهون كما أوضحتُ في الجزء السابق، فإن اللهجة أو اللكنة أو طريقة الكلام وطبقة الصوت والمصطلحات المستخدمة تعتبر أحد المداخل الأساسية التي تتِمُّ من خلالها عملية الفرز الاجتماعي والجِهَوي في مصر، وذلك في عملية شديدة السرعة والبداهة والتعقيد والمحلية في نفس الوقت، وهي العملية التي تُشكِّل أحد مداخل فهم هوياتنا المتجدِّدة كمصريين، والتي من خلالها نغيِّر باستمرارٍ لسانَنا وطرائق كلامنا وإيقاعه، فالمصريون لا يستخدمون لُغةً واحدة في حياتهم، وطرائق تواصلهم الشفاهي تتغير في اليوم الواحد عشرات المرات باختلاف هوية المُخاطَب الاجتماعية أو الجنسية أو العمرية أو طبيعة موقعه في السلطة؛ لذا فأغراض التعايش الاجتماعي أو التطفُّل الاجتماعي أو الترقي الاجتماعي في ظل صيغة مجتمعاتنا الطبقية البغيضة تلك- تُنتِج من تلقاء نفسها، وبنحوٍ متجدِّد ومستمرٍّ، تصوُّراتٍ عن لهجاتٍ سائدة ومُحبَّبة في مقابل لهجات هامشية ومُستَهجَنَة، أو تصوُّرات عن طرائق معينة في الكلام تشمل الأُطُر الاصطلاحية وطبقة الصوت ومخارج الألفاظ، بغرض أن يُستَدَلَّ منها على انتماء طبقي أعلى وأرفع من غيره.

أصوات عامّيّاتنا الحديثة

مـن بـين مائـة مليـون نسـمة يتحدثـون العربيـة باللكنـات المصريـة المختلفـة تتسيَّد لهجات المدن على لهجات الريف في المكانة والمرتبة، وتتسيَّد لهجة القاهرة على ما سواها من لهجات مدينية أخرى، بحيث طغت على بقية لهجات المدن الأخرى، وأصبحت هي لسان سكانها مع اختلافات طفيفة في بعض الكلمات ومخارج الألفاظ. اللهجة القاهرية كذلك هي اللكنة الدراجة للإعلام والسينما والأغاني والمسلسلات طوال ما يقارب قرنًا من الزمان فأصبحت مع الوقت هي اللكنة المعيارية لكل المصريين، الذين صار مطلوبًا منهم أن يجيدوها جنبًا إلى جنب مع لهجاتهم المحلية، وتحوَّلَت العامية القاهرية الحديثة إلى لهجة أي موقع افتراضي غير مُعرَّف في أي محتوى دراميٍّ، ما لم يتحدَّد صراحةً أنه مكان آخر غير القاهرة؛ فالقاهرة هي الأصل إلى أن يثبت العكس.

للأسف لا توجد تسجيلات صوتية للزعيمين: أحمد عرابي وسعد زغلول، لكن تقول شهادات معاصرين لهما إن كُلًّا منهما كان يتحدَّث في حياته اليومية بلكنة بلده وليس بلهجة القاهرة. يُقال عن سعد باشا زغلول إنه كان يتحدث بلكنة ريفية واضحة تشمل المصطلحات والأصوات السائدة والشائعة آنذاك في محيط محافظة كفر الشيخ حاليًا، وأن أحمد عرابي كان يتكلَّم بلكنة شرقاوية، وأن محمد محمود باشا كان يتحدَّث بلكنة صعيدية أسيوطية، في هذا الزمن كان هؤلاء الباشاوات يتحدث كل منهم بلهجة إقليمه أو قريته جنبًا إلى جنب مع اللغة الفرنسية التي كانوا يجيدونها إجادةً تامَّةً، ويستخدمونها في محادثاتهم المستمرة مع عموم الوجود الكولونيالي الأوروبي الواسع في مصر، فحتى ذلك الحين لم تكن توجد لكنة دارجة مُهَيمِنَة، وكانت الفصحى (النَّحَوي) مُهَيمِنَة فقط في المخاطبات الرسمية والخطابة السياسية والإنتاج الأدبي والمعرفي، لم يكن هناك شيء اسمه سيادة اللهجة القاهرية مثلما هو شائع في لحظتنا المعاصرة، ويمكننا تتبُّع آثار هذا الزمن من بعض التسجيلات الحوارية النادرة التي أجراها التلفزيون المصري في بداية الستينات، مع بعض الرموز الأدبية والفنية من كبار السن وقتها، مثل تسجيل أجراه التلفزيون مع الشيخ عبد اللطيف البنا -مطرب أوائل القرن العشرين الشهير- الذي كان يتحدَّث فيه بلكنة قرية كفر مستناد التابعة

لمركـز شـبراخيت في محافظـة البحـيرة، حيـث نشـأ وترعـرع، وظـلَّ مقيـمًا فيهـا بعـد اعتزالـه الغنـاء.[1]

اللهجـة القاهريـة الحاليـة بسـطت سـيادتها بالتدريـج مـع ظهـور الراديـو وانتشـار دور السـينما في كل مـكان، في الواقـع هـي لم تكـن سـيادة بقـدر مـا كانـت أشـبه بعمليـة التشـكيل الجديـد مـن الأسـاس، فـلا يمكننـا الجـزم بوجـود لهجـة قاهريَّـة واحـدة تسـيَّدَت أحيـاء ومناطـق العاصمـة التـي كانـت تختلـف باختـلاف مواطـن الهجـرات القادمـة إليهـا مـن الريـف، فضـلًا عـن أن النطـاق الجغـرافي للقاهـرة قديمًـا كان مختلفًـا تمامًـا عـن حيِّـز ونطـاق القاهـرة الحـالي، وكثـير مـن المناطـق التـي نعتبرهـا الآن في قلـب القاهـرة الأصيـل كانـت قـرى يسـكنها أبناؤهـا منذ زمـن بعيـد، ويتحدَّثون فيـما بينهـم بلهجاتهـا الخاصـة هـي الأخـرى. مناطـق شـبرا والجيـزة والهـرم وبـولاق وإمبابـة كانـت مناطـق ريفيـة وخـارج زمـام المدينـة، بالإضافـة إلى التنوُّعـات العِرقيَّـة واللغويـة لسُـكَّان القاهـرة القديمـة التـي عـبَّر عنهـا سـيد درويـش في مسرحياتـه التـي كانـت تجمـع لهجـات مصريـة ويونانيـة وسـودانية وتركيـة وشـامية؛ لـذا ففعليًّـا كانـت السـينما والراديـو مـا بـدأ سرد التاريـخ الاجتماعـي بعاميـة مصريـة تطـوَّرَت بالتدريـج إلى تلـك التـي نتحـدث بهـا الآن.

وفي أثنـاء ذلـك قُدِّمَـت صيـغ كاريكاتيريـة للهجـات الأقاليـم داخـل الوسـائط الإعلاميـة المنتـشرة، فصـارت توجـد لهجـة نمطيـة كاريكاتيريـة غـير دقيقـة للكنـات الصعيـد، وكـذا للكنـات السـواحل والدلتـا والبـدو، صـارت أشـبه بالمُجسَّـمات التـي تحـاكي بشـكل مُشـوَّهٍ لهجـاتٍ حقيقيَّـةً وشـديدة التنـوُّع ويتحـدث بهـا أهلهـا بالفعـل، وتختلـف مـن مركـز إلى مركـز، ومـن محافظـة إلى محافظـة، بـل حتـى بـين القـرى مـن بعضهـا إلى بعـض، وربمـا لعبـت وسـائل التواصـل الاجتماعـي في السـنوات الأخـيرة دورًا إيجابيًّـا في تعريـف المصريـين بحقيقـة لهجاتهـم المتنوِّعـة، فوصلـت اللهجـات الصحيحـة لدميـاط وأبـو كبـير وشـبين الكـوم وكفـر الشـيخ وقنـا إلى آذان سـكان القاهـرة والإسـكندرية، وبـدأت الأصـوات الحقيقيـة تتحـدث مـن حناجرهـا مبـاشرة، ولم يَعُـد الأمـر مـتروكًا في يـد وسـائط إعلاميـة مركزيـة ترسـم صورتهـم هـم عـن أنفسـهم أو عنـد الآخريـن.

---

(1) برنامج "سهرة مع فنان": تقديم أماني ناشد وإخراج حسن الصغير، عام 1962، قناة "ماسبيرو زمان" على يوتيوب.

ومـع الوقـت، ومثلـما تغـيَّرَت العربيـة الفصحـى القديمـة لتتطبَّـع أكثر وأكـثر بطابع لغـة كتابـات صحافـة أواخـر القـرن التاسـع عـشر، التـي أسَّسـها المهاجـرون الشـوام في مـصر، وكذلـك بلغـة ترجـمات مصطفـى لطفـي المنفلوطـي وصحبـه، وتتحـوَّل مـع الوقـت إلى "العربيـة الفصحـى" بألـف لام التعريـف، أو عربيـة نـشرات الأخبـار التـي نعرفهـا الآن، فقـد تغـيَّرَت العاميـة هـي الأخـرى ومـرَّت تَطوُّراتهـا الخاصـة بتأثـير الوسـائط الإعلاميـة المركزيـة المهيمنـة مثـل الراديـو والسـينما، ولاحقًـا التلفزيـون، التـي نحتـت بالتدريـج لهجـةً مصريـة تُمكِـنُ تَسـميَتُها بلهجـة المـدن الكـبرى، التـي كان أساسـها موجـودًا مـن قبـل في العاميـات القاهريـة المتنوِّعـة، بعـد أن هذَّبوهـا ووضعـوا لهـا بعـض الضوابـط الاصطلاحيـة التـي تُحـدِّد مـا يليـق ومـا لا يليـق، ومعايـير الأدب والتهذيـب، ومـا هـي ألفـاظ السـباب غـير المسـموح بهـا، وأنـواع أخـرى مختلفـة مـن أنمـاط ضبـط الألسـنة، ولم يكـن هـذا ليحـدث إلَّا في إطـار تأسـيس مـشروع وطنـي في بدايـة القـرن العشريـن بقيـادة أفنديـة المـدن الرئيسـة في مـصر، سـادت معهـم - وبسـببهم- لهجـة البنـادر وسـط تركـز عمليـة إنتـاج المعرفـة والثقافـة في القاهـرة، التـي كانـت ومـا زالـت حتـى الآن تسـمَّى "مـصر".

مـن المفهـوم جـدًّا أن تتسـيَّد لهجـة الوسـائط الإعلاميـة المركزيـة عـلى بقيـة اللهجـات، خاصَّـة إذا كانـت تحتكـر الإنتـاج الثقـافي والترفيهـي الرئيـسي، لكـن مـا حـدث مـن هيمنـة "قاهريـة" لم يقتـصر عـلى حـدود الهيمنـة المسـتحقَّة، بـل حمـل مـع الوقـت مدلـولاتٍ اسـتعلائيَّةً واضحـة، إمَّـا بالتعامـل مـع بقيـة اللهجـات كموضـوع للسـخرية والتَّنمُّـر، وإمـا بتقديـم تلـك اللهجـات عبر الوسـائط الإعلامية بشـكلٍ مُشـوَّه وكاريكاتـيري كأن أصحابهـا فَنَـوْا مـن وجـه الأرض، لدرجـة أنْ اعتـاد سـكان الصعيـد مثلًا عـلى مشـاهدة أعـمال فنيـة باسـمهم وعـن واقـع حياتهـم بلهجـة تحاكيهـم وأصبحـوا يُسـمُّونها هـم "صعيـدي التلفزيـون"، كأن للصعيـد لهجـة واحـدة مثـلًا مـن الأصـل، وليـس العديـد مـن اللهجـات التـي تختلـف بـين مراكـز المنيـا وأسـيوط ودشـنا وجرجـا وقنـا وإسـنا. ولا يقتـصر الأمـر عـلى الصعيـد فقـط، بـل ينسـحب عـلى كل المناطـق الأخـرى، في حالـة رَدعٍ ثقـافيٍّ مُتنطِّعٍ وغريـب، فأنـت تخاطـب مواطنيـك بلهجـة تحتـال بهـا عليهـم عـلى اعتبارهـا لهجتهـم هـم، هـذا التنطُّـع أفـضى إلى أن سُـكَّان الأقاليـم في غالبهـم صـاروا ينكـرون لهجاتهـم الأصليـة حـين يـزورون القاهـرة أو يهاجـرون إليهـا عمـلًا أو دراسـة، بـل توجـد العـشرات مـن القصـص المؤلمـة لمعانـاة الوافديـن الجـدد

مـن التنمُّـر والسـخرية لمجرَّد أنهـم كانـوا يتحدثـون بلهجـة مناطقهـم، وتغيـير طريقـة معاملتهـم عـلى اعتبارهـم غربـاء أو أدنى، وهـي حالـة جربوعيَّـة بالمُجمَـل؛ لأن تاريـخ الهيمنـة اللسـانية القاهريـة هـذه ليـس ببعيـدٍ، وليـس بعميـق، فضـلًا عـن أن اللهجات نفسـها في حالـة تغيـير مسـتمرٍّ، وبتأثـيرات مختلفـة، بنحـوٍ لا يمكننـا أن نسـتدلَّ مـن خلالـه عـلى معايـير للتحـضُّر أو الرُّقـيِّ في مقابـل لهجـات أخـرى، وجعلهـا موضوعًـا للتنميـط والسـخرية والسَّـفالة.

العربية المتأمركة كجربعة لسانية

تظـلُّ العلاقـة الاسـتعلائية بـين اللهجـات المركزيـة واللهجـات الطرفيـة أقـل وطـأة مـن ظاهـرةٍ اسـتجدَّت في السـنوات العشريـن الماضيـة، وهـي ظاهـرة الربـط الذهنـي بـين الصعـود الاجتماعـي وبـين الخلـط المُتعمَّـد بـين اللغتـين العربيـة والإنجليزيـة في الأحاديـث الشـفاهية. نعلـم بالطبـع أن هنـاك سـباقًا محمومًـا لا يتوقَّـف مـن أجـل خلـق شـفرات اجتماعيـة للتمايُـز الزائـف بـين المواطنـين، غـير أن هـذه الشـفرة بالـذات تتَّسِـم ببـؤس وتعاسـة اسـتثنائيين، فـلا يمكـن أن تسـتقبل الأذنُ جُملـةً مثل "أكتشـوالي... آي فيـل لايـك آكل طبـق فـول بجـد رايـت نـاو" إلَّا ويصاحبهـا إحسـاسٌ عميـق بالكرب، ليـس مصـدره الحماسـة والتعصُّـب إلى العربيـة في مواجهـة الإنجليزيـة، بـل احترامًـا لكلتيهـما، واحترامًـا لبديهيَّـات التواصـل، وتأمُّـلًا فيـما آلـت إليـه الثقافـة المحليـة وعمليـة إنتـاج المعرفـة واسـتهلاكها، ومـا وصلـت إليـه مـن انحطـاطٍ لمعايـير الرِّفعـة والجـمال والأناقـة، إلى الحـد الـذي يجعـل بعـض النـاس يتصـور أن نطـق جملـة كهـذه يمكـن أن يحمـل أي دلالـة إيجابيـة أو طيبـة.

ابتـداءً، مـن حـقِّ أيِّ إنسـان أن يتحـدث بـأي لسـان وبـأي لغـة وبـأي مزيـج، لا وصايـة عـلى لسـان أي إنسـان، قـد يتحجَّـج البعـض بـأن العقـود الأخـيرة شـهدت ظهور أجيـال جديـدة تلقَّـت تعليـمًا أجنبيًّـا داخـل مـصر انعكـس عـلى طريقـة اسـتخدام العديـد مـن المصطلحـات الإنجليزيـة خـلال محادثاتهـا، لكـن الملاحـظ فعـلًا أن انتشـار ظاهـرة حـشر وإقحـام مصطلحـات إنجليزيـة في الحـوارات اليوميـة غرضـه في كثـير مـن الأوقـات إرسـال رسـالة تفيـد بقـدرة الشـخص عـلى التحـدث بالإنجليزيـة، وليـس عجـزه عـن اسـتخدام مرادفـات عربيـة، فكـم هـو مزعـج أن تسـمع حـوارًا بـين عـدد

مـن الأمهـات بخصـوص أطفالهـن تجـد فيـه مَـن تصـف الحـذاء بأنـه "شـوز"، بـل يصل الأمـر بهـا إلى أن تُدلِّـل الشـوز فيصبـح "شـوزة"، مـن المؤكَّـد أن هـذه الأم تعـرف جيـدًا مـا هـو الحـذاء، ومـا هـي الجزمـة، ولمـن هـو الشبشـب، ولمـاذا هـي البُلغَـة، وتعـرف كذلـك أن المـاء ليـس Water، فهـي تمتلـك مـن الحصيلـة اللغويـة مـا يمكنها مـن التعبير عـن نفسـها بشـكلٍ لا يجعلهـا كائنًـا يتسـوَّل اللغـة الإنجليزيـة في تعاسـة ظاهـرة. الأمـر هنـا ليـس اضطرابًـا لغويًـا وثقافيًـا ناتجًـا عـن لغـة التعليـم والدراسـة، بـل محاولـة بائسـة ومتعمَّـدة لرسـم صـورة شـديدة الضَّـلال عـن الـذات، يتخيَّـل صاحبهـا أنهـا تـرادف الرِّفعَـة والتحضُّر، فيتحـوَّل الإنسـان مـن شـخص يسـعى لإثبـات رسـالة صعـود اجتماعـي مُعيَّنـة إلى مَسـخٍ مسـكين.

لقـد امتلكـت العربيـة الحديثـة قُـدرةً عاليـة عـلى هضـم المصطلحـات الأجنبيـة وإدخالهـا في صميـم لغتهـا المحكيَّـة واشـتقاق الأفعـال والجمـوع منهـا، لفـظ تلفزيـون مثـلًا هـو لفـظ أعجمـي لم يستسـغ النـاس تعريبـه واسـتخدام لفـظ "التلفـاز"؛ فطبَّعـوا معـه ككلمـة لهـا أصـل فرنـسي، وصرنـا نجمعهـا ونقـول تلفزيونـات. يـسري الأمـر عـلى كثـير مـن المصطلحـات المرتبطـة بتشـغيل أجهـزة الكمبيوتـر والهواتـف المحمولـة، فنحـن نسـتخدم أفعـال "يِفَرْمَـت ويِكَنسِـل ويصَطَّـب ويدَلِّـت" بنحـوٍ دَوريٍّ ويومـي ونحـن مدركـون لدلالتهـا ومعناهـا دون أن يحمـل هـذا أي شـكل مـن أشـكال الافتعـال، ومـا زالـت العربيـة قـادرةً عـلى ترجمـة الاصطلاحـات الجديـدة الوافـدة بمفـردات ومدلـولات عربيـة بعـد أن كُنَّـا نسـتخدم لفظهـا اللاتينـي، كـما كانـت الحـال مـع مصطلـح "بوليتـكال كوريتكنـس Political Correctness" وقـد صرنـا الآن نسـتخدم لفـظ الصوابيـة السياسـية بديـلًا عنـه، وفي بعـض الأحـوال نعجـز عـن إيجـاد المـرادف فنظـل نسـتخدم اللفـظ الإنجليـزي كـما الحـال في حـال كلمـة Potential مثـلًا، التـي تعنـي "الإمكانيـة الكامِنَـة"، ويحـدث هـذا أيضًـا دون أي افتعـالٍ؛ لأن اسـتخدام اللفـظ الأجنبـي في هـذه الحالـة مُـبرَّرٌ معرفيًـا، لا مشـكلة في أن نَصِـفَ الهواتـف المحمولـة بأنهـا موبايـلات، أو الحواسـيب بأنهـا كمبيوتـرات، لكـن مـن الثقيـل عـلى القلـب أن نصـف القهـوة بأنهـا Coffee، أو الحـب بأنـه Love، أو ربنـا سـبحانه وتعـالى بأنـه God؛ لأن مسـاحة الافتعـال في هـذه الاسـتخدامات واضحـة؛ ذلـك أنهـا تفتئـت عـلى معـانٍ أصيلـة نسـتخدمها كل يـوم بلغتنـا المَحكيَّـة الأم، في بَداهـةٍ لا تحتمـل شـكًّا.

في مصر بالطبع مَن درس العلوم الطبيعية والرياضيات والعلوم الإنسانية باللغة الإنجليزية في جامعات أجنبية، مثل الجامعة الأمريكية والألمانية وغيرهما، لكن هذا أيضًا لا يفسِّر الظاهرة على الإطلاق؛ فكل الكليات العملية والعلمية في مصر تدرس موادها باللغة الإنجليزية منذ نشأتها منذ مائة عام أو يزيد، كل دارسي الطب والهندسة والصيدلة والعلوم درسوا باللغة الإنجليزية في جامعات القاهرة وعين شمس والإسكندرية، وغيرها، وتلقَّوا المحتوى العلمي الذي أهَّلَهم للحصول على شهاداتهم الجامعية باللغة الإنجليزية، لكن هذا لم يُسبِّب التواءً لعضلة لسانهم بالشكل الشائع في العقدَيْن الأخيرين بين خرِّيجي بعض الجامعات الأجنبية في مصر.

في الواقع إذا أردنا التأمُّل الجاد في الأمر قد نكتشف أن التواءات الألسن تلك تكشف عن ضعف مستوى التعليم وليس قُوَّته، إجادة اللغات يعني استخدامها استخدامًا كاملًا في محلِّها الخاص بنحو منفصل، والقدرة على التعبير بها وحدها دون الاستعانة باللغات الأخرى قدر الإمكان، لا الخلط المتعمَّد بينها في أداءٍ يشبه الأداء اللساني لسُكَّان المستعمرات المتخلِّفة التي حاول الاستعمار القضاء على لغتهم الأصلية الفقيرة وغير المستثمَر فيها ثقافيًّا، فصاروا يتحدَّثون بمزيج مضطرب من اللغة الأم ولغة المستعمِر. الواقع الحالي يشير إلى أناس مستواهم اللغوي ضعيف في العموم، سواء أكان ذلك في العربية أم الإنجليزية، بَيْد أن ضعف مستوى التعليم عمومًا واللغة خصوصًا ليس هو الطامة الكبرى، فالمشكلة الأكبر هي الجهل الفخور بذلك، والسير في الغي ظنًّا أنك حين تتحدَّث العربية بمستوى سيئ والإنجليزية بمستوى أسوأ عبر الخلط الرديء بينهما فإن ذلك يعني أنك صاحب مكانة اجتماعية مرتفعة وحيثية ذات شأن، هذا هو عين البؤس، كحال من يَشمُّ رائحة المسك في تغوُّطِه، فأنتَ لستَ فقط مُتدَهوِرَ التعليم، ولستَ فقط جاهلًا بتدهور تعليمك، بل ترى أن تعليمك مرتفعٌ لمجرد أنك تعيش في بيئة تنال غالبيتها خدمات تعليمية أكثر تدهورًا من تلك التي تحصل عليها، بل لعلك لا تدرك ذلك كله وتعيش في حالة سعادة وفخرٍ أبلَهَ يعجز عن تفسير نفسه. حالة تمكن تسميتها بالجربعة المزدوجة لوعي الإنسان بذاته.

الخلط بين العربية والإنجليزية المتعمَّد والغائيُّ، هو جزء من محاولة خلق "لكنة برجوازية" جديدة عبر خلق طريقة للكلام تعبِّر بها عن نفسها وتتميَّز بها

عـن غيرهـا، تختلـط فيهـا العاميـة المصريـة بالإنجليزيـة ذات اللكنـة الأمريكيـة تحديدًا، فتتحـول الميـاه إلى "وارَر"، والزبـدة إلى "بـارَر"، ومعهـا مجموعـة مـن الصوتيـات التـي تُعـبِّر عـن الضجـر والتأفُّـف مـن الوجـود والدهشـة المصطنعـة أو الفَتَاكـة الوَهميَّـة، خلطـة لغويـة صوتيـة تُعـبِّر بالفعـل عـن حـال البرچوازيـة المصريـة حـالًا؛ إذ الهيمنـة الاجتماعيـة بالمـال والنفـوذ لا بالشرعيـة، وهـي حـال تجعـل مشروعهـا الاسـتراتيجي هـو الهـروب وليـس البنـاء، فيصبـح الأبنـاء دائمًـا هـم مـشروع أمريـكان محتملـين، بعضهـم وُلِـد في الولايـات المتحـدة بالفعـل كي يحصـل عـلى جنسـيتها الممنوحـة بالميـلاد، لتصبـح حياتهـم في مـصر أشـبه بالتيـه الـذي يتحـدَّث إلى نفسـه، لا يسـمع إلا صـدى صوتـه داخـل غرفـة مغلقـة. منـذ عـدة سـنوات، نظَّمـت الجامعـة الأمريكيـة في مـصر فعاليـة سُـمِّيَت "الحـارة المصريـة"، تجمَّـع فيهـا الطلبـة ليمارسـوا بعضًـا مـمَّا يمارسـه عامَّـةُ النـاس في بيئتهـم المحليـة، مثـل أكل الكـشري والفـول والطعميـة مـن الباعـة الجائلـين، وكانـت حجَّـة مُنظِّمـي الفعاليـة أن هـؤلاء الطلبـة لم يعرفـوا تلـك الممارسـات قـط، ويعتـبرون زيـارة الحـارات الحقيقيـة أمـرًا صعبًـا وغـير معتـاد، بـل خَطِـرًا في بعـض الأحـوال، يـا لـه مـن مسـتقبل مُظلِـم!

الحاسد إذا حسد والجائع إذ يتذكَّر

يؤمـن المصريـون بالحسـد والسـحر إيمانًـا يخـترق طبقاتهـم الاجتماعيـة ومكانتهـم العلميـة وثقافاتهـم الجِهويَّـة وعقائدهـم الدينيـة، وكل مـا قـد يتخيَّلـه المـرء حصنًـا حداثيًّـا يمتلـك قـدرة الوقـوف في وجـه هـذا الإيمـان، وحـين يتعلَّـق الأمـر بالإيمـان بالحسـد والسـحر لسـنا وسـط الشـعوب الوحيديـن في هـذا السـباق، لكننـا قطْعًـا في المقدمـة، إيمـان المصريـين بالحسـد والسـحر قديـم جـدًّا قِـدَمَ وجودهـم في الـوادي، يسـبق حضارتنـا الحاليـة ولغتهـا ومفرداتهـا، وحـين صـارت العقيـدة الغالبـة في مـصر هـي الإسـلام والمسـيحية اسـتطاع المصريـون إيضـاح مكانـة الحسـد والسـحر داخـل معتقداتهـم الجديـدة، وجعلـوا لهـما مكانـة محوريـة تتناسـب مـع عمـق تأثيرهـما في ثقافتهـم الاجتماعيـة؛ لـذا سـنجد مئـات الكتـب الدينيـة التـي كتبـت خصوصًـا عـن السـحر والحسـد والرُّقيـة، والآلاف مـن المشـايخ نشـاطهم الرئيـس هـو التعامُـل مـع الظاهرتـين.

عمق إيمان المصريين بالحسد والسحر يحتاج في رأيي إلى النظر إلى ما هو أبعد من تأصُّله كثقافة متوارَثَة، فهو يحتاج أيضًا إلى التعاطي مع المجريات الاجتماعية المستمرَّة التي تعيد إنتاج تصورهما، وذلك بالتأمُّل في ثقافة الفقر والحرمان والخوف والنُّدرة التي أحاطت وتحيط بمفردات حياة السَّواد الأعظم من المصريين، وإلى تأصل كثير من القيم والمفاهيم المحافظة التي لا تميل إلى مراجعة نفسها وتشعر بالتهديد المستمرّ من المعاني الجديد الوافدة على حياتها، ولا تستطيع أن تفسِّر بنفسها ظواهر إنسانية واجتماعية جديدة ناتجة عن التحديث، يمكن لها أن تهدد وتهدم أُسُسَ محافظيَّتها، فتُرجع تلك الظواهر إلى السحر والحسد، أمور مثل المَلَل الجنسي بين الأزواج، أو ظاهرة تمرُّد الأبناء في سِنٍّ مُبكِّرة على آبائهم، ويمكن النظر أيضًا إلى الأمر من زاوية تحديد نصيب المشاركة البشرية في المسؤوليات القَدَريَّة والنزوع أحيانًا إلى عدم تحميل الإرادة الإلهية العليا مسؤولية كل صغيرة وكبيرة وكل تفصيلة تافهة في الحياة خوفًا من الوقوع في الكفر، فتفسير أمّ لارتفاع درجة حرارة طفلها الصغير حتى الموت بأنه حسد من امرأة عاقر، أكثر ترجيحًا من اعتبار ذلك الحدث العارض اختبارا من المولى عز وجل لها ولطفلها.

الحسد والندرة والحرمان

في ظنِّي يبدأ الأمر من النُّدرة كشبح حاضر في كل أركان الحياة، النُّدرة التي تجعل من حصول الإنسان على قيمة مادية أو معنوية سببًا في قلقه وليس سعادته، الحياة في محيط من الفقر الذي يجعل الحصول على احتياج أساسي مناسَبَة لهمس الناس أو تساؤلهم عن مصدر ذلك الشيء وملابسات الحصول عليه، لدينا مَثَلٌ دارجٌ يقول "الكحكة في إيد اليتيم عجَبَة"، وإذا كان مدلول هذا المثل هو صيغة مبالغة تشير إلى أن المحتاج إذا ما حصل على محض شيء بسيط نظر الناس إليه بحسد، فالمنظور الأكثر تاريخية يقول بأن أجدادنا غالبًا كانوا في الأصل من المحتاجين، عاش القوام الأكبر منهم في الريف، وكانت حياتهم مُدقِعَة الفقر، كان مستوى من البؤس والتعاسة يصعب تَخيُّله الآن مهما بلغت شِدَّة حياتنا المعاصرة وطأة وفقرًا، ومهما قست علينا أيامنا الحالية قسوةً نَظنُّ أن

ليس بعدها قسوة. لقد ورثنا أطيافًا غير واعية من أثقال ذاكرة ومشاعر تلك الأيام القديمة الصعبة التي عاشها أجدادنا الفقراء، جيلًا وراء جيل، حتى بعد أن تحسَّنَت أحوالنا واستقرَّت. نعم، إنها النُّدرَة وذاكرتها، فإذا كان في بلادنا بعض الخير فيقينًا هو ليس لغالبية أهلها.

ولذلك يحسد المحرومون بعضهم بعضًا إذا ما حصل واحد منهم على شيء، وإذا خسر ذلك المحروم ما كسبه خلسةً واستثناءً تمَّ إرجاع خسارته تلك إلى الحسد مباشرة؛ ذلك أن حصوله على ما حصل عليه هو من الأصل معجزة تحتاج إلى معجزة أخرى تبرِّر فقدانها، فبيننا ناس يشعرون أن حسد الآخرين طالهم لأنهم تناولوا وجبة من البروتين الحيواني، وهناك ناس يجزمون بأن العين فلقت الحجر لأنهم اشتروا مروحة توشيبا وتعطَّلَت بعد سبع سنوات من الإهلاك والاستخدام المفرط، بل إن فرط الحرمان يجعل في بعض الملابسات الشاذَّة مَن يشعر بحسد جيرانه نحو كمية القمامة التي يلقيها على قارعة الطريق. الناس يخشون الحسد لأنهم يحصلون على أشياء شديدة البساطة في بيئةٍ شديدة النُّدرة والحرمان، ستجد فقيراً يخشى حسد جيرانه إن لمحوه عائدًا إلى بيته وفي يده كيلوجرام من اللحم المفروم ملفوفًا في ورق جرائد، لكنَّكَ لن تجد مليارديرًا يخشى الحسد وهو يستعرض -في خُيَلاء- ممتلكاته ويُخوتَه ورحلاته، ففي الأغلب هذا الملياردير لن يخشى شيئًا ميتافيزيقيًا مُبهَمًا اسمه الحسد، لكنه يخشى إلى حدٍّ الرعب شيئًا آخر أكثر تبلورًا وإمكانية، وهو تلك المشاعر التي يمكن لها أن تتحوَّل إلى فِعلٍ ماديٍّ يُشكِّل خطرًا محدقًا ووجوديًا عليه، هذه المشاعر اسمها "الحقد الطبقي".

البسطاء الخائفون دومًا لهم ميكانيزماتهم الخاصة في التعامل مع الحسد المُحتَمَل، تُظهر مدى إحساسهم الشديد بالخطر الناتج عن صعوبات الحياة المادية وقسوتها، فضلًا عن جهلهم بقوانينها بالطبع، فالمرأة التي أُجهِضَت أكثر من مرة أو مات لها أطفالٌ رُضَّعٌ كُثرٌ، في الأغلب بسبب المرض وسوء التغذية أو لعيوب جينية، كانت حين تُرزَق بطفل جديد تسميه الشحات، أو شحاتة؛ كي يعيش وينجو من الهلاك الذي أتى على إخوته السابقين، وربما أسمته اسمًا معيبًا من وجهة نظرها الخاصة، كإعطاء أُسرَةٍ مسلمة اسمًا مسيحيًا لابنها، أو العكس، وكذا المرأة التي تلد ذَكَرًا بعد أن أنجبت عددًا من الإناث، فتُخفي عن الناس ذُكورَةَ ابنها، وتطيل شَعرَه وضفائره، وتُلبِسه ملابس البنات ليظنَّ

الحُسَّاد المحتملون أنه بنتٌ جديدة؛ فتحمي صَبيَّها "الجائزة" من العين، وهي عادة كانت منتشرة في الريف المصري وإن نَدرَت ممارستها هذه الأيام.

تَعدُّد وازدواج الأسماء للشخص الواحد كان أيضًا من أشكال التعامُل مع الحسد، علاقة المصريين بأسمائهم ليست بسيطة وسهلة، لا أستطيع التقوُّل والادِّعاء بعمق تاريخيتها وقدسيتها عندهم، لكن الأكيد أن للأسماء مكانة خاصة في نفوسهم وضمائرهم، والمؤكَّد أن المصريين حين يُمعِنون في التهديد بنحوٍ عنيف فهم يقسمون بمَحوِ أسماء بعضهم بعضًا من الوجود، وحين يُشار إلى شخص مكروه بشدَّة ويتمنَّى الناس زوال وجوده وصفوه بـ"مخفي الاسم"، الاسم أيضًا له خصوصية في علاقة المصريين بالحسد والخوف، خصوصًا في فترة بداية الدولة الحديثة في عهد محمد علي، ففي بعض الأحيان كان المصريون يخفون أسماء أبنائهم وينادونهم بأسماء أخرى في المجال العام، ويحتفظون بأسمائهم الحقيقة داخل المجال العائلي والأسري؛ وذلك خوفًا من الحسد، أو خوفًا من الثأر، أو خوفًا من الحكومة التي ستأتي في طلب تجنيدهم، أو خوفًا من الحكومة عمومًا التي لا يريد الفلاح أن تحتفظ له ببيانات رسمية تُفصِح عن هويته الحقيقية.

ذاكرة الجوع وعدم الإحساس بالأمان

لن أعتبر نفسي وقحًا إذا ادَّعيتُ على الغالبية العظمى من المصريين -وأنا من بينهم- أننا نحمل في أدمغتنا ذاكرةً ما للجوع وعدم الأمان الغذائي، يجري توريثها ثقافيًّا من جيل إلى جيل، ننكرها فتفضحنا في محطَّات بعينها. شخصيًّا، لا أستبعد أن جَدِّي الخامس كان يبيت ليلته دون عشاء، وربما دون غداء، لا يمكنني الجَزمُ بشيء، لا يمكننا جميعًا، لكن يمكننا بالتأكيد أن نلاحظ سلوك رجل من الأغنياء كان أبوه وجَدُّه من الأغنياء ولا يزال معيار إحساسه بالأمان والطمأنينة هو وجبة سمينة دسمة يتناولها في آخر الليل، ليبيت ممتلئًا ومشبعًا.

هناك مشهد متكرِّر لا يقل تعاسة ومأساوية، وهو مشهد البوفيهات المفتوحة في الأفراح والفنادق، وتعاطي المصريين معه بشكل يندى له الجبين، لدرجة تحتاج إلى دراسات متعمِّقة ومُفصَّلة تُحلِّله بقدر كافٍ ووافٍ، ففي الأفراح البرجوازية البرَّاقة وفي صالات الفنادق الفاخرة ذات الخمس نجوم ستجد طوابير من الأغنياء

المُتخَمين بالأكل يوميًا في بيوتاتهم، وهم يتدافعون بالمناكب كي يصلوا إلى حيث توجد أفخاذ الضأن والمشويات والكباب، حاملين معهم أطباقًا عملاقة مكتظَّة بعشرات الأصناف المتراكمة بعضها فوق بعض بشكل هَرَميٍّ، وهو المشهد الذي ينتهي في بعض الأحيان باصطدامٍ غير مقصود بين كرش أحد المدعوِّين ومؤخرة إحدى المَدعوَّات لتنزلق الأطباق الهَرَميَّة من بين أيديهم وتتحطَّم، ويختلط اللحم بالصلصة برُخام القاعة وفُسَيفساء الأطباق المُهشَّمة. لستُ استثناءً بالطبع، أتذكَّر أنني مارست فِعلَةً شنيعة في أثناء إقامتي في أستراليا حين كنت أتناول العشاء في أحد فنادق مدينة سيدني، وكان هناك بوفيه مفتوح يحتوي على السَّلمون المُدخَّن الذي أعشقه، وبكمِّيَّات وفيرة، أَجهَزتُ عليها كاملةً بنفسي، حتى كِدتُ أُشِعُّ نورًا في الظلام من فرط الفوسفور وزيوت الأوميجا التي تناوَلتُها.

يفضحنا أيضًا تراث السينما المصرية حين يقدم علاقتنا بالطعام كعلاقة فانتازيا شبقيَّة، فغالبية الأفلام التي كان محورها ظهور جِنِّيِّ المصباح السحري أو عفريت خاتم سليمان لأحد بُسَطاء القوم مثل أفلام "عفريتة هانم" و"خاتم سليمان" و"الفانوس السحري"، والتي كان يشترط فيها الجِنِّيُّ عند ظهوره تنفيذَ عَددٍ مُحدَّد من الأمنيات لسعيد الحظ صاحب المصباح أو الخاتم- سنجد دومًا أن الأمنية الأولى المطلوب تحقيقها هي الطعام الوفير والمتنوِّع والنادر: صينية عملاقة تحتوي على خروف مشوى أو ديك رومي محاط بشكل دائري بالدَّجاج والحمام المحشوِّ، ثم أنواع الأرز والفريك والخلطة، وفي الأطراف أنواع مختلفة من فواكه الصيف الثَّمريَّة، هذا المشهد يكاد يكون مُكرَّرًا في كل الأفلام تقريبًا، فصاحب الخاتم المحروم جنسيًّا في الأغلب لن يطلب امرأة كأول أمنية، ولن يطلب شيئًا لوطنه أو لأهله، بل لن يطلب المال الذي يستطيع من خلاله فعل أي شيء، فقط صينية الطعام العملاقة المتكدِّسة بأنواع مختلفة من اللحوم المشوية والمحمَّرة.

لسنا جَوْعَى بالطبع، فالطبقة المتوسطة ليست كذلك بالمرَّة، ولا يوجد شيء اسمه بوفيهات مفتوحة لاستقبال الجوعى، بل للافتخار بأصناف الطعام المعروضة وإظهار الكرم في استقبال ضيوف مستورين ماليًّا ولكنهم يتصرَّفون كجوعى محرومين، الأمر لا يتعلق بالفقر على الإطلاق، بل بمشاعر عدم الأمان المتوارثة التي تجعل من تلبية حاجة الإنسان الأساسية وهي الطعام مصدرًا حاسمًا للطمأنينة أو المكافأة، ستجد حتى الآن آباءً ميسوري الحال إذا وجدوا أحد أبنائهم

في حالـة مـن حـالات الكـرب أو الضيـق يزيـدون مـن نصيبهـم مـن البروتـين الحيـواني، عـلى اعتبـار أن هـذا مصـدر مبـاشر لإسـعاد الإنسـان، اللحـم هـو صِنـو السـعادة، لأنـه كيـف سـيدخل الحـزن في بيـت تسـكن اللحـومُ ثلَّاجَتَـه؟

مـا سـبق كان مجـرَّدَ ملاحظـة، ولا يمكـن القفـز مـن خلالهـا إلى نتائـج كـبرى، لكنهـا ملاحظـة ذات دلالـة بالطبـع، عـدم الإحسـاس بالأمـان ليـس شـعورًا فرديًـا بالـضرورة، بـل ربمـا هـو شـعور جماعـي ناتـج عـن تـأزُّم الاجتـماع المشـترك بـين النـاس، فأنـت حـين تعيـش في محيـط واسـع مـن الفقـر سينال هـذا الفقـر منـك بطريقـة أو بأخـرى، إن لم يكـن مـن جيبـك فمـن روحـك ومـن أحاسيسـك. الإنسـان كائـن اجتماعـي في النهايـة، عـدم الإحسـاس بالأمـان ومعـه الخـوف مـن الحسـد هـو إدراك مُركَّـب للنُّـدرة في مجتمعنـا، إدراك لفقـره وتوحُّشـه، إحسـاس عميـق بعـدم الأمـان هـو في مَحلِّـه، وناتِـجٌ عـن الشـعور بـأن كل لحظـة سـعادة أو كل جـرام مـن النجـاح هـو شيء نـادر وسـط محيـط مـن التعاسـة، فقـر الحيـاة وفقـر الخيـال وفقـر النفـوس والإحسـاس بالخـوف الهـادئ المسـتمر والإحسـاس بالذنـب الناتـج عـن عـدم الاسـتحقاق ونـدرة الجوائـز، وإحسـاس الخطيئـة المصاحـب للحصـول عـلى أي متعـة وسـط محيـط مـن البـؤس والحاجـة مهـما كانـت بسـيطة.

مأساة النِّيش المصري الحديث

تاريـخ العِصاميَّـة والجربعـة ليـس مقصـورًا عـلى صراع بـين قِيَـمٍ ومعـانٍ كـبرى، وليـس فقـط تاريخًـا لمحطَّـات الـصراع الطبقـي البـارزة، لكنـه أيضًـا تاريـخ علاقتنـا بعدد مـن التفاصيـل البسـيطة والدقيقـة في حياتنـا، التـي يمكـن الاسـتدلال منهـا عـلى مسـار تاريـخ الصعـود الاجتماعـي في مـصر، والـدَّور الـذي تلعبـه تلـك التفاصيـل في تشـكيل تصوُّراتنـا عـن معـانٍ أعمـق ترتبـط بتصوُّراتنـا عـن تغيـير شروط حياتنـا للأفضـل.

سـأحاول أن أكـون أكـثر تحديـدًا وأضرب مَثَـلًا بتفصيلَـةٍ أعتقـد أنهـا سـتَمسُّ وجـدان كل قـارئ، خاصـة وأنـه أحـد تفاصيـل أثـاث بيـوت الطبقـة الوسـطى المصريـة، لأنـه مَـن مِنَّـا لم يمسسـه النِّيـش؟ مَـن مِنَّـا لم يسـمع عنـه؟ كـم مِـن عِـصِيٍّ وشباشـب نَدَبَـت أجسـاد أطفـال حاولـوا العبـث بمحتوياتـه أو مجـرَّد اكتشـاف مـا فيـه، أو تجرَّؤوا وركلـوا الكـرة فكسـروا زجـاج واجهتـه؟ مَـن مِنَّـا لم يَخَـف النيـش وقـد أذلَّ مِـن قَبْلِنـا

أعنـاقَ الرِّجـال؟ كـم مِنَّـا آمـن بمركزيـة أهميتـه مـن بـين كل قطـع أثـاث البيـت؛ احترامًا وطاعـة لمكانتـه الجليلـة عنـد أمهاتنـا؟ ومَـن منَّـا تمـرَّد وشـقَّ عصـا الطاعـة مبكِّـرًا وبـدأ رحلـة الشـك في جـدوى وجـوده؟ ومَـن منَّـا لم يسـمع عـن مركزيتـه المُقدَّسـة في المفاوضـات الشـاقَّة التـي تسـبق توقيـع اتفاقيـات "الجنـس مقابـل السـلام" المعروفـة إعلاميًّـا باسـم "الـزواج التقليـدي المـصري".

لكـن قبـل أن أُدخِـل يـدي مبـاشرة في عُـشِّ الدبابـير وأتشـجَّع للحديـث عـن النيـش -قـدَّس اللـه سِرَّه- سـأحاول في البدايـة الحديـث عـن التاريـخ القريـب لعلاقتنـا بالقيمـة التـي اكتسـب منهـا النِّيـش قَداسَـتَه، وهـي قيمـة الاقتنـاء الجـمالي. لـو عُدنـا مـرة أخـرى إلى زمـن الباشـا الكبـير محمـد عـلي، وهـو الزمـن الـذي بـدأت منـه الذاكـرة الحَيَّـة الفعليـة للسـواد الأعظـم مـن المصريـين، يُحدِّثنـا بعـض مُؤرِّخـي التاريـخ الاجتماعـي والاقتصـاد الزراعـي عـن أن الزمـن الـذي سـبقه مبـاشرة لم تكـن فيـه لـدى غالبيـة الفلاحـين المصريـين قُـدرَةٌ عـلى اقتنـاء أي شيء (راجـع الفصـل الأول).

في المـدن -حيـث الأمـور أفضـل بالتعريـف- كان معنـى الاقتنـاء مرتبطًـا بالإخفـاء وليـس الاسـتعراض، فـما يقتنيـه الإنسـان لا يظهـر إلا للأعـزَّاء جـدًّا، وفي ملابسـاتٍ مُعيَّنـة، لم تكـن في البيـوت قطـع أثـاث لعـرض المقتنيـات الثمينـة إلا ربمـا في منـازل كبـار التجـار والأعيـان، والغالبيـة العظمـى مـن النـاس كانـت تخبِّـئ أي مقتنـى ثمـين؛ لغُلـوِّ سـعره، أو لنُدرَتِـه، أو لقيمتـه الإنسـانية الخاصـة عنـد صاحبـه، إنـه صنـدوق سـحري خـاص وكبـير يوجـد في مخـادع وحجـرات نـوم أصحابهـا أو مُخبَّـأ في أماكـن خاصـة جـدًّا.

فـما هـو النيـش إذًا؟ كيـف ظهـر ولمـاذا وفي أيِّ مُلابسـات؟ يظـنُّ البعـض أن تغيـير نمـط المعـمار السـكني وتخطيـط المنـازل في الداخـل لعـب دورًا رئيسـيًّا في تغيـير نمـط الأثـاث المنـزلي نفسـه، ومـا رافـق ذلـك مـن تغيـير لعـدد مـن العـادات والتقاليـد الاجتماعيـة، أهمهـا: انحسـار ثقافـة الفصـل بـين الجنسـين وبدايـة الاختـلاط داخـل البيـوت وخارجهـا، وشـيوع التَّـزاوُر الـدَّوريِّ بـين العائـلات المختلفـة، وإعـداد مـآدب طعـام للضيـوف بعمـل مشـترك، وإحـلال البلكونـات محـلَّ الشرفـات القديمـة، وظهـور مفهـوم حجـرة الصالـون وحجـرة السـفرة، ومعهـما فكـرة اسـتعراض المقتنيـات نفسـها لتكـون عـلى مـرأى أعـين الزائريـن.

ظنّي -والله أعلم- أن النيش كقطعة أثاث داخل البيوت الثريَّة المصرية هو جزءٌ من محاكاة أنماط مُعيَّنة من الأثاث الأوروبي، ولا سيما الفرنسي والإيطالي، وتبنِّي مفهوم الاقتناء الاستعراضي في الأوساط الغنية، وعرفها المصريون أكثر مع زيارة الفلاحين وصغار الموظفين سرايات الأعيان الذين راكموا ثروات خلال القرن التاسع عشر، وهناك شاهدوا في غُرَف الضيافة والاستقبال منصَّاتٍ خشبيَّةً زجاجية توضع فيها تُحَفٌ وأسلحة أو منحوتات، وغيرها من أشياء تبدو في العموم عزيزة وثمينة، بصرف النظر عن إدراكهم لماهيتها أو قيمتها.

ومع تحسُّن أحوال المعيشة واتِّساع الطبقة الوسطى المدينيَّة، أصبح لدى الوافدين الجُدُد البحبوحة والاستقرار المالي والرغبة في محاكاة هذا الشيء الذي تعرَّفوه في بيوت الأغنياء، لكن عوام العصاميين أو الجرابيع الصاعدين الجدد لم تكن لديهم قيمة أصيلة لاقتناء الجَمال في حد ذاته بالشكل الذي يعرف به الأعيان مفهوم "التحفة"، فتعريف التحفة يأتي بعد توافُقاتٍ ثقافية بعينها على تثمين شيء ما لسبب يتجاوَزُ كونه معدنًا نفيسًا قابِلًا للتسييل المالي، فعلى سبيل المثال: اقتناء نسخة أصلية من كتاب "وصف مصر" شيء لا يمكن الاحتفاء بِملكيَّته وإبرازه وعرضه إلا داخل أوساط ودوائر على مستوى معيَّن من المعرفة والاطِّلاع، تعرف قيمة الكتاب ووزنه التأسيسي.

يحتاج الإنسان إلى تراكُمٍ ماليٍّ وثقافي ومعرفيٍّ طويل وإحساس عميق بالأمان والكرامة والتفرُّد؛ كي يتكوَّن لديه استعداد لاقتناء تحفة نفيسة قيمتها تحيل إلى ذاتها. لعقود طويلة -أعتقد أنها مستمرَّة حتى لحظتنا- يظل مفهوم القيمة لدينا- نحن أحفاد الفلاحين من عصاميِّين وجرابيع- مفهومًا استعماليًّا بالأساس، أو قيمة تبادُليَّة سهلة لسِلَعٍ قابلة للبيع والشراء، مسألة أن يُراكِمَ الإنسان مالًا ومعرفة إلى حَدٍّ اقتناء شيء نادر وغالي الثمن والقيمة الثقافية إلى الحد الذي يمكنه من تعريفه بأنه تحفة، هو تَرَفٌ غير مقبول حتى الآن لدى القطاعات الأوسع من أبناء الطبقات الوسطى المصرية، فضلًا عن أن التجارب الإنسانية لغالبية المصريين ليست بالثراء الذي يسمح بأن يحتفظ الإنسان بذكرى قيمة منها، ربما أشياء قليلة من رائحة الأب أو الأم، ليست بالضرورة نفيسةً بقدر ما كانت لها قيمتها الخاصة عند أصحابها، معظمنا ليس من محبِّي السفر والمغامرة واقتناء هدايا الذكريات من ترحالاتنا، فما زال السفر مرادفًا للشقاء والغربة لدى

الغالبيـة العظمـى مـن النـاس. الخلاصـة أن غالبيتنـا ليسـت لديهـا ذكـرى مغانـم مـن التجـارب في الحيـاة، بـل غالبًـا كنّـا نحـن الغنيمـة.

لـذا حـين اقتنينـا النيـش، اقتنينـاه كقطعـة أثـاث مـن دون أن نعـرف مـا سـنقتني داخـل أسـواره الزجاجيـة، فأصبـح مكانًـا لأطقـم الأطبـاق الصينيـة التـي تَرِثُهـا البنـت عـن أمهـا مـن دون اسـتعمال، لقـد صنعنـا تحفنـا الخاصـة عـبر تحويـل بعـض قطـع الأثـاث الاسـتعمالية إلى تحـف، فكانـت أطقـم الصينـي المقدسـة التـي لم ولـن يمسـها مخلـوق. النيـش أصبـح مكانًـا لتُحَـفٍ تصـف حـدود حياتنـا البسـيطة، أطبـاق قيمتهـا الحقيقـة تكافـئ مقـدار خوفنـا مـن كسرهـا، أطقـم متعـدِّدة لكـؤوس بأشـكال مختلفـة لنـاس لا تـشرب الخمـر، مصاحـف مزخرفـة، أطقـم للچيـلي، أطقـم فناجـين الشـاي البيضـاء لشـعب يقـدِّس احتسـاءه في أكـواب زجاجيـة صغـيرة، أطقـم الخشـاف المخصَّصـة لأكل الخشـاف فقـط، شـمعدانات كريسـتال بـلا شـموع، سلاسـل أعـمال القرطبـي وابـن كثـير والشـعراوي خـضراء اللـون وقـد تراكـم عـلى كعوبهـا الـتراب، وأشـياء أخـرى لا نَسـأل عنهـا وإنْ بَـدت لنـا، ومـع تغطيـة أبـواب النِّيـش أحيانًـا في بعـض البيـوت بمفـارش بيضـاء تحجـب رؤيـة مـا في داخلـه خوفًـا مـن الحسـد والـتراب، فينتفـي معنـى النيـش نفسـه كواجهـة للاسـتعراض، في لقطـة مُحـيِّرة يصبـح معهـا وجـوده بـلا هـدف.

عـلى الرغـم مـن كل شيء لا يمكـن اعتبـار وجـود النيـش في حـد ذاتـه تجلِّيًـا فجًّـا مـن تجليـات الجَربَعَـة، بـل هـو مجـرد تفصيلـة صغـيرة وصادقـة مـن حزمـة تفاصيـل أدقَّ تُعـبِّر عـن علاقتنـا المرتبكـة بالتحديـث ورحلتنـا الطويلـة معه، عـن موقـع تصوُّراتنا عـن الجَـمال والزينـة والفخـر والقيمـة داخـل هـذا العـالم الحديـث، مـاذا نعـرض وبمـاذا نسـتعرض ولمـن نسـتعرض، في ضـوء أفـق تجربتنـا في الحيـاة وحـدود قدراتنـا الاقتصاديـة والثقافيـة، لكنهـا في النهايـة تظـل طريقتنـا ورحلتنـا نحـن التـي لم يكـن النيـش فيهـا عنـصر إدانـة لهـا، بـل قطعـة أثـاث يمكـن التأمُّـل في تاريـخ اسـتخداماتها وأصـل وجودهـا لـكي نتتبَّـع تاريـخ محاكاتنـا للبرچوازيـة والأعيـان، وكيـف تطـوَّرَت هـذه المحـاكاة لتنتـج مفهومهـا الخـاص المنفصـل عـن الأصـل المقلَّـد، فتحوَّلَـت إلى شيء جديـد بالكامـل يحـكي قصـة الوافديـن الجُـدُد ورحلـة علاقتهـم بالمعـاني المُكتَسَـبَة.

الجانب الجربوع في رحلة النيش المصري يكمن في جهل الأسرة المصرية التي تضع سعادة بناتها في كفَّة والنيش في كفَّةٍ أخرى، وتُفسد أحيانًا زيجاتٍ مُحتَمَلةً بسبب النيش -قدَّس الله سرَّه- فالأم القَلِقَة الرؤوم تظن أن النيش تقليدٌ عريق ورثته هي عن أجدادها الأكابر الأوَّلين، تقليد لا تمكن مخالفته وإلا انهارت الحضارة واختلَّت الموازين وخرجت هي من طبقتها الاجتماعية مُكلَّلَةً بالعار. الأم تجهل أن جَدَّها لم يكن يعرف معنى النِّيش في الغالب شأن غالبية الفلاحين الذين كانت قِلَّة منهم فقط تحاول الالتحاق برَكب الأعيان عبر امتلاك هذا الدولاب الزجاجي المملوء بالأشياء الزجاجية. علاقة النيش بالجربعة هي تقديس المِلكيَّة والاستعراض بصرف النظر عن ماهية الشيء المملوك وقيمته الفعلية، ولو وصل الأمر إلى حدٍّ خلق قيمة استثنائية لأطقم من الأكواب الزجاجية.

علاقة النيش بالاستعراض والجمال تشبه علاقة المجتمع بالعلم والتعليم؛ فهو يقدِّس التعليم ويحتقر العلم ويخافه، وبالمثل؛ فالنيش هو تقديس الملكية والاقتناء واحتقار الجمال وإهماله كقيمة في ذات الوقت، والأمر تطوَّر في عبثيَّةٍ لاحقة إلى اعتبار قوة النيش وقيمته تكمن في كونه لا قيمة له غير أنه تعبير عن الإهدار الكريم للمال، والاستعداد للتضحية المادية مقابل تحقيق الصعب ونَيْل مغنم الجنس مقابل السلام، أصبح معنى النيش الحقيقي يكمن في لا معناه. أمر شديد العبثية!

شَعبٌ بلا كتالوج أم غُربَة جماعيَّة؟

"يعيش أهل بلدي وبينهم مَفيش
تعارُف يخلِّي التَّحالُف يعيش
تعيش كل طايفة.. من التانية خايفة
وتنزل ستاير بداير وِشِيش
لكن في الموالد.. يا شعبي يا خالد
بِنتلَمّ صُحبَة.. ونِهتِف يعيش...".

....

أحمد فؤاد نجم، 1967.

ما أوردته سابقًا في هذا الفصل لا يعدو أكثر من ملاحظات اجتماعية بنت خبرتي الشخصية كمواطن مصري مهتمٍّ بالشأن الاجتماعي والثقافي المصري، فأنا لا أمتلك جرأة إطلاقَ مسمَّيات هويَّاتية على الشعب المصري أو إعلان سِماتٍ أصيلة له؛ لِما أراه في ذلك من تجسيدٍ لأزمة تناول العديد من المثقفين للمشكلات والمسائل العامة؛ إذ يستسهلون إطلاق تصريحات كلِّيَّة الطابع من نوع إن "الشعب المصري" كذا وكذا بهكذا. جمع وشمول.

كثيرًا ما تتردد على مسامعنا في السنوات الأخيرة خاصة بعد ثورة يناير 2011 جملة في حقِّ الشعب المصري تَصِفه بأنه "شعب عظيم بلا كتالوج"، وهي مقولة نسمعها من كثيرين في معرض التعليق على حوادث تبدو لهم غريبة، أو سلوكيات تبدو لهم غير مُتوقَّعة، وعادة ما يصاحب هذه المقولة شعورٌ ما بالافتتان والدهشة والضآلة أمام هذه الكينونة الكلية العملاقة والأعظم من أن تكون مفهومةً، واسمها "الشعب المصري"، أما إن كانت الحوادث محلَّ التعليق غريبة بالمعنى السلبي أو مخيفة في وَقعِها على النفوس فسينتقل صاحب التعليق من مساحة تمجيد الكتالوج المفقود إلى سَبِّ الكينونة الكبرى المسمَّاة شعبًا، والتي لن تكون وقتها مجهولةَ التركيب، بل سيجري تعيينها سريعًا كجماعة من الهَمَج والبرابرة ناقصة الأهلية والتحضُّر لا تستحقُّ إلا الجَلد بالكرابيج كي ترتدع ويستقيم مسارها، ويتحوَّل فجأة العملاق العظيم إلى غول مرعب يجب إخضاعه بالضرب.

الشعب -كمعنى في الوعي البرجوازي المصري- عظيمٌ جدًّا أو حقير جدًّا، وكلما زادت حِدَّة رؤية العَظَمة أو الحقارة زادت علاقة هذا المعنى بالوعي البرجوازي التهابًا وضبابية وتشوُّشًا، وقداسةً بالطبع، وكلما كان معنى "الشعب" أكثر كُلِّيَّة واحتواءً للوجود السكاني الذي يُشكِّله زادت التناقضات التي يحملها هذا المعنى واشتدَّت حِدَّة زوايا الرؤية عند النظر إليه، فمحاولة تَصوُّر وجود سمات جامعة لما فوق الـ 100 مليون إنسان بتنوُّعاتهم المختلفة، بل وتصوُّر أصالة هذه السمات ورسوخها لآلاف السنين إلى حدٍّ وصف ذلك كله بالهوية الجامعة، هو أمرٌ في الغالب سيصيب صاحب هذا التصوُّرَ بالإحباط إذا ما أخضعه لأي اختبار حُرٍّ دقيق، ومن هنا سيصبح الفعل الجماعي الحميد لمجموعة من السكان في لحظة بعينها حدثًا عظيمًا واستثنائيًّا لجَماعةٍ نفخر بالانتماء إليها اسمها "الشعب"، ولو كان ذلك الفعل الجماعي لمجموعة من السكان فِعلًا مُشينًا سيصبح عارًا همجيًّا لا يُمحى لجماعة تتنصَّل منها اسمها الشعب أيضًا.

حدود الإشكال في ظني تتَّسِع لما هو أكبر من ذلك، فماذا لو كانت التصوُّرات الذهنية الأساسية التي يتكون منها معنى الشعب تتَّسِم بالبساطة والمباشرة والتصنيفات الحَدِّيَّة والمُقَولَبَة؟ وقتها سنحتاج إلى رواية وطنية تتَّسِم بنفس مستوى البساطة والخِفَّة والمباشرة، وربما الابتذال؛ كي تستطيع تسكين معنى الشعب هذا في داخلها. في حالتنا ترتكن رواياتنا الوطنية المباشرة في معظم فصولها إلى ثنائيات درامية مباشرة: الخير في مواجهة الشَّرِّ، الإيمان في مواجهة الكفر، الأصيل الذي خانه الخسيس، ابن البلد الجَدَع الذي يهبُّ لطرد الخواجة الخِرِع، وهذه الثنائيات جميعًا تحتاج إلى عناصر درامية بنفس القدر من البساطة والحِدَّة كي تسكن داخل خطوطها الدرامية، حيث الشخصيات المباشرة والمُبتَسَرة قادرة على تحويل الملحمة إلى حدوتة، في عملية مباشرة ورديئة تشبه مسلسلات الساعة السادسة على القناة الثانية في الزمن الغابر؛ إذ كان يُصنع الصعيدي ويُختَصر كمَحضِ كائنٍ جَدَع وغيور وسريع الغضب، والنوبي يُرسَم كشخص طيب ومبتسم دائمًا بأسنان بيضاء، والمسيحي صديق المسلم المسالم، وسيطلق عليه مكرم، الفلاح الفصيح الماكر، البورسعيدي كثير الكلام، المثقف ذو النظارة الطبية والعُقَد النفسية، الأطفال شديدو الذكاء والفصاحة والعبقرية الذين سيتحوَّلون لاحقًا إلى أغبياء طبيعيين، الأم الرؤوم منهمرة الدموع... وهكذا دواليك من صُوَر

تُصدِّرها مـواد دراميـة متفاوتـة المسـتوى تَنتَـجُ مـن إعـلام تتَّسِـم ذهنيَّـةُ خطابـه الوطنـي بالمحدوديـة والابتـذال.

بالطبـع تُشـكِّل الصـور النمطيـة الذاتيـة جـزءًا رئيسـيًّا مـن أوهـام أي أمَّـة عـن نفسـها، أوهـام التأسـيس والاسـتحقاق ولُحمَـة الجماعـة المنصهـرة في سـبيكة الوطـن، هنـاك درجـات ومسـتويات مختلفـة مـن التنميـط تشـكِّل معًـا مـا يشـبه جبـل الثلـج، الظاهـر مـن قمتـه هـو التنميـط الـدارج، والغاطـس منـه هـو قاعـدة مـن التنميطـات المركَّبـة التـي يعشـقها المثقفـون، ومـن خلالهـا يعيـدون إنتـاج الصـورة الجماعيـة في عصـور مختلفـة، لكـن في العمـوم فـإن البرچوازيـة لا تسـتطيع إنفـاذ هيمنتهـا عـلى المجتمـع بفئاتـه المختلفـة إلا بتسـييد مسـتويات الصـور النمطيـة تلـك، حتـى يتبنَّـى المجتمـع تصوُّراتهـا تلـك عـن نفسـها أو عـن ذاتـه، وكلـما كان هـذا التبنـي سلسًـا وبَدَهيًّـا كانـت الهيمنـة البرچوازيـة أكـثر نجاحًـا وسلاسـة وطبيعيـة.

لكـن إرسـاء الروايـات البسـيطة عـلى نطـاق واسـع يحتـاج أيضًـا إلى مواطنـين بـلا تجربـة، عيشـتهم بسـيطة جـدًّا ومُملَّـة، مواطنـين لا يلتقـون إلا مسرعـين وضَجِريـن في زحـام الشـوارع، تجربتهـم يحيطهـا الخـوف والقلـق وعـدم الرغبـة في اخـتراق حـدود حياتهـم المحـدودة لمـا هـو أبعـد منهـا ولا محاولـة فهـم مَـن هـم خارجهـا، فيعيـش مواطنـون في أحيـاء ولديهـم صـور نمطيـة غالبهـا خاطـئ أو مُبتَـسَر عـن سـكان مناطـق أخـرى يجاورونهـم بعـدة مئـات قليلـة مـن الأمتـار في أحيـاء أكـثر فقـرًا أو هامشـية أو العكـس، فيصبـح السُّـكَّان مغتربـين بالمعنـى المـادي بعضهـم عـن بعـض، ويعـزِّز الخـوف والريبـة مـن غربتهـم تلـك فتصبـح مُسـوِّغَها ومُبرِّرَهـا، بحيـث تحـل الصـور النمطيـة المُنتَجَـة باسـتمرارٍ مَحـلَّ التجربـة الغائبـة، وتنشـأ مـن خلالهـا شـفرات في التعامُـل الاجتماعـي المُتبـادَل، أساسـها الحـذر ونـزع الأَنْسَـنَة عـن الآخَـر لصالـح تصـوُّرات مُتبادَلـة أساسـها التَّشـيِيء والريبـة.

أين كان يتعارف أهالي البلد؟

مسـاحات التعـارف المفتوحـة بـين الفئـات المختلفـة لسـكان مـصر كانـت شـديدة المحدوديـة، وغالبيتهـا مؤقَّـت وغـير ديناميـكي، أو محكـوم بأُطُـر شـديدة النظاميـة، فلقـد اعتـاد المصريـون التعـارُفَ بعضهـم عـلى بعـض بالمعنـى المـادي للكلمـة في

أثناء تأديتهم للخدمة الإلزامية في القوات المسلحة، في الخدمة العسكرية تتلاقى الطبقات الاجتماعية والمناطق الجِهَويَّة، سيسمع المُجنَّد كل لهجات مناطق الجمهورية، وسيكتشف كثرتها وتنوُّعَها عوضًا عن تلك المكرَّرة بنحوٍ نَمطيٍّ في وسائل الإعلام، سيلتقي أبناء طبقات اجتماعية شديدة التفاوت يفرز بعضهم عن بعض طول مدة الخدمة بين جندي المؤهِّلات العليا وجندي المؤهِّل متوسِّط وجندي العادة، والوساطات بالطبع، لكن التعارُف في القوات المسلحة لا يكفي لتكوين خبرة اجتماعية حرة مشتركة؛ فالجيش في الأخير هو مؤسسة انضباطية مَهمَّتها جعل كل هؤلاء متشابهين في المهمَّات والسلوك والزي في أثناء خدمتهم؛ لذا فالخدمة العسكرية على الرغم من أنها ساحة تعارُف بين مكوِّنات مختلفة فهي في ذات الوقت ساحة لتذويب تلك الاختلافات وإخفائها.

المكان الآخر الذي اعتاد فيه المصريون بمختلف فئاتهم التلاقي بنحوٍ طَوعيٍّ وحُرٍّ -ولكن على نطاق أضيق- كان ملاعب كرة القدم وقت أن كانت الكرة للجماهير، خاصة بعد عودة النشاط الكروي في مصر بعد هزيمة 1967 بمنطق الاستثمار في كرة القدم كمنحة تسلية وترفيه تهديها الدولة لجماهير الشعب، وترعاها كواحدة من المُتَع الرخيصة القليلة المكفولة للمصريين، فالمواطن كان يذهب لمشاهدة أفضل لاعبين في القارة الإفريقية في استاد القاهرة مقابل جنيهين أو ثلاثة، وكانت هناك مدرَّجات خاصة لمُجنَّدي القوات المسلحة، وكانت المباريات تُلعَب بعد موعد خروج الموظَّفين وأطفال المدارس مباشرة، وكانت حلوى الملاعب ومشروباتها رخيصةَ الثمن وفي متناول البسطاء. كفالة الدولة لرخص وشبه مجانية مشاهدة رياضة كرة القدم كانت لها أبعادها السياسية والاجتماعية، بحيث يمكن اعتبارها جزءًا من رعاية الدولة اليوليويَّة لمحدودي الدخل، خاصة مع تطوُّر تقنيات البث التلفزيوني. كل ما سبق -ولأسباب متنوِّعة- صار من الماضي الآن، ومن دون الخوض في كل التفاصيل والمُلابَسات والأسباب، لم يَعُد استاد كرة القدم مكانًا لتلاقي المصريين بتنوُّعاتهم، فكرة القدم في تاريخ كتابة هذه السطور أصبحت محرومةً من جماهير ملاعبها.

يمكن اعتبار ساحات الجامعات المصرية حتى عقدَيْن مَضَيَا مجالًا مهمًّا وحاسمًا للتلاقي بين فئات سكانية متنوِّعة، صحيح هي ليست بنفس تنوُّع وثراء التلاقي الذي يحدث في الخدمة العسكرية، لكنه كان تلاقيًا من نوع مختلف،

ففـي الجامعـات المصريـة -ولعقـود امتـدَّت مـن الثلاثينـات وحتـى التسـعينات- صِيغَ مُعظَـم الروايـات والجـدالات المُهَيمِنـة في مـصر وتحـدَّدَت الأولويـات الخطابيـة، وظهـر واختفـى معظـم التيـارات السياسـية والفكريـة المنبثقـة مـن قلـب التيـار الرئيـسي للوطنيـة المصريـة، وفي ظـل نظـم سـلطوية غـير ديمقراطيـة تنـزع إلى خلـق وجـود شـعبي ثقيـل الحركـة سـاكن الفعـل ضعيـف التنظيـم؛ تصبـح هنـاك حاجـة فعليـة لحـصر الجـدل العـامّ قـدر الإمـكان في محيـطٍ ضيِّـق بـين جماعـات متشـابهة في سـماتها الاجتماعيـة والثقافيـة، بحيـث تنتـج تلـك الجماعـات خطابًـا مهيمنًـا وتصـدِّره للباقـين، بنحـو يمكننـي أن أغامـر بالقـول وأسـمي الخطـاب الـذي ظـلَّ مهيمنًـا في مـصر حتـى عقديـن مضيـا بخطـاب "متعلِّمـي جامعـة القاهـرة" حيـث تلتقـي التيـارات السياسـية المختلفـة ونُخبَـة الوافديـن المتعلِّمـين مـن الأقاليـم، ليُشـكِّلوا معًـا مَـن سـينظر إليهـم كنخبـة وقـادة المسـتقبل.

نَخْرُ المتون القديمة

استجدت عـدَّة أمـور في السـنوات العشريـن الماضيـة جعلـت مـن وجـود قلـب صُلـبٍ جماعـي مُهَيمِـن عـلى الجـدل والوعـي والخطـاب مسـألة شـديدة الصعوبـة، وربمـا مسـتحيلة، أصبحـت المتـون "مخوَّخـة"، وأتـت الهجـمات الشرسـة مـن هوامشـها، وكان مـن أهـم العمليـات التـي سـاهمت في نخـر المتـون القديمـة هـو تنويـع مراكـز الثِّقَـل الإعلاميـة والتعليميـة، التـي رافقهـا دخـول الإنترنـت المنـزلي وشـيوع اسـتخدامه، وصـولًا إلى لحظـة انـدلاع ثـورة ينايـر 2011 ومـا ترتَّـب عليهـا مـن صدمـة تـلاقٍ اجتماعـي كبـير عـلى أرضيـة تغيـير سـياسي ضخـم، تلاقيًـا حـرًّا وجـادًّا ليـس خاضعًـا للانضباطيـة العسـكرية النظاميـة، ولا لجماعيـة الترفيـه والمرح المُصاحِـب لكـرة القـدم.

فعـلى المسـتوى الإعلامـي لم يوجـد في عـصر مـا قبـل الأقـمار الصناعيـة إلا عـددٌ مُحـدَّد مـن قنـوات التليفزيـون الأرضيـة ومحطـات الراديـو الحكوميـة، تبـثُّ مـادَّةً مُوجَّهـة لجميـع المواطنـين في نفـس الوقـت وفقًـا لبرنامـج محـدد، وكانـت هـذه الصيغة سـببًا في إيجـاد العديـد مـن المشـتركات الثقافيـة بـين الناس، فهـم في الغالب يسـتهلكون نفـس المـادة الإعلاميـة وتصـل إليهـم نفـس الرسـالة مـن نفـس المصـدر؛ وهـذا كان كافيًـا لجعـل حـدود الجـدل والخيـال معيَّنـة بوضـوح ومتوقَّعـة الآفـاق. تغـيَّر هـذا

الوضـع تمامًـا مـع تنـوُّع المصـادر الإعلاميـة وامتـلاك النـاس أطبـاق الاسـتقبال، وتمَكُّنهـم مـن متابعـة قنـوات فضائيـة تبـثُّ موادهـا مـن خـارج الحـدود المصريـة، سـواء أكانـت ناطقـة باللغـة العربيـة أم بلغـات أخـرى، وصـارت للنـاس حريـة تحديـد برنامجهـم الإعلامـي الخـاص وميولـه وتخصُّصاتـه؛ وبذلـك انفتحـت أبـواب جديـدة ومتنوِّعـة للجـدل والخيـال، وتـمَّ تدريجيًّـا العبـور فـوق الخطـوط الحمـراء السـابقة للنقـاش العـام مـن أجـل تعيـن خطـوط جديـدة أكـثر رحابـة، وبـدأ النـاس يسـتمعون لأصـوات جديـدة ولهجـات مختلفـة، وبـدأت الوثائقيـات تنبـش في صفحـات مـن التاريـخ لم يكـن مـن المعتـاد التطـرُّق إليهـا إلا بحـذر وتقديـس، ودارت عَجَلَـةُ الجـدل بالتدريـج.

بالتَّزامُـن، ومـن دون خُطَّـة مسـبقة، تراجَعَـت المكانـة المركزيـة للجامعـات المصرية الرئيسـية لصالـح الجامعـات الخاصـة والجامعـات الأمريكيـة والألمانيـة، أو عـلى الأقـل بـدأت في مزاحمتهـا، وذلـك في نفـس الوقـت الـذي زاد فيـه اسـتخدام المصريـن لشـبكة الإنترنـت وتعرُّفهـم مـن خلالـه عـلى مجـالات جديـدة للتواصُـل السـيبراني غـير الخاضعـة للمراقبـة أو الحـصر، هـذه العوامـل مُجتَمِعَـة سـاهمت في خلخلـة الوضـع السـابق للجامعـات المصريـة كمركـز للجـدل السـياسي والعـام، والخاضـع في ذات الوقـت لأنمـاط الرقابـة الانضباطيـة الحركيـة والرمزيـة، فمسـاحات الجـدل اتَّسَـعَت لتصبـح بـن أفـراد شـديدي التنـوُّع والخلفيـات، وتفاعلهـم افتراضيًّـا غـير مـرئي أو محكـوم، وسـمحت الحالـة الجديـدة التـي خلقهـا التدويـن الحُـرُّ عـلى الإنترنـت وتوافُـر مصـادر معلوماتيـة ومعرفيـة لم تكـن متاحـة مـن قبـل، وكذلـك مـواد مصـوَّرة وتوثيقيـة أكـثر جاذبيـة وإثـارة، مـن دفـع الجـدل السـياسي والدينـى والأخلاقـي إلى آفـاق أكـثر شـجاعة وحماسـة، وذلـك في تطـوُّرٍ غـير مسـبوق لم تعرفـه مـصر مـن قبـل تحـت ظـل دولتهـا الحديثـة التـي اعتـادت السـيطرة عـلى الإعـلام والتعليـم بإحـكام.

عـشر سـنوات منـذ بدايـة الألفيـة الجديـدة كانـت كافيـة جـدًّا لخلـق عـالم جديـد بمفرداتـه الجديـدة، هـو ابـن للتحـوُّلات الاجتماعيـة والإعلاميـة والتكنولوچيـة التـي طـرأت عـلى الواقـع المـصري، تحـوَّل الجَـدَلُ الافـتراضي والحـركات المحـدودة الوليـدة -بالتراكُـم- إلى زَخَـمٍ جبَّـار، مَهَّـد الطريـق إلى ثـورة ينايـر 2011 كواحـد مـن أهـم المنعطفـات السياسـية والاجتماعيـة في التاريـخ المـصري الحديـث، ولا يمكـن حتـى لحظتنـا المعـاصرة تَصَـوُّر أثـر ثـورة ينايـر 2011 في وعينـا المعـاصر، الأمـر أكـبر مـن أن يصـاغ في فصـولٍ أو كتـب، يكفـي أن إدراكنـا الجمعـي لاجتماعنـا العـام كمصريـن

أصبح يـؤرَّخ لـه بمـا قبلـه ومـا بعـده. ظهـرت جماعـات جديـدة وانـزوت أخـرى قديمـة، واختلـط الكثـير مـن الأوراق، ومـا زِلنـا في مرحلـة التيـه الـذي يَعقُـب اللحظـات الجِسـام العظمـى في التاريـخ.

خلَّفَـت ثـورة ينايـر وراءهـا عالمًـا أمـسى قديمًـا في وعـي كل المعاصريـن، يُشـار إليـه بالمـاضي أو "زمـان"، حتـى لـو كان المقصـود عَقـدًا واحـدًا مـضى، وعـلى الرغـم مـن كونـه قديمًـا لم نكتشـف بعـد كل عنـاصره ولا تركيباتـه كي نفهـم لحظتنـا المعـاصرة التـي هـي نتـاج تفاعُلاتـه هـو، أصبـح المصريـون بعـد ينايـر يطلـق عليهـم أنهـم شـعب بـلا كتالـوج لأنهـم أصبحـوا شـعبًا موجـودًا مـن الأصـل، يتحـرَّك بشـكل مَـرئيٍّ بعدمـا عـبَّر عـن وجـوده، لم يعـد صُـوَرًا مُخلَّقـة في درامـا مُوجَّهـة، انهـارت كل الصـورة النَّمطيَّـة القديمـة رغـمًا عـن الجميـع، وأصبـح لزامًـا عـلى الجميـع بـذل الجهـد الـلازم لفهـم الطبيعـة الماديـة للمجتمـع الـذي يعيشـون فيـه، وجوهـر صراعاتـه ودوافعهـا. لم تَعُـد مـن الممكـن صياغـة مـصر كعـالم مُتخيَّـل مـن عنـاصر بسـيطة؛ فالبلـد في تغيُّر مسـتمر، وكنـس الـتراب ومُراكَمَتُـه تحـت سـجاجيد الواقـع لـن يُفـضي إلى رؤيـة أي أفقٍ منبسـط، بـل سـيجعل المسـير أكـثر بُطئًـا وقلقًـا داخـل منعرجـات أكـثر خطـورة وصراعيـة؛ فالمجتمعـات لا تسـكن أبـدًا، يمكـن أن تخفـض صوتهـا، لكنهـا لـن تتوقَّـف عـن الهمـس والـكلام، وفي الأثنـاء ستتشـكَّل لغـاتٌ جديـدة، تتطـوَّر وتتمايـز وتصبـح معهـا العـوالم المتنوِّعـة أكـثر عُزلَـة وتناثـرًا، ولـن تسـتطيع خطابـات الصـور النمطيـة التافهـة احتواءهـا بحيـث يسـير كل شيء بالتـوازي حتـى تـأتي لحظـة تتقاطـع فيهـا المتوازيـات، فتصطـدم العـوالم بعضهـا ببعـض؛ وحينهـا لـن يمكـن إخفـاء صـوت الانفجـار.

بعضٌ من ملامح تاريخ السُّيولة الاجتماعيَّة




قولي انا
يا يوسف

الفصل الرابع

محطّات تاريخية للعِصاميّة والجَربَعة

ربما لم تعرف مصر في القرن العشرين مشروعًا تحديثيًا وتنمويًا يقبض على مصيره، ويمتلك من صفات القفز والتسارُع والهندسة ما يمكنه من إعادة تشكيل مواطنيها، بنحوٍ يجعل من كلّ فَردٍ فيهم إنسانًا جديدًا يختلف جذريًا عن الإنسان الذي سبقه، ويجعلهم قادرين على تأسيس اجتماع عامٍّ يفارق ماضيهم مفارقَةً بنيويَّة، على غرار تأسيس جمهورية الصين الشعبية مثلًا وما تَرتَّب على وجودها من إعادة صياغة حياة ما يقارب ربع سكان البشرية نساءً ورجالًا، صياغة جديدة أثَّرَت في الوجود البشري بالكلية، وتوجيه وإدارة الموارد الطبيعة للكوكب. مصر في المقابل عرفت أنماطًا سريعة من الحراك الاجتماعي لسكانها، غيَّر وجه حياتهم تغييرًا شديدًا، لكن من دون الادِّعاء بأنه كان وثبةً تاريخية تقطع بنحوٍ تامٍّ مع سابقها. أشكال الحراك الاجتماعي تلك جاء بعضها نتيجة مشروعات تنموية وطنية مبتسرة ومتعثِّرة، والبعض الآخر نتج عن متغيِّرات إقليمية وعالمية عنيفة، بعضها كان في صالحنا بالمعنى التاريخي، وبعضها كان وَبالًا علينا بنفس الكيفية، وكُنَّا في غالبها متغيِّرًا تابعًا ولسنا فاعِلًا رئيسيًا فيها.

الحربـان العالميتـان وبينهـما الكسـاد الكبـير في عشرينـات القـرن العشريـن، وصـولًا إلى الأزمـة المالية العالميـة الكـبرى التـي بـدأت عـام 2008 ولا يـزال أثرهـا ممتـدًّا إلى الآن- لَعِبَـت جميعًـا أدوارًا لافِتَـةً في تشـكيل وإعـادة تشـكيل الخرائـط الاجتماعيـة في مـصر، وأوزان القـوة حتـى داخـل كل فئـة اجتماعيـة عـلى حِـدَة، وجـاءت الجمهوريـة اليوليويَّـة هـي الأخـرى لتعيـد تشـكيل المجتمـع ومرتكـزات القـوة فيـه، مرَّةً عـبر النزوع نحـو توسـيع الطبقـة الوسـطى بسياسـات الإصـلاح الزراعـي وتجميـع وسـائل الإنتـاج في يـد الدولـة مـن خـلال تمصير وتأميـم ممتلـكات الرأسـمالية الكبـيرة في الخمسـينات والسـتينات، وبطريقـة مختلفـة، عـبر اتِّبـاع سياسـة الانفتـاح الاقتصـادي في السـبعينات، ثـم مـا سُـمِّيَ لاحقًـا بسياسـات الخصخصـة والتَّكيُّـف الهيـكلي في التسـعينات التـي سـمحت بتراكـم رؤوس أمـوال عملاقـة مـرة أخـرى. ولا ننـسى المسـتوى الإقليمـي والـدور الـذي لعبتـه ثـروات النفـط الخليجـي المتراكمـة وأثرهـا الاجتماعـي المبـاشر في الخريطـة الاجتماعيـة المصريـة بفعـل الانتقـال التاريخـي للعِمالـة المصريـة إلى هنـاك، بنحـو طويـل ومسـتقر أو قصـير وموسـميٍّ، وذلـك بـدءًا مـن منتصـف سـبعينات القـرن العشريـن وحتـى تاريخـه. كذلـك لا يمكـن إغفـال أثـر الـصراع المـصري الإسرائيـلي الـذي خلَّـف أربـع حـروب كبـيرة، ثـم الوصـول إلى تسـوية سـلمية إسـتراتيجية بـين البلديـن، وأثـر كل تلـك المحطـات في مجمـل الأداء السـياسي الاقتصـادي وانعكاسـاتهما الاجتماعيـة.

أوهام غريبة عن مصر "النضيفة"

كـما أوردتُ سـابقًا، المصريـون مـن عمالقـة احـتراف النوسـتالجيا، وعندهـم حنـين "مـا باعـرف لَمِـين" كـما تقـول السـيدة فـيروز في أغنيتهـا، وحـين اشـتدَّت أزمـات الجمهوريـة اليوليويَّـة وظهـر أنهـا أزمـات مسـتعصية ومُرَكَّبـة، قـرَّر محترفـو الحنـين مـن أبنـاء المـزاج المحافـظ المـصري الهـروب إلى زمـنٍ لم يـره غالبيتهـم مـن قبـل، وهـو عـالم المَلَكيـة مـا قبـل 1952، فصِيغَـت خطابـات واسـتُدعِيَت صـور منقَّحـة بالأبيـض والأسـود وأُنتِجَـت أعـمال دراميـة تتمحـور حـول تمجيـد هـذا العهـد، بحيـث خلَعَـت عليـه صفـات النظـام والانضبـاط والنزاهـة والنظافـة والحداثـة والاحـترام، إلى آخـره مـن معـانٍ يُرتَجـى وجودهـا في الواقـع المعـاصر.

صحيح أن مصر الملكية السعيدة كانت مرتعًا للأوبئة في أربعيناتها، فجاءت "شوطات" الكوليرا والملاريا لتحصد عشرات الآلاف في شهور قليلة، وصحيح أن مصر ذات الطربوش كان عدد سكانها لا يتجاوز العشرين مليونًا، ربعهم تقريبًا من عُمَّال التراحيل الزراعيين، أتعس أهل الأرض المصرية[1]، ومؤكَّد أن الأُمِّيَّة في مصر وقتها كان غالبة على أهلها بكل انعكاسات ذلك السلوكية والمعيشية، لكن كل ما سبق من حقائق مؤكَّدة لا يصمد أمام صورة فوتوغرافية مُحسَّنة لرجل أجنبي يعزف على بيانو في شرفة فندق شبرد القديم الذي أحرقه المصريون كاملًا في نهار 26 يناير 1952. الجربعة هنا تتكشَّف في الإنكار التَّعِس الذي يسيطر على خَيال مَن يتباكون على أيامٍ يقينًا لم يرَ فيها غالب أجدادهم مدخل فندق شبرد هذا، ولو خَطَوا على عتبات بابه لكانوا طُردوا منه شرَّ طردة. الجربعة هي أن يتماهى الفرد مع تاريخٍ بعيد، فيرى نفسه في موقع الأقلِّيَّة، حيث السيد المنتصر، وهو موقع غير واقعي بالمرَّة، والجربعة المزدوجة تزداد كثافةً مع إدراك صاحب الحنين لموقعه الاجتماعي التَّعِس لو كان ابنًا لهذا الزمن، ثم يستمر في إفراز سَيَلان حنينه!

لكن ربما يوجد بعض التفسير المنطقي لحنين ما يتصوَّره الفرد المحافظ لمجتمع أكثر أمنًا وطمأنينة حتى لو كان غير عادل، فيه يُعرَف الناس كبيرهم من صغيرهم، وتحفظ فيه المقامات والمكانات بقوة الألقاب ومراتبيتها. مجتمع غير سائل اجتماعيًّا، متماسك بتماسُك طبقاته المهيمنة التي تتَّسِم بسمات التأدُّب والرفعة ورسوخ الجذور واحترام الأصول. لكن السؤال هنا: هل كان الوضع كذلك فعلًا، أم هناك كثير من المبالغات بفعل ابتعاد أثر تلك الحقبة الزمنية عن واقعنا المعاصر، بنحو يسمح بنسج عدد لا بأس به من الأساطير والافتئات سلبًا أو إيجابًا على هذا الزمن؟

ينبغي في البداية أن نضع في الاعتبار قصر عمر تجربة المملكة المصرية التي تأسَّست نتيجة لتصريح 28 فبراير 1922 البريطاني، والذي تزامن إعلانه مع سقوط الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى وتأسيس الجمهورية التركية عام 1924. لم تستمر المملكة المصرية لأكثر من ثلاثين عامًا "أول عن آخر"، حدث

(1) إبراهيم عامر: الأرض والفلاح.. المسألة الزراعية في مصر، الفصل الثالث: القوى الاجتماعية في الريف.

خلالها عدد من الهزّات الاقتصادية العالمية الكبرى، كانت عظيمة الأثر في القُطر المصري وفي إمكانياته وطبيعة بنيته الاقتصادية الهشّة كمستعمرة متخلِّفة. فالحرب العالمية الأولى، ثم الكساد الكبير، ثم الحرب العالمية الثانية- لعبت دورًا حاسما في تشكيل القوى المهيمنة على الاقتصاد المصري، وصعود وهبوط أسهم رموز وأسماء مختلفة من بين أبناء الطبقات المهيمنة، تجعل من الانقطاع وإعادة التأسيس عمليَّةً شبه دورية في ظل الطبيعة التابعة لتلك الطبقات في مصر، سواء أكانت تبعية للدولة المحلية أم للدولة الإمبراطورية.

لكن ليس معنى ما سبق أنه لم تكن هناك ملامح بدائية لطبقة أرستقراطية مصرية تم تشكيلها تدريجيًّا ما بين عهد الخديوي إسماعيل وحتى ثلاثينات منتصف القرن العشرين. وأقول هنا ملامح بدائية لأن ثمانين عامًا في ميزان الأرستقراطيات يعتبر عمرًا وليدًا، والأرستقراطية المصرية الوليدة تلك تشكَّلَت من عائلاتٍ تملَّكت الأراضي الزراعية مع اللائحة السعيدية، ثم بدأت في زيادة أراضيها المملوكة تباعًا، وتكوَّنَت من أنسال أسرة محمد علي وطبقة كبار الموظفين المُلقَّبين بالذوات، وكذلك الأعيان، وهم أصلًا من صغار المُلَّاك الذين لعبوا دور مُمثِّلي السلطة في الريف، فزادت ملكياتهم بمتوالية مهولة.

لقد لعبت المِنَحُ الخديوية دورًا مهمًّا في تشكيل طبقة الذوات من مُلَّاك الأرض، وهم في الأصل موظفون إداريون، فقد مُنح الشيخ رفاعة الطهطاوي -مثلًا- 150 فدانًا في عهد محمد علي، ثم 625 فدانًا في عهد محمد سعيد باشا، واشترى لاحقًا من الأطيان الأميرية في عهد إسماعيل 771 فدانًا، ليبلغ مجموع ملكيته ما يوازي 1500 فدان. أحمد عرابي نفسه وصل حجم ملكيته الممنوحة له خديويًّا حتى عام 1882 إلى 877 فدانًا. عائلات أرستقراطية كعائِلَتَيْ: سلطان وغالي وصل الممنوح لكلٍّ منهما إلى 2000 فدان، وأيضًا عائلة المنشاوي باشا التي بدأت مع أحمد المنشاوي الذي كان فلاحًا بسيطًا ترقَّى إلى وظيفة ناظر قسم طنطا الزراعي، ثم استطاع هو وأولاده الحصول على إنعامات خديوية وصلت إلى 819 فدانًا، ثم وسَّع حفيده أحمد المنشاوي باشا ملكيات العائلة حتى وصلت إلى 14 ألف فدان عند مطلع القرن العشرين.[1]

(1) رؤوف عباس: كبار المُلَّاك والفلاحين في مصر، الفصل الثالث.

انتعشـت أحـوال تلـك العائـلات جـدًا بعـد الاحتـلال البريطـاني الـذي راهـن عـلى طبقـة المـُلّاك الزراعيـين كشريـكٍ سـياسي واجتماعـي في السـلطة، قـادر عـلى ضبـط سُـكّان مـصر، وغالبيتهـم مـن الفلاحـين الفقـراء، والسـيطرة عليهـم، وادّعـاء تمثيـل مصالحهـم، وفي المقابـل سـاعَدَت الإدارة البريطانيـة هـذه الطبقـة عـلى تنميـة وتطويـر سياسـاتها الزراعيـة، وفتحـت لهـا الأسـواق الدوليـة -ولا سـيما سـوق القطـن- بنحـوٍ أعطاهـا ميـزات عالميـة مسـتحقّة، سـمحت لهـا بالقـدرة عـلى مُراكَمَـة رؤوس أمـوال عملاقـة وإعـادة اسـتثمارها عـبر المزيـد مـن التوسُـع في شراء الأراضي وتحوُّلهـا إلى مـا يشـبه الإقطـاع الرأسـمالي، وهـذا في غالـب الأحـوال، أو بتوجيههـا نحـو أنشـطة صناعيـة وتجاريـة. ويمكننـا فهـم النفـوذ المتنامـي وزيـادة ملكيـات تلـك العائـلات في علاقتـه بالتناقُـص الواضـح في ملكيـات أسرة محمـد عـلي نفسـها، فقـد كانـت أسرة محمـد عـلي في بدايـة الخديـوي إسـماعيل تمتلـك وحدهـا مـا يـوازي ربـع الأراضي الزراعيـة ملكيَّـةً خاصَّـة، وعنـد صـدور قوانـين الإصـلاح الزراعـي عـام 1952 لم تكـن ملكيـات كل أسرة محمـد عـلي تتجـاوز 180 ألـف فـدان مـن أصـل 6 ملايـين فـدان شـكَّلَت مسـاحة الأرض الزراعيـة في مـصر وقتهـا، أي 3 % فقـط مـن حجـم الملكيـة.

وبحكـم النمـو الطبيعـي البيولوچـي أصبـح أبنـاء تلـك العائـلات وُجَهـاء أماثـل من مُـلّاك الأراضي، وخـرج مـن بينهـم أفـراد متعلّمـون تعليـمًا عاليًـا ومتميـزًا في الخـارج، وأصبـح مـن بينهـم سياسـيون، ومنهـم مـن امتطـى ظهـر الجهـاز الإداري البيروقراطـي للدولـة أجيـالًا وأجيـالًا، ومنهـم مـن صـار مـن المثقفـين اللامعـين أو الفنانين المشـهورين. وهكـذا بـدأ رأس المـال الرمـزي المتنـوِّع لهـذه العائـلات يتراكـم شـيئًا فشـيئًا، جنبًـا إلى جنـب مـع أطيانهـم. أصبحـت لأبنـاء تلـك العائـلات ذائقـات وميـول سياسـية وفنيـة وفكريـة، وتطـوَّرَت وتنوَّعَـت أنمـاط حياتهـم بتنـوُّع رؤاهـم وأمزجتهـم. وعـلى مـدى ثلاثـة أو أربعـة عقـود، أصبـح هنـاك معنـى أكثر عمقًـا وتَجَـذُّرًا لاسـم عائلـة فـلان أو عِـلّان التـي صـارت تكتسـب مكانتهـا مـن تلـك الخلطـة المتنوِّعـة التـي تجمـع بـين الـثروة والسُـلطة والمعرفـة والمكانـة بتنـوُّع أفرادهـا، وأصبـح مركـز الثقـل داخـل تلـك العائـلات ينتقـل بـين الفـترة والأخـرى مـن فـرع إلى آخـر بحسـب التبـدُّلات السياسـية والاقتصاديـة والمكانـات الفرديـة المُكتَسَـبَة، بنحـوٍ يحافـظ عـلى اسـم العائلـة ككلٍّ وثِقَلهـا، بـصرف النظـر عـن تبـدُّل الأحـوال داخـل فـروع شـجرتها.

إلَّا أن التَّراكُم الأرستقراطي البدائي هذا لم يكن سيِّدَ الموقف طوال العهود الملكية، فمصر الثلاثينات، ومع الدور المتنامي لبنك مصر، وغارات طلعت حرب الاقتصادية الناجحة، واستغلال فترة ما بين الحربين، بدأت تخلق وُجَهاء أعمال جُدُدًا، أصبحوا في ظرف سنين قليلة من أغنى أغنياء مصر. صحيح أن قائمة أغنياء مصر عشيَّةَ تأسيس بنك مصر كان يتصدرها الأمراء العلويون: عمر طوسون وأحمد سيف الدين ويوسف كمال- على التوالي[1]، لكن سرعان ما ظهر أغنياء جدد، بعضهم عصاميٌّ تمامًا، مثل رجل الصناعة البارز أحمد عبود باشا، الذي لم يمتلك والده سوى حمَّامٍ شعبي في القاهرة القديمة، ومنهم من أتى من عائلات متوسطة، مثل محمد فرغلي باشا ملك القطن، أو عبد اللطيف أبو رجيلة ابن إسنا وأم درمان.

هؤلاء الصاعدون الجُدُد صِيغَت ضدَّهم خطابات في حينها تتَّهِمهم بأنهم انتهازيُّون وأغنياء حرب، وتتَّهم زمن الفساد والمحسوبية بترقية مقام أمثال هؤلاء، وغالبية تلك الخطابات أتت من طبقة المُلَّاك الزراعيين بالطبع. ويتصاعد التطوُّر الدرامي والحديث عن جربعة الوافدين الجُدُد مع ممارسات محمد فرغلي باشا ملك القطن ضد طلعت باشا حرب، وما أشيع عن تلاعُبه بأسعار أسهم بنك مصر في البورصة، كي يتآمر مع آخرين من أجل طرد طلعت حرب من مجلس إدارة البنك الذي أسَّسَه، وقصص أخرى عن محاولة كسب انتخابات مجلس النُّوَّاب أمام مرشح الوفد، عبر مَنحِه جنيهًا كامِلًا لكل ناخِبٍ مقابل صوته، وخسر الانتخابات رغم ذلك.

لقد نشأ خطاب الحنين مبكِّرًا، حتى في مصر الملكية، أمام صعود أثرياء جدد استفادوا من ظروف الكساد الكبير والحرب العالمية. وشاع الحديث عن القوالب التي نامت وزمن الرُّوَيبِضَة وما شابه، وبالطبع كان مصدر هذه الخطابات هو البرجوازية الزراعية المعادية لحركة التاريخ حينها، والتي وصفها شارل عيسوي بأنها طبقة تحمل عيوب الطبقة الثرية دون مزايا الطبقة الحاكمة،[2] والحقيقة أن طبقة المُلَّاك الزراعيين تحوَّلَت مع الوقت إلى عقبة مُعقَّدة أمام تطور مصر على

---

(1) ياسر ثابت: قصة الثروة في مصر، ص 158.

(2) Charles Issawi: Egypt.. An Economic and Social Analysis, London, 1947, p 149.

أكثر من مستوى، فمن زاوية شكَّلَت تلك الطبقة من الباشاوات القوام الرئيسي للطبقة السياسية المصرية، وكان صوتهم هو الغالب بشدة داخل قيادة حزب الوفد منذ الأربعينات، خاصة مع صعود نجم فؤاد سراج الدين باشا[1] وهو خير مُمثِّل لهذه الطبقة. هذا التمثيل السياسي اقترن بالقضية الوطنية والنضال من أجل الاستقلال الكامل، كتطبيقٍ سياسيٍّ لفكرة اللورد كرومر الاستعمارية، القائلة بأن "الباشا هو الممثل الطبيعي لإرادة الفلاح". من زاوية أخرى كانت هذه الطبقة ملكياتها العملاقة ونفوذها السياسي عثرة أمام التطوُّر الصناعي في مصر، وكانت طبقة الباشوات الصناعيين تنظر إليها كطبقة متخلِّفة ضد التقدُّم، وتتغذى باستمرار على الشعبوية السياسية باسم قضية الاستقلال التي لا تمتلك المقوِّمات المادية لإتمامها؛ نظرًا إلى تخلُّفها البنيوي، في حين أن الرأسمالية الصناعية تلك التي كانت محدودةً الشعبية بحُكم طبيعة البلد الزراعية وكانت أَميَلَ إلى الاستبداد السياسي والتحديث من أعلى، كوسيلة وحيدة لتقدُّم البلاد فقد كانت بلا جماهير تؤيِّدها؛ لذا تحالفت موضوعيًّا وعمليًّا مع السراي والملك، وشَكَّلَت قوام أحزاب الأقلية، وكان رمزها الأهم هو إسماعيل صدقي باشا.[2]

أوضح عادل العمري في كتابه العمدة "الناصرية في الثورة المضادَّة" هذا التناقُضَ بجلاء ووضوح؛ لذا لم يكن من المستغرب أن تؤيِّد الرأسمالية الصناعية قوانين الإصلاح الزراعي التي سَنَّها الضُّبَّاط الأحرار بعد يوليو 1952، بل وصفَّقَت لها مُهلِّلَةً، ووصفتها بالخطوة الصحيحة نحو الأمام. وعلى الرغم من أن الإصلاح الزراعي الأول الذي طُبِّق عام 1952 لم يَطُل إلا 12 % فقط من الملكيات الزراعية، وكانت تخصُّ العائلات الكبرى، مثل: سراج الدين والبدراوي وسلطان، وآخرين،

---

(1) فؤاد سراج الدين باشا، (2 نوفمبر 1911م- 9 أغسطس 2000)، سياسي ورجل دولة مصري، ينتمي في أصوله إلى عائلة سراج الدين، وهي عائلة مصرية عريقة من أكبر عائلات طبقة مُلَّاك الأراضي الزراعية. انضمَّ إلى القيادة العليا لحزب الوفد عام 1935 وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين، ثم إلى مجلس النواب عام 1936، وأصبح سكرتيرًا عامًّا للوفد عام 1949، ووزيرًا للداخلية والمالية عام 1950، وكان ينظر إليه وقتها كخليفةٍ مُحتَمَل للزعيم مصطفى النحاس. أسَّس عام 1978 حزب الوفد الجديد بعد سماح السادات بتعدُّد الأحزاب.

(2) إسماعيل صدقي باشا (يونيو 1875 إسكندرية - 9 يوليو 1950). تولىَّ وزارتي المالية والداخلية عدة مرات خلال عقد العشرينات، وتولى رئاسة الوزراء في الفترة بين عامي 1930 و1933، ووضع خلالها دستور 1930 الذي زاد من صلاحيات الملك فؤاد. شكَّل الوزارة مرة أخرى بإسنادٍ من الملك فاروق الأول عام 1946 لقمع الحركة الطلابية والعمالية المندلعة وقتها. كان رئيسًا لحزب الشعب، وهو من أحزاب الأقلية الموالية للملك.

ومعها أراضي الخاصَّة المَلَكيَّة التابعة للأسرة العلوية بالطبع. ولربما يتفاجأ البعض من تلك النسبة التي تبدو ضئيلة بالقياس لدعاية دولة يوليو عنها، وهي نسبة ضئيلة بالفعل، ولكنها كانت كافية لتحطيم طبقة الباشوات من المُلَّاك الزراعيين مرَّةً واحدة، وللأبد...

بمعنًى من المعاني: حَلَّ الضُّبَّاط الأحرار العُقدةَ المزدوجة والتناقض بين الزراعيين والصناعيين. فالصناعيون كانوا يريدون تغييرًا بلا جماهير؛ لأنهم كانوا يخشون صعود حركة الطبقة العاملة وتنظيم الفلاحين ثوريًّا، والزراعيون كانوا أعجَزَ من أن يطوِّروا أنفسهم سياسيًّا وبرنامجيًّا، فقد دهسهم قطار الحاجة التاريخية وأصبحوا ينتمون إلى زمنٍ صار من الواجب تجاوزه، فلا هم حلُّوا الأزمة الاجتماعية ومشكلات الفقر المُدقِع للفلاحين المسؤولين هم عنها -بحكم موقعهم الطبقي المباشر- ولا هم أعلنوا الجمهورية وجلبوا الاستقلال الكامل بخطوات شجاعة وواثقة، فكانت الإجابة السهلة والسريعة على يد تنظيم سياسي سري من داخل القوات المسلحة، اسمه الضباط الأحرار، الذي نفَّذ قوانين للإصلاح الزراعي بعد شهرين فقط من وصولهم إلى السلطة. شهران فقط!

لم تكن مصر قبل 1952 مصرًا واحدًا، بل كانت أمصارًا، لم يكن هناك زمان واحد، بل أزمنة، مراحل من الصعود والهبوط ومحطات مختلفة في تاريخ طبقاتها المهيمنة، فلا يوجد ثابت وأصيل كما يتخيل تجار الحنين إلى الماضي، بل تحوُّلات وتغيُّرات مستمرة، عنوانها الرئيس هو السيولة والاضطراب، في بلد متخلِّف لم يتمكن قطُّ من القبض على مصيره وتأسيس سلطة الشعب كما ينبغي أن تكون. فقط محطات من الهروب للأمام من أزمات تلوح فتتضح فتستفحل فيحدث التدخل الجراحي من أجل الحفاظ على الدولة والنظام العام من الانهيار، وبحيث يصبح جوهر ما يبدو تغييرًا لكل شيء هو الحفاظ على معظم الأشياء كما هي دون أي تغيير، وفي الأثناء يصعد البعض ويهوي البعض الآخر.

الخمسينات وذروة الإمكانية العصامية

"الغَني من دول.. كان قَدّ القول.. كذا ألف وكذا فدان.

كان هو السَّيِّد والباقي عبيد.. وكلامه مَفيهوش قَوَلان.

كان فَرَجُه قَريب.. وسَميع ومُجيب.. والجيش ونجيب.. عملوا الترتيب.

والشعب بَقت له إرادة هَدِّت كل الشَّنَبات.

وبقينا كُلِّنا سادة.. لا بهوات ولا باشوات...".

غنَّى إسماعيل ياسين هذا المونولوج في فيلم "اللص الشريف" الذي عرض عام 1953، ولا أعتقده تمجيدًا لانقلاب الضباط بقدر ما كان تعبيرًا عن الاحتقان الاجتماعي الشديد الذي سبقه. فانقلاب يوليو 1952 جاء في أعقاب انتفاضة جماهيرية عنيفة يوم 26 يناير 1952، كانت شرارتها مُحاصَرَة واقتحام القوات البريطانية في قناة السويس لمديرية أمن الإسماعيلية، والاشتباك مع المتحصِّنين بها من رجال شرطة وفدائيين، وقتل وجرح المئات. في هذه الانتفاضة الجماهيرية احترق 700 مكان ما بين محلَّات وسينما وكازينو وفندق ومكتب ونادٍ في شوارع وميادين وسط القاهرة الخديوية، أكبر وأشهر المحلَّات التجارية في مصر آنذاك وأكثر من مكتب لشركات كبرى، ومئات الشركات والمعارض والشُّقَق سكنية و13 فندقًا كبيرًا، مثل: شبرد ومتروبوليتان وڤيكتوريا، و40 دار سينما، منها: ريڤولي وراديو ومترو وديانا وميامي، و73 مقهًى ومطعمًا وصالة و92 حانة و16 ناديًا. ببساطة شديدة: احترقت دُرَّة التَّركُّز الحضري في القاهرة ومكان اجتماع وأعمال البرچوازية المحلية والأجنبية، حيث أغنياء المصريين والمُتمصِّرين والأجانب. احترق بسهولة "العالم الراقي" أمام أعين سكان قصر عابدين، حيث عرش فاروق الأول.

عبد اللطيف البغدادي، وهو أحد قادة تنظيم الضباط الأحرار وأحد أهم رموز مصر اليوليوية لاحقًا، يقول في مذكراته إنه في مساء يوم حريق القاهرة اجتمعت اللجنة التأسيسية للضُّبَّاط الأحرار على عُجالة وكانوا في حالة من القلق والتوتر من جراء الأحداث. اتَّضح لهم بجلاء أن الأحداث وتطوُّرها تسير بخطى سريعة نحو حالة من التدهور لم يسبق لها مثيل، وأن الزمام قد يفلت في أية لحظة

ويحدث انفجار من الشعب المتذمِّر، وتصبح البلاد في حالة من الفوضى لا يمكن التكهُّن بهـا، وأن التحـرك أصبـح واجبًـا.[1]

بـدأت ثـورة يوليـو 1952 كانقـلاب عسـكري خاطـف، نفَّـذه تنظيـم سري مـن داخـل القـوات المسـلحة في جُنـح ظـلام ليلـة 23 يوليـو. في الأيـام الأولى لـه، سُـمِّي فقـط بحركـة الضبـاط التـي رَوَّجَـت إعلاميًـا أن جُـلَّ مطالبهـا هـو تطهـير القـوات المسـلحة مـن عنـاصر فاسـدة داخلهـا، لكـن سرعـان مـا تسـارَعَت الأحـداث وتنـازل الملـك فـاروق الأول عـن العـرش لولـده الرضيـع أحمـد فـؤاد الثـاني، وبـدا الأمـر كأنـه وُضِـعَ حَـدٌّ لحالـة السـيلان والفـوضى السياسـية والاجتماعيـة التـي سـادت البـلاد، منـذ إعـلان رئيـس الـوزراء مصطفـى النحـاس باشـا أواخـر عـام 1951 إلغـاء معاهـدة 1936 مـع بريطانيـا مـن جانـب واحـد، والـذي أعقبتـه انتفاضـة حريـق القاهـرة التـي ترتَّبَـت عليهـا إقالـة حكومـة الوفـد وتشـكيل أربـع حكومـات متعاقبـة في ظـرف سـتة أشـهر فقـط.

سرعـان مـا تحوَّلَـت "حركـة الجيـش المباركـة" -كـما كانـت تُسـمَّى وقتهـا- إلى "ثـورة 23 يوليـو"؛ بفعـل مـا بـدا إجـراءات سريعـة وحاسـمة اتَّخذهـا مجلـس قيـادة الثـورة خـلال شـهور قليلـة بعـد سـيطرته عـلى الحكـم، فبذهـب المُعِـزّ سُـنَّت قوانـين الإصـلاح الزراعـي الأول، ووُزِّعَـت الأراضي عـلى فلَّاحـي الأراضي المُؤَمَّمـة، وبسـيفه جـرى إعـدام العاملـين الشـيوعيَّيْن: مصطفـى خميـس ومحمـد البقـري عـلى خلفيـة إضرابـات عماليـة في كفـر الـدوار،[2] ونُفِّـذَت مشروعـات سريعـة لشَـقِّ الطـرق ورصفهـا، منهـا رصـف كورنيـش النيـل الحـالي، في ظـرف سـتة أشـهر فقـط، تخلَّلهـا شـقُّ جـزء مـن حيِّـز السـفارة البريطانيـة والاسـتيلاء عليـه، وكان يطـل عـلى النيـل مبـاشرة.

---

(1) مذكـرات عبـد اللطيـف بغـدادي، الجـزء الأول. البـاب الأول: الجيـش والتنظيـمات السريـة. الفصـل الثـاني: الضبـاط الأحـرار والانقـلاب.

(2) مصطفـى خميـس ومحمـد البقـري: هـما عاملان بمصنـع كفـر الـدوار، قـادا إضرابًـا ووقفـة احتجاجيـة سـلمية بالمصنـع في 12 أغسـطس 1952 مـع زملائهـما، مطالبـين بزيـادة أجورهـم، وتطـوَّرَت إلى أحـداث عنـف مُتبـادَل بـين العُـمَّال والشرطـة. حوكـم خميـس (19 عامًـا) والبقـري (17 عامًـا) ومئـات آخـرون -مـن ضمنهـم مَـن لم يتجـاوز الحاديـة عـشرة- أمـام محكمـة عسـكرية، وصـدر الحكـم عـلى خميـس والبقـري بالإعـدام شـنقًا، ونُفِّـذَ حكـم الإعـدام بحقهـما في يـوم 7 سـبتمبر مـن نفـس العـام، ليكونـا أول الضحايـا السياسـيين للعهـد اليوليـوي الجديـد.

وعلى مستويات أكثر رمزية، أُلغِيَت الألقاب الرسمية ورُتَب البكوية والباشوية، وأصبح لقب "السيد" هو اللقب الذي يسبق أسماء كل المواطنين. خُلِعَت الطرابيش من فوق الرؤوس كرمز للتحرُّر من السمات والمظاهر التقليدية، وأبدى التنظيم الحاكم الجديد تسامحًا خطابيًّا أعلى مع حقوق المرأة باسم ضرورات التنمية وشحذ وتعبئة كل "الموارد الوطنية"، وكُلِّل ما سبق بإعلان الجمهورية في 18 يونيو من عام 1953، وتسمية محمد نجيب أول رئيس للبلاد، كخطوة تسبق إعداد دستور لجمهورية برلمانية من جانب لجنة مختصَّة، للأسف، ما إن انتهت من عملها حتى ألقى جمال عبد الناصر بمشروع هذا الدستور إلى سلَّة المهملات حرفيًّا وليس مجازًا.[1]

بَيْد أن من أكثر الأسباب التي حوَّلَت انقلاب يوليو شعبيًّا إلى ثورة بالمعنى الإيجابي للَّفظ، هو إعلاؤها من شأن العصامية كقيمةٍ مُؤسِّسة نظرًا إلى ما ادَّعاه الضباط الأحرار بشأن عزمهم تأسيس مجتمع جديد على مستوى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي ستحكمه، وانعكاس ذلك على مجمل القيم المرافقة لهذا التغيُّر. ومن اللافت جدًّا أن فكرة "المجتمع الجديد" لم تُطرح إلا مع يوليو 1952، في حين أن ثورات مصر الشعبية الحقيقية -سواء ثورة 1919 وثورة 2011 - لم تعلن بشجاعةٍ أن سُلطَتَهما المُظفَّرة الجديدة ستسعى لبناء وتأسيس مجتمع جديد وتهدم المجتمع القديم، ربما تَعلَّق ذلك بأسباب تخصُّ طبيعة القوى السياسية المهيمنة داخل كل ثورة، أو ربما لسبب أكثر بساطة وهو عدم قدرة تلك الثورات على الاستيلاء على السلطة السياسية بالنحو الذي يسمح لها بطرح كلام متفائل من هذا النوع.

لكن في كل الأحوال أسرفت ثورة يوليو مبكِّرًا في الحديث عن المجتمع الجديد بنحوٍ شديد الحماس والإبهام في نفس الوقت، خَدَمَتهم في ذلك التحوُّلات العنيفة التي أحدثتها في النظام السياسي حينها، والتي قد لا نستطيع إدراك عمق دلالتها في زمننا المعاصر، فالإطاحة بالملك كان فعلًا راديكاليًّا غير مسبوق في التاريخ المصري، فحتى انقلاب يوليو 1952 لم يعرف المصريون السلطة من دون ملوك أو سلاطين، بما في ذلك فترة الاحتلال البريطاني. كان حكامنا ملوكًا يملكون ويحكمون،

(1) سوزان عاطف: تحقيق في موقع المصري اليوم في 3 مايو 2012.

وفي فترات أبعد، كانوا يملكون -حرفيًّا- أطيان البلاد، بمن عليها، والحركة الوطنية الكاسحة بعد ثورة 1919، على الرغم من المُخاشَنَة الشجاعة المستمرة من سعد زغلول ومصطفى النحاس للملك فؤاد وولده فاروق من بعده، لم تتعدَّ أبدًا حدود الشرعية الملكية، ولم يجرؤ أصحابها على إعلان الجمهورية على الرغم من شعبيتهم الكاسحة. وحتى دستور 1923 الأفضل في تاريخ مصر كان قد صدر في صورة منحة من الملك فؤاد إلى شعبه، ومهما ازدادت شعبية حزب الوفد وتعمَّق حُبُّه في قلوب الجماهير، فهذا لم ينل من مكانة الملك كصاحب الشرعية الأعلى في حكم البلاد.

لقد بدا حُكم ضباط يوليو كأنه عهد جديد فعلًا، فالتَّجاسر على مقام الملك ليس أمرًا سهلًا، والاستيلاء على عرشه كان باسم الشعب، وكان إعلان الجمهورية "العسكرية" فتحًا جديدًا في علاقة الحاكم بالمحكوم على المستوى الرمزي، مهما كانت طبيعة وشكل علاقات الاستبداد والاستئثار بالسلطة التي استمرت بعدها، فالجمهورية -ولو مؤجَّلة أو منقوصة- تظلُّ في النهاية جمهورية من حيث المبدأ، حيث الإرادة الأولى والأعلى للشعب وشرعيته مهما غيِّبت تلك الإرادة، ويظل الحكام -مهما بلغت درجات استبدادهم وطغيانهم- حريصين طول الوقت على تأكيد وجود تلك الشرعية، واستيفاء كل الإجراءات الشكلية التي تؤكِّد على وجودها، حتى ولو على صورة استفتاءات مضحكة يحصد فيها الرئيس الأسطورة جمال عبد الناصر على 99.99 % من أصوات الجماهير الشعبية العريضة.

لذا فالمواطن المصري عام 1953 كانت آماله وخيالاته بشأن نفاذ إرادته على مصير وطنه مفتوحة ومتفائلة قياسًا بأي لحظة أخرى، وضبَّاط يوليو هم الآخرون لم يُفوِّتوا فرصة إلا وأكَّدوا على ذلك، فهم جاؤوا من الشعب وللشعب، وباسم الفلاحين المصريين؛ لطرد السلالة الأرناؤوطية الألبانية، حتى سارت مناهج التاريخ المدرسية في غيِّها ولقَّنَت الأطفال في الفصول الدراسية أن جمال عبد الناصر هو أول حاكم مصري لمصر منذ زوال حُكم الفرعون "نختنبو الثاني" آخر فراعنة الأسرة الثلاثين قبل 2295 عامًا!

فكرة المجتمع الجديد الغامضة تلك، التي استهلكها حكم الضباط الأحرار، رافقها كثير من الشعارات الإيجابية التحرُّرية، بصرف النظر عن محدودية

تطبيقها. فشعارات مثل "ارفع رأسك يا أخي لقد مضى عهد الاستعباد"، وإلغاء الألقاب، والاستثمار المستمر في تأكيد عودة كرامة الفلاح السيد في وطنه السيد، وكذلك صياغة خطابات حاولت تَوَخِّي التماسك عن محورية العمل في تحديد قيمة الإنسان، فهوجم العاطلون بالوراثة والحائزون على مكانة اجتماعية لمجرد امتلاكهم أراضي ورؤوس أموال، مع تمجيد العمل كقيمة في حد ذاتها، وظهر هذا بوضوح في مواد إعلامية دعائية مدعومة من الدولة مثل فيلم "الأيدي الناعمة"، وذلك من خلال تطوُّر شخصية البرنس الذي قُبِل اجتماعيًّا مرة أخرى بعدما كسب رزقه بجهده وعمله مرشدًا سياحيًّا لإتقانه عددًا من اللغات الأجنبية.

وهكذا، فعلى مستوى الشعار، يمكن أن نعتبر الخمسينات ذورة للتمجيد الخطابي للفكرة العصامية، ولتمجيد معانٍ تجعل من عمل الإنسان ودوره وإسهامه مصدر قيمته وليس مركزه الاجتماعي المضمون والموروث، وفي ظني كان ذلك أعلى مراحل التقدم الاجتماعي في مصر على مستوى الجدل من حيث إن معنى المساواة مكافئ لمعنى المواطنة، وتحول القضية الاجتماعية إلى ركن أساسي في خطاب الوطنية المصرية، وجعل المصري "المعياري" الجديد هو الشاب المتعلِّم ابن الفلاحين الفقراء ذو القميص الأبيض النظيف والابتسامة الآملة.

اتساقًا مع هذه الروح راح الضباط الأحرار أنفسهم يروِّجون أنهم أبناء الفلاحين وأنهم عنوان العصامية، وراحوا يكررون أنهم أبناء دفعة عام 1936، تلك التي سمحت لأبناء العامة بالالتحاق بالكلية الحربية، وذلك على الرغم من أن غالبية قادة الضباط الأحرار أتت من خلفيات اجتماعية شديدة اليُسر. فجاء عبد الحكيم عامر من عائلة مُلَّاك أراضٍ ثرية في المنيا، ووالده كان عمدة قرية أسطال، بل إن خاله كان الفريق محمد حيدر باشا آخر وزير حربية في عهد الملك فاروق. أمَّا عبد اللطيف بغدادي فكان والده عمدة، وحسين الشافعي كان والده مهندسًا وجدَّاه كانا من العُمَد، ودرس هو نفسه في مدارس الفرير الفرنسية، أمَّا صلاح سالم وجمال سالم فكان والدهما موظفًا عموميًّا في السودان، وكان والد يوسف صديق ضابطًا بالجيش، وكان جده حاكمًا لإقليم كردفان في السودان.

وعند الحديث عن الأصول الاجتماعية لجمال عبد الناصر وترديد أن والده كان موظفًا بسيطًا بهيئة البريد، نقول إن جمال عبد الناصر قبل الانقلاب كان

في حالـة شـديد اليُسر المـادي، كانـت لديـه سيارته الخاصـة في زمـنٍ عَـزَّ فيـه ذلـك، فقـد كان واحـدًا مـن ثلاثـة فقـط[1] في قيـادة الضبـاط الأحـرار مـن يملكـون سـيارات خاصـة قبـل يوليـو 1952، وكان يسـكن في بيـت كبـير، ويعمـل مُحـاضِرًا في كليـة أركان الحـرب، ومتزوجًـا بسـيدة تنتمـي إلى عائلـة ثريـة. وقـد سـبق وأشـار هـو إلى يُـسرِ حاله قبـل الثـورة في إحـدى خطبـه كرئيـس للجمهوريـة، نافيًـا وجـود حافـز مـادي وشـخصي لخـوض مغامرتـه الانقلابيـة التـي كان احتـمال فشـلها أعـلى مـن احتـمال نجاحهـا، بـل كـرَّر أكـثر مـن مـرة أن عملـه بالسياسـة أتعبـه وعجَّـل بمرضـه وشـيَّب رأسـه، وأنـه كان يمكنـه الاكتفـاء بحياتـه المريحـة جـدًّا قبـل الثـورة.

اللافـت جـدًّا في هـذه الأيـام هـو تكـرار أنـاس لـكلام لا أسـاس لـه عـمَّا يعتبرونـه "وضاعـة" مكانـة الضبـاط الأحـرار الاجتماعيـة، فكثـيرون هـم فعـلًا الذيـن يتغافلـون عـن المكانـة الاجتماعيـة المرموقـة للضبـاط الأحـرار، سـواء أكانـت شـخصية أم عائليـة، فرُتَـب البكبـاشي والقائمقـام العسـكرية كانـت تعـادل عمليًّـا رتبـة البكويـة، وكانـت رُتَـب الأمـيرلاي واللـواء في حكـم الباشـوية، والضبـاط الأحـرار لم يكونـوا أوَّلَ مَـن صعـد إلى درجـة أعـلى اجتماعيًّـا عـن تلـك التـي كانـت لآبائهـم بحُكـم انتمائهـم الجديـد إلى القـوات المسـلحة كضبـاط، فتاريـخ مـصر الحديـث كلـه هـو تكـرار مُمَنهَـج لتلـك القصـة، مصطفـى النحـاس باشـا أتى تقريبًـا مـن نفـس الخلفيـة الاجتماعيـة، فوالـده كان تاجـرًا للأخشـاب ومالـكًا لعـدد مـن ورش النجـارة، وعمـل مصطفـى النحاس نفسـه وهـو في سـن الحاديـة عـشرة بمكتـب تلغـراف، وارتقـى اجتماعيًّـا بدراسـته للقانـون والعمـل محاميًـا، ثـم التحـق لاحقًـا بسـلك القضـاء حتـى وصـل إلى منصـب رئيـس دائـرة محكمـة طنطـا، وحصـل وقتهـا عـلى رتبـة البكويـة.

الظـرف السـياسي فقـط، وأغـراض الدعايـة والسـعي الخطـابي لتعميـق الجـذور الشـعبية والاجتماعيـة للثـورة، هـو مـا جعـل الضبـاط الأحـرار يـردِّدون أنهـم أبنـاء الفلاحـين والجناينيـة، ويصنعـون مـوادَّ دراميـة مثـل فيلـم "رُدَّ قلبـي" لترديـد تلـك الدعايـات، وهـم في الواقـع كانـوا موضوعيًّـا في حكـم البكـوات، لقـد كانـوا في قلـب قلـب الدولـة المصريـة، وليسـوا عـلى هامشـها، وكانـوا عـلى علاقـة وطيـدة ومبـاشرة

(1) مذكرات عبد اللطيف البغدادي، الجزء الأول، الباب الأول: الجيش والتنظيمات السرية. الفصل الثاني: التفكير في الاغتيالات، صفحة 32.

بالملك كقائد أعلى للقوات المسلحة، كانوا رسميًّا سلاحَه وظهرَه وسَنَدَه وسيفه، هم فقط لم يكونوا جزءًا من اللعبة السياسية بحكم كونهم عسكريين محترفين. كثيرون لا يعرفون أن محمد نجيب كان شخصية عامة معروفة قبل يوليو 1952 وعلى اتصال بالملك وبمصطفى النحاس، وسبق له شغل منصب محافظ سيناء ومحافظ البحر الأحمر،[1] لقد كان الضباط الأحرار في قلب الدولة، ويعون وجودهم داخلها كجزء من الطبقة الحاكمة، لا كجزء من الجماهير الشعبية، بدليل تعجيلهم بالانقلاب بعد حريق القاهرة الذي رأوا فيه إشارة خضراء للتحرُّك من أجل منع الفوضى ووقف عجلة انهيار الدولة بالأساس. في الأخير لم يكن انقلاب الضباط الأحرار هو ثورة الفلاحين على الباشاوات، بل كان انقلاب البكوات على الباشوات، البكوات الذين أعلنوا انتماءهم الحاسم إلى الفلاحين، وأن توسيع الطبقة الوسطى هو الخطة النهائية لمشروعهم السياسي والاجتماعي.

لقد كان عقد الخمسينات هو عقد النَّشوة بالتحرُّر الوطني، خيضت فيه كل مغامرات الدولة المستقلة الجديدة، غيَّرنا من سياساتنا الخارجية وقرَّرنا الحياد الإيجابي عوضًا عن الانتماء إلى المعسكر الغربي، أُمِّمَت قناة السويس، ثم نجحت القوتين العظميين في إفشال مؤامرة العدوان الثلاثي علينا؛ فخرجنا من المشهد مُظفَّرين، ورمزًا لإرادة الشعوب الناشئة، أقمنا أول وآخر وحدة اندماجية في تاريخ العرب، وأُعلِنَت الجمهورية العربية المتحدة التي كانت تعني عمليًّا سيطرة جمال عبد الناصر ونظامه وطريقة حُكمه على سوريا، فضلًا عن مصر، كان عقدًا مليئًا بالآمال والطموحات، لم تظهر خلاله مباشرةً الآثار المدمِّرة لزيادة نفوذ الكادر العسكري داخل الجهاز الإداري للدولة وسطو أهل الثقة على مكانة أهل الكفاءة، وفي غمرة المغامرات الناجحة والآمال العظيمة لم يستشعر أحدٌ المآلات الطبيعية والحتمية للحُكم الاستبدادي، وما يترتَّب على ذلك من ضعف النظام السياسي للدولة ككلٍّ، وعدم قدرتها على إنفاذ سياساتها الطموحة؛ نتيجة افتقارها إلى وجود التنظيم السياسي الجماهيري الفعَّال في ظل تمَدُّد وسيطرة نفوذ الأجهزة الأمنية، كان عقد الخمسينات هو عقد الطموحات العصامية المشروعة، وكان عقد الستينات هو الحصاد المادي المُرَّ للتجربة.

---

(1) محمد نجيب: كنت رئيسًا لمصر، الفصل الثاني: سنوات الخدمة، صفحة 61.

ستينات الأزمات والهزائم

بـدأت مسـارات السـتينات بأشـجع أحـلام، لتنتهـي بأثقـل كوابيـس المـشروع الوطنـي المـصري، تجـلَّى ثِقَـل الكابـوس السـتيني في ازدواج تناقضاتـه بـين الشـعار والممارسـة والمـآلات، فقـد كان عـلى مسـتوى الشـعار ذروة المـشروع الوطنـي واكتـمال ملامـح طريقـه، فقـد بـدأ والجمهوريـة العربيـة المتحـدة موجـودة بالفعـل وليسـت حلـمًا، ومعـه لم تَعُـد الوطنيـة شـعارات برَّاقـة عامـة، بـل تبلـورت ملامـح مشروعهـا السـياسي والاجتماعـي، فصيغـت مـا سـميت بالاشـتراكية العربيـة كمـشروع سـياسي تنفـذه قاعـدة طبقيـة واجتماعيـة تسـمَّى تحالـف قـوى الشـعب العامـل، الـذي يتكوَّن مـن الفلاحـين والعـمال والجنـود والمثقفـين والرأسـمالية الوطنيـة، ويقـوده التنظيـم السـياسي الواحـد وهـو الاتحـاد الاشـتراكي العـربي، مـع صياغـة وإقـرار ميثـاق العمـل الوطنـي كأول وثيقـة نظريـة رسـمية تتبنَّاهـا الدولـة المصريـة، وتصبـح مُلزِمَـة لهـا وتحـدِّد ملامـح خطهـا السـياسي والأيديولوجـي، بـصرف النظـر عـن رفعـة مسـتواها النظـري أو درجـة عمقهـا.

لكـن عـلى مسـتوى الواقـع والممارسـة، كانـت السـتينات حصـادًا للمشـكلات البنيويـة التـي وُلِـدَت بميـلاد الجمهوريـة اليوليويـة، فمـع بداياتهـا انهـارت الوحـدة مـع سـوريا بنحـوٍ دراماتيـكي، وبـدأت تظهـر عـلى السـطح آثـار الفسـاد وعـدم الكفـاءة الإداريـة، الناتجـان عـن زيـادة حظـوظ أهـل الثقـة والعسـكريين داخـل الجهـاز الإداري للدولـة عـلى حسـاب أهـل الاختصـاص طـوال عقـد الخمسـينات، تزامـن مـع ذلـك تحـوُّل كل الوسـائل الإعلاميـة المصريـة إلى وسـائط خاضعـة للسـيطرة التامـة للدولـة، وتحـت رقابـة صارمـة مـن الأجهـزة الأمنيـة، حتـى أصبـح مـن الصعـب حتـى التعقيـب عـلى أداء مسـؤولين مـن الـكادر الوسـيط في الدولـة، وأصبـح الـوزراء والقـادة السياسـيون الكبـار فـوق أي نقـد، وصـار بالطبـع رئيـس الجمهوريـة في منزلـة الأنبيـاء والرُّسُـل، وذلـك في إطـار سياسـة إعلاميـة ترتكـز عـلى الدعايـة الفجَّـة والنفـاق المُمَنهَـج للسـلطة دون أي رادع أو حيـاء، تحـت دعـوى رفـع الـروح المعنويـة للجماهـير، وإلى حَـدٍ وصلـت فيـه مسـتويات الكـذب والدجـل إلى مرحلـة الترويـج لإنجـازات صناعيـة وتكنولوجيـة وعسـكرية لم تكـن موجـودة مـن الأصـل.[1]

---

(1) حمل مانشيت جريدة الجمهورية في 25 يناير 1964 عنوان "برنامج الجمهورية العربية لغزو الفضاء"، مصر

مُلابَسات قرارات التأميم

لكـن إذا نحَّينـا الشـعار والممارسـة وذهبنـا إلى الـضرورات التـي حكمـت سياسـات المرحلـة، سـنجد أبرزهـا هـو توجُّـهٌ نحـو التصنيـع لحـل الأزمـة الاجتماعيـة المتفاقمـة ومحاربـة الفقـر وجعـل التنميـة تقـف عـلى قدمـين. كانـت تلـك هـي الـضرورة المادية بـصرف النظـر عـن الدعايـات الأيديولوچيـة، وهـذه الـضرورة هـي التـي حكمـت توجُّهـات وتَصرُّفـات عبـد النـاصر، فملابسـات الصـدام مـع الإمبرياليـة في الخمسـينات سـبَّبَت وقـف تدفُّقـات الاسـتثمارات الأجنبيـة إلى مـصر، وكان قـرار تأميـم قنـاة السـويس ورد الفعـل العـدواني الأنجلـو فرنـسي عليـه قـد دفـع مـصر إلى تأميـم رؤوس الأمـوال الإنجليزيـة والفرنسـية في نفـس السـنة، ثـم أعقـب ذلـك عـام 1960 تأميـم الاسـتثمارات البلچيكيـة؛ ردًّا عـلى تدخُّـلات بلچيـكا في الكونغـو، وإطاحتهـا بنظـام حكـم باتريـس لومومبـا الوطنـي التحـرري. حالـة تصاعـد العـداء تلـك مع الرأسـماليات الغربيـة حرمـت مـصر مـن أدوات تطوير الصناعـة بالنحو الرأسـمالي السـوقي التقليدي، في الوقـت التـي أحجمـت فيـه الرأسـمالية الصناعيـة المصريـة عـن المخاطـرة بالتوسُّـع في المشـاريع الطموحـة التـي أرادتهـا دولـة يوليـو، في ظـل طبيعتهـا المـتردِّدة والجَشِـعَة، وفي ضـوء بنيتهـا المتخلفـة مـن الأصـل.

يوضِّـح عـادل العمـري هـذا التناقـض في كتابـه "الناصريـة في الثـورة المضـادة" بقولـه إن حـوار الطرشـان قـد دار بـين الدولـة ورجـال الصناعـة. فالدولـة تطلـب مـا لا يسـتطيع التاجـر- الصناعـي أن يقدِّمـه، ولم توفِّـر هـي المنـاخ الملائـم لرجـل الصناعـة الحقيقـي. ومـن الجهـة الأخـرى كان رجـل الصناعـة يطالـب الدولـة بمـا لا تسـتطيعه ويطالبهـا بـأن تكـون دولتـه هـو بالـذات، ولم يكـن قادرًا عـلى انتزاع السـلطة السياسـية لحسـابه، وفي غيـاب رأس المـال الأجنبـي، لم تكـن الناصريـة قـادِرةً عـلى المحافظـة عـلى عمليـة التنميـة في نفـس الإطـار الاجتماعـي إلا بأخـذ المبـادرة مـع تنفيـذ الإصلاحـات الاجتماعيـة وقمـع رجـال الأعـمال.[1]

لـذا بـدا الأمـر حتميًّـا؛ فطموحـات الدولـة التصنيعيـة لم يكـن في مقـدور البرچوازية الصناعيـة أن تُلبِّيهـا، وكانـت تحتـاج إلى مُراكَمـة رؤوس الأمـوال المحليـة الموجـودة

ثالث دولة في العالم بعد الاتحاد السوفييتي وأمريكا تصنع صواريخها بنفسها.

(1) عادل العمري: الناصرية في الثورة المُضادَّة، صفحة 227.

وتوجيهها بنحو مُخطَّطٍ ومركزي وفقًا لخطة خمسية مُعدَّة سلفًا، ومن الزاوية السياسية كانت الطبيعة الاستبدادية والعسكرية للنظام عاجزة أيضًا عن خلق أطر للتفاوض والحوار مع القوى المجتمعية ولا سيما رجال الأعمال، وتناقَضَت هذه الطبيعة بالتعريف مع إمكانية تنسيق سياسي اقتصادي دقيق مستدام؛ لأن ذلك يتطلَّب من الأصل وجود إطار سياسي ديمقراطي وتشارُكي تتم من خلال قنواته هذه العملية التي من سماتها الجذب والشد والمساومة والحلول الوسط، وكانت الدولة اليوليوية قد عزمت على تشكيل نفسها سياسيًّا كنسخة مخفَّفة مُشوَّهة من روسيا السوفيتية، وبالتالي فإن شرط استمرار قدرتها على احتكار القرار السياسي هو السيطرة الكاملة على وسائل الإنتاج كافَّة، وهنا تلاقت الضرورة المادية للتصنيع وحتمية تدخُّل الدولة ولعب دور القائد والمنظم له، مع الميل السياسي لدولة يوليو إلى احتكار الثروة العامة لضمان عدم مزاحمة أي قوة اجتماعية لها، فكان حاصل ذلك هو ما سُمِّي بقرارات يوليو الاشتراكية التي صدرت في 23 يوليو 1961، والتي تمَّ بموجبها تأميم العديد من الممتلكات الخاصة للرأسمالية الكبيرة والمتوسطة.

فشل الخطة الخمسية وصعود العسكرة

لم تنجح خطة الدولة الخمسية 1960 - 1965 وكان فشلها فشلا فوضويًّا، عَزَاه إبراهيم فتحي إلى طبيعة رأسمالية الدولة نفسها؛ ففوضى الإنتاج جزءٌ جوهري من منطق رأسمالية الدولة وليس مجرد خلل عارض ناشئ عن وجود العلاقات الرأسمالية الخاصة.[1] فالخطَّة حقَّقت 55 % من المستهدف في القطاع الصناعي، و13 % فقط من المستهدف في القطاع الزراعي، في حين حقَّقَت 135 % من المستهدف في قطاع الخدمات،[2] بما يشكِّك في كونها خطة من الأصل، فالإنتاج في مصر تتحكَّم فيه الطلبيات التي تتَّسِع لها "السوق"، وهي تتجه لإشباع الطلب الذي يخلقه التفاوت الهائل في الدخول، وهو طلب الطبقات الوسطى المدينية تحديدًا التي داعبتها الدولة اليوليوية واعتبرتها النموذج الذي يتمحور حوله

(1) الرفيق حداد: طبيعة السلطة البرجوازية في مصر، 1970.

(2) ط.ث شاكر: قضايا التحرُّر الوطني والثورة الاشتراكية في مصر، ص 113.

باقي المجتمع، فتتَّجه الدولة لصناعة الكماليات مثل السيارات الخاصة والأجهزة المنزلية، وتدَّعي أنها صناعة محلية بالكامل، في حين أنها اعتمدت على سلع وسيطة وأساسية، معظمها مستورد وباهظ التكاليف.[1]

ترافق مع ما سبق صعودٌ طاغٍ لدور القوات المسلحة في الحياة المدنية، سأذكر فقط بعضًا من تجليَّاتها الكاريكاتيرية الفَجَّة، مثل رئاسة المشير عبد الحكيم عامر نفسه للاتحاد المصري لكرة القدم بين عامَيْ 1958 و1966، وبصفته مُشجِّعًا متحمسًا لنادي الزمالك؛ عَيَّن أخاه حسن عامر رئيسًا للنادي، بدءًا من عام 1962، في حين أن الفريق عبد المحسن مرتجي قائد جبهة سيناء في مصيبة حرب 1967 كان في نفس لحظة قيادته الكارثية تلك رئيسًا للنادى الأهلي ما بين ديسمبر 1965 ويوليو 1967.

يقول المؤرِّخ العسكري وعضو الضباط الأحرار جمال حماد، إن عبد الحكيم عامر أصبح مع الوقت رئيسًا موازيًا لمصر، لدرجة أن التعيينات في المناصب الكبيرة في جهاز الدولة كانت تتطلَّب إخطارَ وموافقة القوات المسلحة، وهو ما عبَّر عنه سامي شرف سكرتير جمال عبد الناصر للمعلومات بأنه في أعقاب انتهاء أزمة [2]1962 بين ناصر وعامر بدأ ظل المؤسسة العسكرية يرفرف على قطاعات كبيرة من مصر 1962 [3]، وبدأ الجيش في الدخول على خطوط تماس السياسة الداخلية بتهوُّر، فكان الطرف الرئيسي في لجان تصفية الإقطاع كما حدث مع قرية كمشيش[4] التابعة لمحافظة المنوفية عام 1966 وتسابَقَت المخابرات الحربية مع أجهزة أمنية أخرى في الكشف عن التنظيم الجديد للإخوان المسلمين عام

(1) الرفيق حداد: طبيعة السلطة البرجوازية في مصر، 1970.

(2) في عام 1962 نشب خلاف بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بعد تشكيل الأول لمجلس رئاسي يختصُّ في أحد أعماله بنظر ترقيات ضباط القوات المسلحة إلى ما فوق رتبة عقيد؛ ما اعتبره عامر تدخُّلًا في شؤون عمله، وتقدم على إثره باستقالة سياسية مُسبِّبة في صورة بيان تمَّ توزيعه داخل القوات المسلحة، أشار فيه إلى غياب الحريات الديمقراطية؛ ما أثار بلبلة داخل الجيش بنحوٍ جعل جمال عبد الناصر يتراجع عن مقترحاته السابقة، ليعود عبد الحكيم عامر إلى موقعه السابق في وضعٍ أقوى بكثير، وبسلطات أعلى.

(3) موت الرجل الثاني: فيلم وثائقي، الجزء الثاني، إنتاج قناة الجزيرة.

(4) في عام 1966 اعتدت عائلة الفقي الإقطاعية على أراضي فلَّاحي قرية كمشيش بمحافظة المنوفية الذين حصلوا على أراضٍ من خلال إجراءات الإصلاح الزراعي، واغتالت المناضل الفلَّاحي اليساري صلاح حسين. فردَّت السلطة بمنتهى القسوة على عائلة الفقي، وحاكمتهم عسكريًّا في ظل حملة إعلامية شَرِسَة تطالب بتصفية بقايا الإقطاع، وسرعان ما تمَّ رَدُّ الاعتبار قانونيًّا وإعلاميًّا لعائلة الفقي مع بداية عهد السادات.

1965، ومـع الوقـت أصبحـت القـوات المسـلَّحة كمؤسَّسـة طرفًـا سياسـيًّا أساسـيًّا في صراعـات الأجنحـة داخـل السـلطة.

أمـام هـذا النفـوذ المُتزايـد لعبـد الحكيـم عامـر والجيـش، وفي ظـل ضعـف التنظيـم السـياسي للاتحـاد الاشـتراكي الخاضـع لجـمال عبـد النـاصر وتحوُّلـه فعليًّـا إلى كيـان فضفـاض متضخِّـم بعـدد كبـير مـن النفعيِّـين والانتهازيِّـين والمتذيِّلـين للدولـة دون أي أسـاس عقائـدي، شرع عبـد النـاصر في مواجهـة هـذا الوضـع الشـاذ بمسـلك سـياسي أكـثر شـذوذًا وغرابـة ربمـا لم يعرفـه مـكان آخـر سـوى مـصر، فقـد أسَّـس عبـد النـاصر بنفسـه تنظيـمًا سياسـيًّا سريًّـا يسـمَّى "طليعـة الاشـتراكيين" تحـت دعـوى تجنيـد العنـاصر الصالحـة للقيـادة وتنظيـم جهودهـا بنحـو عقائـدي ومُتماسِـك في ظـلِّ عجـز الاتحـاد الاشـتراكي عـن القيـام بهـذا الـدور، وقـد احتـوى هـذا التنظيـم عـددًا مـن قيـادات الدولـة الموثـوق بولائهـم، بالإضافـة إلى عـدد مـن الكـوادر السياسـية الشـابة وعـدد مـن الكـوادر الشـيوعية التـي قَبِلَـت التعـاون مـع النظـام، وكان الأمـين العـام لهـذا التنظيـم هـو شـعراوي جمعـة وزيـر الداخليـة نفسـه!

البرچوازية البيروقراطية ونُذُر الهزيمة

وفي السـياق السـتيني هـذا نشـأت البرچوازيـة البيروقراطيـة كفئـة اجتماعيـة جديـدة في مـصر، تمكنـت مـن إرسـاء دعائـم سـيطرتها الطبقيـة، فتحجيـم ومطـاردة رأس المـال الخـاص لم يعـنِ أن رأسـمالية الدولـة الجديـدة ليسـت برأسـمالية. الدولـة أصبحـت المالـك الرئيـسي لوسـائل الإنتـاج باسـم الشـعب، لكـن عـبر طبقـة مـن المديريـن ورؤسـاء المؤسَّسـات والعسـكريين الكبـار الذيـن كانـت أجورهـم تصـل إلى 33 ضعـف الحـد الأدنى للأجـور. وهـي فعليًّـا لم تكـن أجـورًا، بـل كانـت أرباحًـا، أو قُـل ريـع إدارة مؤسسـات عامـة بـصرف النظـر عـن قدرتهـا عـلى تحقيـق ربحيـة مـن عدمـه، فضـلًا عـن امتيـازات ماديـة ومعنويـة كبـيرة، فمـع البرچوازيـة البيروقراطيـة خلـق مفهـوم "قـوة الكارنيـه" الـذي سـيتصادم لاحقًـا مـع "قـوة الجنيـه" الممثَّـل في رأس المـال الخـاص.

لم تسـتطع البرچوازيـة البيروقراطيـة مُراكَمَـة رؤوس أمـوال خاصـة بهـا نظـرًا إلى طبيعـة وضعهـا كجـزء مـن النسـيج الرئيـس لجسـم الدولـة، فلـم يكـن مسـموحًا لـرأس

المال الخاص بالعمل أصلًا، فَضلًا عن تضارُب المصالح وسؤال من أين لك هذا؛ لذا عمد كثير من عناصرها إلى تهريب أموالهم إلى الخارج لاستثمارها في خمائر مالية؛ استعدادًا للعودة إلى السوق المصرية في حال "انفتاحها"، وهو ما حدث لاحقًا بالفعل، أو بتخبئة تلك الأموال داخل ثروات الأسرة والأقرباء في شكل ثروة عقارية أو سِلَع نادرة قابلة للتسييل.

البرچوازية البيروقراطية أو أصحاب الكارنيهات، صعدوا في ظل سيادة أعلى الخطابات الرسمية عن العدالة الاجتماعية وأكثرها ضجيجًا، بنحوٍ نفَّر الناس من الشعارات الرَّنَّانة، خاصة بعد أن صاحَبَت تلك الشعارات أزمات اقتصادية واضحة كأزمة الأرز والسُّكَّر عام 1966. فبعد فشل الخطَّة الخمسية الأولى، بدأت الدولة تدرك أبعاد الورطة وبدأت في اتِّباع سياسات أكثر تقشُّفية، ترتَّبَت عليها ندرة بعض السلع وارتفاع ثمنها، وأطلق جمال عبد الناصر نفسه في نفس العام سلسلة من المقولات الجربوعية الأولى لدولة يوليو، تتمحور حول لوم الشعب وتحميله مسؤولية سوء أحواله التي تتردَّد من وقتها وحتى الآن، مقولات من نوع "وانا اجيبلكم منين... ما انتم اللي بتخلِّفوا كتير"؛ لذا لمَّا استفحلت تلك الأزمات بدأ الناس في إطلاق النِّكات والسخرية المريرة من الوضع. فيروي أحمد فؤاد نجم في مذكِّراته[1] قصة الرجل الذي اشترى كُرُنبَه في ظل أزمة تناقُص الأرز في الأسواق، وبينما كان عائدًا إلى بيته سأله جاره في الشارع متهكِّمًا بأي شيء سيحشي كُرُنبَتَه فأجاب "هاحشيها كفاية وعدل" وكانت الكفاية والعدل وقتها هي تعريف الدولة اليوليويَّة للاشتراكية، وأُلقِي القبض على صاحب النكتة بالطبع.

وظنِّي أن العامَيْن اللَّذيْن سبقا هزيمة 1967 كانا شديدَيْ الثِّقَل على المصريين، فمن زاوية بدأت الأزمات الاقتصادية تظهر بوضوح وتنعكس على معيشتهم مباشرة، ومن زاوية ثانية ساد الخوف على مصير البلاد بعد أن شعر الناس بنُذُر الانسداد السياسي وصراعات القوى الأمنية والمؤسسية، وبدؤوا في الهمس الخائف وسط سيطرة مُحكَمَة جدًّا على إعلام يبثُّ خطبًا رنانة لا يجد الناس لها مردودًا في الواقع، لدرجة نفَّرت قطاعات واسعة من المصريين من اللغة السياسية بالمُجمَّل، وكل ما يتعلَّق بالفصاحة أو البلاغة.

(1) أحمد فؤاد نجم - الفاجومي: من حلقات مجلة روز اليوسف في أبريل 1993.

حين يأتي الأمر للفترة التي سبقت هزيمة 1967 مباشرة لا أنصح بسؤال المثقّفين أو السياسيين المعاصرين لها، في الغالب ستكون شهادتهم مشوَّشة بأثر الهزيمة فيهم لاحقًا، وأثرها في انحيازاتهم ورؤاهم التي أصابها الارتباك بسبب المُصاب الجَلَل؛ لذا كنت حريصًا دائمًا على سؤال معارف وأقرباء ومواطنين من عوام الناس من غير أصحاب الهوى السياسي، وغالبهم حكى لي عن سيادة إحساس باقتراب أزمة كبرى تلوح في الأفق، بعضهم تصوَّرها فتنًا طائفية واسعة وبعضهم تصوَّرها صدامًا واضحًا على السُّلطة من داخل أركانها، إلا أنه كان يوجد شبه إجماع على استبعاد سيناريو هزيمة عسكرية مُذِلَّة أمام إسرائيل، فأبناء هذا العالم في التحليل الأخير هم أبناء لحظة 1956 التي استطاعت مصر فيها النجاة من عدوان ثلاثي بقيادة قوى عظمى؛ لذا لم يكن أكثر المتشائمين سوداويَّةً يتخيَّل هزيمة من هذا النوع أمام ذيل الاستعمار الجديد.

"شعرنا كأن السماء انهارت فوق رؤوسنا" هكذا قال المفكر الراحل محمد السيد سعيد.[1] كان المصاب ثقيلاً وغير مُتَوقَّع، كانت طعنة في مقتل، فالهزيمة كانت في المعركة الوطنية المُجمَع على شرعيتها من الجميع، بعد النيل من كرامة المصريين باسم استرداد كرامتهم وزرع مُركَّبات الخوف والهزيمة داخلهم باسم أحلامهم المشروعة بالمواطنة والحرية والعدالة. فقد المصريون ثقتهم بأنفسهم لحدود استثنائية، وكان الوضع السياسي أكثر وَهَنًا وهشاشة من أن تكون الهزيمة سببًا في تغيُّرات كبيرة وجذريَّة تطال بنية الدولة، حيث اختلطت المعاني، ولم يَعُد يوجد فارق بين مفهوم رفض الهزيمة وبين تأييد الدولة التي جلبت الهزيمة في أبشع صورها، كانت هزيمةً جماعية فتحت أبوابًا لم تغلق حتى الآن.

سبعينات الطَّور الثاني من الجمهورية اليوليوية

قد يملُّ البعض من إلحاحي على تعيين هزيمة 1967 كمحطة مفصلية شديدة المركزية في التاريخ المصري المعاصر، رسمت مستقبل هذا البلد مدَّةً امتدَّت لأربعة عقود. فالهزيمة حوَّلَت الخيارات السياسية للدولة وما تَرتَّب عليها من آثار اجتماعية من كونها خيارات نابعة من مشاريع ورؤى منحازة إلى تصوُّرات

(1) حوار لمجلة البوصلة، العدد الأول، مايو 2005.

بعينها عـن المسـتقبل، إلى مـا يشـبه مصيرًا حتميًـا يواجـه كتلـة مـن البـشر تعيـش في مأسـاة تخبُّـط ممتـدَّة. لقـد وسـمت الهزيمـة المسـتقبل الـذي تلاهـا بسِـمات الاضطـرار وضيـق الوقـت والإمكانيـة ومحدوديـة هوامـش المنـاورة. فخُفِضَـت السـقوف والآمـال موضوعيًّـا خفضًـا عنيفًـا، وأصبـح بقـاء الدولـة والمجتمـع متماسـكين هدفًـا في حَـدِّ ذاتـه، بـصرف النظـر عـن صِيَـغ البقـاء تلـك وطعومهـا في الحلـوق.

عـلى المسـتوى العسـكري نـزل سـقف الشـعار التحـرُّري مـن تحريـر كل فلسـطين إلى شـعار أكـثر غموضًـا وإبهامًـا هـو إزالـة آثـار عـدوان 1967، وأصبحـت الخيـارات الاقتصاديـة للدولـة إمَّـا محكومـة ومـبررة بـضرورات ومتطلبـات الإنفـاق الحـربي، أو محكومـة لاحقًـا بالآثـار المترتِّبـة عـلى ضخامـة هـذا الإنفـاق وثقله عـلى الموازنـة العامَّة. أصبحـت لغـة الاضطـرار هـي عنوان الجـدل، أو بمعنـى أدق العائق أمامه، فخيار السـلام مـع إسرائيـل وإن تـمَّ الترويـج شـعبيًّا لـه عـلى اعتبـاره سـيجلب الرخـاء والاسـتثمار الأمريـكي، إلا أن العِلَّـة المُتَّفَـق عليهـا بـين أوسـع قطـاع مـن النـاس كانـت تتمحـور حـول طلـب اسـتراحة مـن الحـروب المتتاليـة وتجنُّـب خسـائرها البشريـة والاقتصاديـة، ولم يتـم الترويـج لسياسـات الانفتـاح الاقتصـادي عـلى اعتبارهـا خيـارًا اقتصاديًّـا سـليمًا في حـد ذاتـه، عـلى مسـتوى الرؤيـة والمنهـج والأثـر الاقتصـادي المسـتقبلي، بـل عـلى اعتبـاره مدخـلًا للبحبوحـة والراحـة بعـد سـنواتٍ عِجـاف مـن التقشُّـف والإمسـاك المـالي والاسـتهلاكي. في قـولٍ أكـثر حـدَّة، راحـت الدعـاوى التـي سُـوِّغَت باسـم العمليـة والاضطـرار، الناتجـة عـن الـشرط الموضوعـي الـذي يواجـه الدولـة والمجتمـع في حينـه، تهاجـم كل نزعـة مبدئيـة متماسـكة عـلى اعتبارهـا مقـولات حالمـة وطنطنـات خطابيـة فارغـة لا تجلـب سـوى الفقـر، وجـرى اسـتمراء تسـويغ خيـارات يمينيـةِ التوجُّـه عـلى المسـتوى الاقتصـادي والقِيَمـي باسـم العمليـة والواقعيـة واللحـاق بالعـالم الغـربي، مـع وصـم أي خيـار آخـر -أيًّـا كان- بعـدم الواقعيـة والإغـراق في عنتريـات المثقفـين ذوي الميـل اليسـاري والاشـتراكي. بمعنـى مـن المعـاني: تـم تدشـين مدرسـة عدميـة سياسـية باسـم الواقعيـة، الانحيـازات المبدئيـة هوجِمَـت كشـعارات فارغـة وسـبب في هزيمـة 67، وتـمَّ قبـول مـا لا قبـول لـه عـلى المسـتوى المنطقـي والأخلاقـي باسـم الـضرورة والواقعيـة، مـن دون أن يترتَّـب عـلى ذلـك حصـاد مُثمِـر يتناسـب مـع التضحيـات الناتجـة عـن طبيعـة الخيـارات الجديـدة. انخفضـت السـقوف تدريجيًّـا حتـى وصلنـا إلى مرحلـة الفخـر بحفـر نفـق أو بنـاء كوبـري أو اسـتزراع أسـماك. باختصـار شـديد:

وجدت الجربعة لنفسها مرة أخرى مَوطِئَ قدمٍ متماسكًا على مستوى الخطاب السياسي وتجلياته الاجتماعية.

الأفق السياسي لطور إدارة البقاء

تبدأ قوة أي نظام مأزوم في تنمية قدرته على البقاء من حيث يدرك طبيعة الأرض التي يقف فوقها وحدود قدراته الحقيقية. مهما كان نظامًا ضعيفًا وهشًا، فمن إدراكه الفَطِن المحسوب لأوضاعه يستطيع أن يبني طبيعة سلطته وأدواتها المهيمنة وخطاباتها المعلنة، ليس مهمًّا مدى عمق الخطابات أو تماسكها أو سلامتها، بل قدرتها على المساهمة في تحقيق هدف الحكم نفسه، وهو الاستمرار في الحكم.

أدَّعي أن الجمهورية اليوليويَّة كانت صادقة على مستوى الشعار فيما قبل هزيمة 1967، لكنها كانت صادِقةً صدقًا عاجزًا عجزًا بنيويًّا لا فكاك منه بفعل تناقضاتها الطبقية وصيغتها السياسية الهشَّة التي لا تستطيع إنجاز شعاراتها الطموحة. هذا العجز عن تحقيق الأهداف المُعلَنة هو ما جعل هزيمتها مُزَلزِلَة، وجعل تواري طورها الأول سريعًا، فلم يستمرَّ لأكثر من خمسة عشر عامًا، في حين امتدَّ طورها التالي لأكثر من نصف قرن. لقد كانت سياسات دعم حركات التحرُّر الوطني في العالم التي تبنَّاها جمال عبد الناصر سياسات صادِقَة ومبدئية ولا سيَّما دعم حركات التحرُّر الوطني في إفريقيا، ولم يكن كذلك إيمان جمال عبد الناصر بالنظام السياسي القائم على سيطرة التنظيم السياسي الواحد عبر صيغة تحالُف قوى الشعب العامل مَردُّه الوحيد هو رغبته في الاستئثار الاستبدادي بالسلطة، بل كان أيضًا إيمانًا بأنه الضمانة وحيدة لتمكين الجماهير الشعبية التي لا صوت لها في عملية ديمقراطية تعدُّديَّة سيطرت عليها في الماضي البرچوازية وشبه الإقطاع الزراعي، وكانت سياسة الإحلال محلَّ الواردات والاعتماد على الذات في عملية التنمية الرأسمالية أشبه بالعقيدة المُكمِّلة لمعنى الاستقلال الوطني. كل ما سبق كان منحى أصيلًا داخل تصوُّرات الطور الأول للجمهورية اليوليوية- وعلى العكس لم أَرَها قَطُّ شعارات كاذبة طنَّانة، بل طموحات لم تمتلك الأساس المادي ولا الجرأة العقائدية والسياسية لإتمام عملية تطورها. الطور الأول من

الجمهوريـة اليوليويـة كان عاجـزًا أكـثر مـمًا كان كاذبًـا؛ لأننـا سـنعرف الكـذب والدجـل السـياسي وقتـما سـيجد طريقـه إلى السياسـة المصريـة لاحقًـا، حـين يعلـن النظـام أنـه نظـام تعـدُّدي شـبه ديمقراطـي يسـتمد شرعيتـه مـن انتخابـات نزيهـة، في حـين أنـه ابتعـد عـن السياسـة مـن الأصـل وأصبـح القـرار السـياسي الحقيقـي والجـاد والعقـلاني مملـوكًا حصريًـا للأجهـزة الأمنيـة وجدالاتهـا الداخليـة، وحـين يصبـح مفهـوم الـرأي السـياسي والـرأي الآخـر محكومًـا بحـدود التنفيـس والتسـلية أكـثر منـه عمليـة غرضهـا بنـاء رأي عـام نافـذ الإرادة. سـيعرف الدَّجَـلُ السـياسي مكانـه في وعـي السـلطة حـين تعتقـد وتؤمـن كذبًـا بأنهـا تتبنَّـى سياسـات ليبراليـة اقتصاديـة وتحـاول فتـح السـوق للمنافسـة الرأسـمالية، في حـين أنهـا المسـتفيد الأول مـن اسـتمرار سـيطرة البرچوازيـة البيروقراطيـة عـلى مقـدَّرات البـلاد واحتـكار السـوق وبنـاء رأسـمالية إمَّعـة مسـاندة وتابعـة، تتكسَّـب في أجـواء غـير شـفافة، لا تعـترف بالمنافسـة الحـرة ولا حكـم القانـون، ليتكـوَّن تحالُـف يخـشى الليبراليـة الاقتصاديـة الحقيقيـة أكـثر مـمًا يخـشى الجماهـير التـي سـتتضرَّر مـن تلـك السياسـات الليبراليـة.

ورث السـادات مـن سـلفه عبـد النـاصر نظامًـا مهزومًـا مهتـزًا، لم تَعُـد شرعيتـه ترتكـن في كثـير مـن جوانبهـا إلا عـلى الشـعبية الطاغيـة للزعيـم التـي ذهبـت بوفاتـه، وصـف السـادات نفسـه عشـية اسـتلامه للسـلطة بعـد رحيـل جـمال عبـد النـاصر بالمربـوط عـلى قضبـان سـكك حديديـة وينتظـر قطـارًا مسرعًـا، كان وعـي السـادات -كقائـد سـياسيٍّ- وعيًـا غـير مفـارق لوعـي رفاقـه اليوليويِّـين مـن رجـال الصـف الأول في هـرم السـلطة، فهـو كان يـدرك أن تغـيُّرات كبـيرة يجـب أن تحـدث بعـد أن أصبـح بقـاء النظـام والدولـة عنـوان شرعيـة اسـتمراره وهدفًـا في حـد ذاتـه، وليـس وسـيلة مـن أجـل إنجـاز مسـيرة تحديـث وتقـدم العمـل الوطنـي. لا أعتقـد أن أنـور السـادات كان يؤمـن وقتهـا بـأن مـا اعتـبره هـو إصلاحـات سـيكون بمثابـة وثبـة نحـو التقـدم أو الرخـاء والخـروج مـن عنـق الزجاجـة كـما ادَّعـى، فقـد أدارت الدولـة اليوليويـة تحالفاتهـا الاجتماعيـة بغـرض مُعلَـن وهـو محاولـة إبقـاء الدولـة والنظـام والشـعب ككتلـة متجانِسَـة واحـدة قـدر الإمـكان، وبغـرض أعمـق وهـو محاولـة إبقـاء سـلطة البرچوازيـة البيروقراطيـة أطـول زمـن ممكـن وبأقل تكاليـف في ذات الوقـت، وكان شرط ذلـك هـو عـدم تبنِّـي سياسـة مبدئيـة متماسـكة، بـل اعتـماد مبـدأ الطفـو السـياسي

فوق الأزمات، وهو الأمر الذي أجاده حسني مبارك ببراعة طوال فترة حكمه التي امتدَّت لثلاثين عامًا.

الفارق الرئيس بين السادات وبين رفاقه الأضداد بقيادة علي صبري[1] كان في قناعته أن تركيبة النظام والتحالُف الاجتماعي الذي يسانده لا يمكن لها الاستمرار إلا بالاتجاه يمينًا على المستوى السياسي والاقتصادي، في ضوء قناعته التامة بأن الولايات المتحدة تمتلك 99 % من أوراق اللعبة السياسية في منطقة الشرق الأوسط، في حين لم يمتلك خصوم السادات داخل أعلى هرم السلطة تصوُّرًا واضحًا عن طبيعة التغيُّرات المرجوَّة، فهم من ناحية كانوا أضعف وأكثر تردُّدًا من أن يحوِّلوا مسار الدولة نحو اليسار أكثر عبر حِلفٍ أكثر متانة مع الاتحاد السوفييتي، وفي نفس الوقت لم يمتلكوا قناعات متبلورة بشأن التغيُّرات المطلوبة لِحَلحَلَة الوضع بنحو براجماتي، فأصبحوا فعليًّا عقبة أمام التاريخ واستُئصِلوا بسهولة على الرغم من قوة مراكزهم في الدولة، فهم كانوا مراكز للقوى بالفعل.

بدأ السادات في التعامل مع أزمة نظامه الموروث بحسم الصراع السياسي المادي مع مراكز القوى أو مع من كانوا يُسَمَّون وقتها بيسار النظام، وذلك في ضربته الشهيرة في الخامس عشر من مايو 1971، وفور أن أتم ضربته السياسية الأمنية ضد رؤوس النظام المناوئين له، قَدَّم بعدها بعدة أيام في العشرين من مايو 1971 طلبًا إلى مجلس الشعب بوضع مشروع دستور جديد، سيسمَّى لاحقًا بالدستور الدائم الذي آن أوان إعداده لكي يوضع حد لشرعية الحكم الثورية التي استمرت منذ 1952 ولكي تدخل البلاد مرحلة الشرعية الدستورية وحكم المؤسسات وسيادة القانون والفصل ما بين السلطات، وسيأخذ السادات لاحقًا إجراءات أكثر تفصيلية في هذا الشأن بإنشاء المحكمة الدستورية العليا في عام 1979.

---

(1) علي صبري: (1920 - 3 أغسطس 1991) من قادة الصف الثاني لتنظيم الضباط الأحرار وكان محل ثِقَة جمال عبد الناصر، لعب أدوارًا سياسية مختلفة، فشغل منصب رئيس المخابرات بين عامَيْ 1956 و1957 ورئيس الوزراء بين عامَيْ 1962 و1965 ونائب رئيس الجمهورية عدَّة مرات، آخرها عشية إجراءات مايو 1971 التي قام بها أنور السادات، وعرف عن علي صبري تأييده للخط السوفييتي ولسياسات أكثر اشتراكية حتى أصبح الممثل الأبرز لما سُمِّي يسار النظام.

كان إتمام دستور 1971 هو أول خطوات الطَّور الثاني من جمهورية يوليو في اتجاه اتخاذ إجراءات سياسية مهمَّة تحت شعارات وخطابات بعينها، في حين كان غرضها المادي المحض يتناقض بحدَّة مع الشعار المُعلَن، وهو ما رسم سياسات الدولة اليوليوية حتى يومنا هذا، فبينما روَّج السادات لخطوة الدستور الدائم وإنشاء المحكمة الدستورية العليا بأنهما كما ذكرت سابقًا مدخل لحكم القانون وسيادته، باعتباره الضمانة الوحيدة لوجود منافسة سياسية واقتصادية حرَّة في المستقبل، كانت تلك الإجراءات في ظنِّي اضطرارية ومدفوعة بحسابات سياسية آنية في ذهن السادات اللامع واليقظ سياسيًّا، أهمها في رأيي هو إدراكه لضعف النظام وعدم قدرة مؤسسة الرئاسة على حسم كل الصراعات والخلافات داخل مركَّبات الدولة والنظام، ما يستدعي وجود نوع من المصدَّات الآمنة الكفيلة بمنع الاحتكاك بين مركبات الحكم، من أن يتحول إلى صراعات مفتوحة كما حدث في مايو 1971. فاللجوء إلى القانون والمحاكم كانا من إشكال تخفيف العبء على كاهل الرئيس الفرعون، ومنحه فرصة للمناورة والتملُّص من ضغط الأطراف المختلفة. بمعنى آخر: كانت الترجمة الفعلية لحكم القانون وسيادته هو تنظيم الصراع داخل مكونات السلطة البرجوازية البيروقراطية وحلفائها، وتهذيب تجلياتها بعد أن فقدت الرئاسة قبضتها القوية التي اتَّسم بها حكم عبد الناصر صاحب الشعبية الطاغية.

المقولة التي ستُكرَّر لاحقًا في زمن مبارك بأن "القضاء المصري هو الذي سيقول كلمته" كانت في جانبٍ منها تعني أن الرئيس غير قادر على أن تكون كلمته هي سيف الحكم العدل، في الجانب الإيجابي للأمر كان ذلك بمعنًى من المعاني نوعًا من التفكيك لقبضة السلطة الغاشمة وجعلها أكثر حذرًا وترَوِّيًا في اتخاذ قراراتها، ولكن بمعنى آخر عبَّر ذلك عن نوع من أنواع الرخاوة والوهن في اتخاذ القرارات أو الميل إلى تسويفها لأطول مدة من الزمن، أو العجز عن مواجهة استشراء الفساد المالي والإداري في جنبات الدولة؛ لذا ليس صُدفَةً أن يلتبس حتى لحظتنا هذه لدى الكثيرين مفهومُ الدولة القوية الناجزة مع مفهوم الدولة المستبدَّة الغشوم تحت سلطة السيد الواحد، فالحكم الاستبدادي هو ضمانة سيطرة رأس الدولة على أجهزتها ومنع الانحرافات فيها، فمعيار الإنجاز ونظافة اليد لدى هؤلاء يرتبط والاستبداد السياسي، ويلتبس لديهم مفهوم الجرأة

والشجاعة السياسية بالتسرُّع وعدم الدراسة، كأنها دائرة لا تنتهي لتاريخ يعيد نفسه باستمرار في صورة المأساة والمهزلة أيهما أقرب.

لكن تظل خطوة إتمام دستور 1971 خطوة رمزية واستراتيجية في بلدٍ لم يَعتَد احترام الدساتير بنحو جدِّيٍّ، فالخطوات الجذرية والجادَّة التي اتخذها السادات والتي تمس مباشرة بحياة الناس ومستقبلهم، وبشكل النظام السياسي وقواه الحقيقية، لم يستطع البدء فيها إلا بعد شن حرب أكتوبر 1973، فالحرب وحدها -وليس أقلَّ- كانت الخطوة الواحدة القادرة على تحريك الوضع، وحرب أكتوبر لم تكن مجرَّد حرب تحريك عسكرية واستراتيچية، بل كانت بالأساس حرب تحريك داخلية، ومقدِّمة عسكرية لما سيليها سياسيًّا، فلقد استهل السادات خطابه أمام مجلس الشعب في 14 أكتوبر 1973 مرتديًا زيَّه العسكري بجملة "استعاد الشعب اليوم ثقته بقواته المسلحة". جملة السادات تلك ربما كانت تتخطَّى في دلالاتها معنى الثقة بالجيش كمؤسَّسة مقاتِلة، إلى ما تعنيه مستقبلًا من استعادة دور الجيش في عملية الحكم وبناء الشرعية للسلطة السياسية التي اهتزَّت بتهشُّمه في هزيمة 1967، فالجيش بعد 1973 استعاد شرعية مكانته كأحد مكوِّنات السلطة في مصر وأهمها على الإطلاق، ورجال مثل: حسني مبارك وكمال حسن علي[1] وعبد الحليم أبو غزالة ويوسف صبري أبو طالب[2] وسعيد الماحي، وآخرين ممَّن سيلعبون أدوارًا سياسية محورية -مدنيَّةً وعسكرية- لم يكونوا منتمين إلى دولة 23 يوليو بالمعنى السياسي والعقائدي، فهم لم يكونوا أبناء لتنظيم الضباط الأحرار، بل كانوا عسكريين محترفين من جيل حرب أكتوبر الذي أعلن السادات أنه مَن سيحمل راية ولواء الدولة المصرية في المستقبل.

---

(1) كمال حسن علي: (18 سبتمبر 1921 - 27 مارس 1993) أحد ألمع العسكريين المصريين، وصل إلى رتبة فريق، كان مديرًا لسلاح المدرعات في حرب أكتوبر 1973، ثم رئيسًا لجهاز المخابرات العامة عام 1975، ثم وزيرًا للدفاع عام 1978، ورئيسًا للوزراء ووزيرًا للخارجية بين عامي 1984 و1985.

(2) يوسف صبري أبو طالب: (24 مايو 1929 - 29 سبتمبر 2008) عسكري مصري، شغل منصب قائد مدفعية الجيش الثالث في السبعينيات ثم عُيِّن محافظًا للقاهرة بين عامي 1983 و1989، ثم وزيرًا للدفاع وقائدًا عامًّا للقوات المسلحة خلفًا للمشير عبد الحليم أبو غزالة ما بين عامي 1989 و1991.

الإجراءات السياسية والاقتصادية لإدارة البقاء

لم ينتظر السادات سوى بضعة أشهر أعقبت وقف إطلاق النار في 24 أكتوبر 1973 حتى أصدر "ورقة أكتوبر السياسية" التي تُعتَبر آخر وثيقة سياسية مُلزِمَة تَصدُر من الجمهورية اليوليوية بعد طرحها للاستفتاء الشعبي في 15 مايو 1974، وفيها صيغت الشعارات الجديدة للنظام وملامح سياسته الأكثر يمينية ومُحافظَةً، وفي الشهر نفسه أصدر السادات القانون رقم 43 لسنة 1974 وهو القانون الذي بدأت تحت مظلّته سياسات الانفتاح الاقتصادي، وبناء المناطق الحرة التي كانت بمثابة ضربة البداية والمرشد لمجمل السياسات الاقتصادية التي اعتمدتها الجمهورية اليوليوية في طورها الثاني.

كانت مصر نظريًا في حاجة مُلِحَّة إلى رؤوس الأموال الأجنبية، ولكن تلك الحاجة لم تكن لمشكلة مالية بالأساس بقدر ما كانت لمشكلاتٍ فنية لها علاقة بشروط التقدُّم نفسه، فرأس المال الأجنبي يجلب معه التكنولوجيا، وفي التحليل الأخير وبنحوٍ حقيقيٍّ كان جزءٌ لا بأس به من الطفرة الصناعية التي حدثت في الستينات مُحرِّكها الرئيسي هو المساعدة الفنية السوفييتية الواضحة، ولما كان السادات قد غيَّر وجهته السياسية الاستراتيجية صوب الغرب، كان يجب أن يتبعه تغيُّر في شكل ونمط التنمية الرأسمالية وفتح الأسواق لرؤوس الأموال الغربية، لكن في هذا الصدد، وفي كل الأحوال، ظل في الغرفة المصرية فيلٌ كبير اسمه أننا بلد متخلِّف يفتقر إلى الكوادر والمهارات القادرة على أن تصبح رافِعةً لعملية تقدُّمٍ صناعي وتكنولوجي حقيقي، الأمر إذًا لا علاقة له بالمال أو الفقر أو توفُّر رؤوس الأموال، بل يتعلَّق بخيار اسمه: أي وجهة تنموية سنختار طريقًا للتقدُّم؟

لكن بالطبع لم تكن سياسات الانفتاح الاقتصادي التي أطلقها السادات قاطِرةً لتنمية اقتصادية جادَّة، بل كانت سببًا في جلب فوضى اقتصادية واضحة حتى في سنينها الأولى، وذلك على الرغم من الرواج الاستهلاكي الذي صاحبها، وبحيث سمَّاها الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين بسياسة "السداح مداح". في الواقع لم تكن مشكلة سياسات الانفتاح مشكلة جوهرية في ذاتها على المستوى الاقتصادي، ولم يكن حتى ما ترتب عليها من تأسيس سريع لطبقة رأسمالية طفيلية تدين بالولاء للبرجوازية البيروقراطية في سماحها له بفتح التوكيلات الأجنبية هي أكبر

مشكلاتها، بل كانت في أفق ومستقبل السياسة المصرية المحلية نفسها بالمعنى الاستراتيجي، فالدولة اليوليوية قرَّرت في طورها الجديد التخلِّي عن مسؤولياتها الاجتماعية بالمعنى العميق للكلمة، من غير السماح للمجتمع المدني والتنظيمات الديمقراطية بملء الفراغ الذي أحدثته هي بإرادتها الحرة، فنتج عن الأمر فوضى واضحة وعميقة في المجتمع. لقد بدأنا مع الانفتاح في مرحلة منع الدولة للعمل السياسي الحر الذي يجب أن يتوازى مع الانفتاح الاقتصادي، فقمعت الدولة السياسة للآخرين، وبل ولنفسها هي أيضًا، وأصبح هناك استبدادٌ واستئثار سياسي أمني من دون قيام الدولة بدورها، ولا بالسماح للآخرين بلعب أدوار، لقد عنى ما سُمِّي بالانفتاح اقتصادي حرية الرأسمالية الجديدة في العبث الاقتصادي في البلاد من دون منح باقي البلاد أي حرية سياسية أو حركية من أي نوع في التعامل مع هذا العبث، لقد كان تسليمًا واستسلامًا استراتيجيَّين للفساد ولطَورٍ مُنحَطٍّ من البرجوازية، وكبح لأي منطق جادٍّ في مقاومتهم، في قولٍ أوضح: كان انتصارًا حقيقيًّا ليمين النظام، وتحوُّل الدولة لحارس مستبدٍّ لمصالح البرجوازية باسم الشعب أيضًا، كان هذا هو السداح مداح بالفعل!

صحيح أن أنور السادات كان يرى أن الانفتاح الاقتصادي يتطلَّب قَدرًا من الانفتاح السياسي، لكن حدود التصوُّر الساداتي عن الدمقرطة لم يتخطَّ السماح للطبقة الوسطى بالتنفيس عن نفسها خطابيًّا، في مقابل حالة الكبت الناصري العنيف، بشرط أن يتم ذلك التنفيس من خلال الصحافة والوسائط الإعلامية والفنية والمعارضة المنضبطة، لا من خلال عملية تداول سلطة جاد؛ لذا كانت "الحرية النسبية للصحافة" هي السقف العملي للإصلاح، وهذا ما تم بنجاح في عهد مبارك بالفعل. لقد كان معنى "الديمقراطية" لدى اليوليويين الجُدُد هو السماح بهامش من حرية التعبير، وليس ممارسة حرية التنظيم ومباشرة الحقوق السياسية، وحين كانت الأزمات السياسية تحتدم، كان الطور الثاني من الجمهورية اليوليوية يكشف عن وجه استبدادٍ طاغٍ، فبعد انتفاضة الخبز في يناير 1977 اعتمد أنور السادات سياسة الاعتقال المنتظم لمُعارِضيه السياسيين، وقام بحل مجلس الشعب المُنتَخَب عام 1976 لمجرد معارضة خمسة عشر نائبًا -بالعدد- لاتفاقية كامب ديڤيد عام 1978، ثم توَّج تألُّقه الاستبدادي لاحقًا باعتقالات

سبتمبر 1981، التي طالت غالبية رموز العمل السياسي والفكري لكل التيارات، من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها، والتي أعقبها بأسابيع اغتياله هو شخصيًّا.

كانت تصوُّرات السادات عن الانفتاح السياسي محكومة بالفشل بصرف النظر عن مدى إخلاص نواياه، فطَوْرُ الحكم الساداتي كان يتطلَّب عمليًّا قتلًا للسياسة، وتجفيفًا لمنابعها، ربما أكثر من الطَّور الناصري الأكثر استبدادًا؛ وذلك لسبب بسيط جدًّا، وهو أن السياسات الجديدة للدولة لم تكن مدعومة شعبيًّا على أي نحو، فلا يمكن للجمهورية اليوليوية بنت تراث الاستقلال الوطني المصري أن تروِّج بأمانة وهِمَّة وعملٍ شعبيٍّ حقيقي لسياساتٍ تَتَّجِه نحو تعاونٍ مع الاستعمار والإمبريالية، والصداقة مع الولايات المتحدة وإسرائيل، ولا يمكن أن لها أن تؤسِّس تنظيمًا جماهيريًّا حقيقيًّا بينما ستشرع في تطبيق سياسات صندوق النقد الدولي، والتي عنوانها الرئيسي هو إفقار العباد. الجانب الآخر الأكثر بنيوية في الأمر هو قيام أنور السادات بتصفية جُزءٍ معتبر من التنظيم السياسي للدولة، بملاحقته لعدد كبير من كوادر الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي ومنظَّمة الشباب؛ بدعوى أنهم من الموالين لمجموعة مراكز القوى، ومعادون لسياساته الجديدة، فوجد السادات نفسه مجرَّدًا حتى من تنظيمه السياسي هو، ولمَّا أسَّس الحزب الوطني الديمقراطي في أواخر السبعينات كان يدرك أنه حزبٌ ضعيفٌ سياسيًّا، ولا يمكن الاعتماد عليه كأداة حقيقية للحكم، فالحكَّام الجُدُد الحقيقيون كانوا جيل أكتوبر من العسكريين، حتى ولو ارتدوا أرديةً مدنية. لذا كانت حدود الديمقراطية المسموح بها في الطور الثاني للدولة اليوليوية لا تغادر أُطُرَ الجدالات السُّوفسطائية للنُّخَب على صفحات الجرائد، وبضع قضايا فساد تتفجَّر بين الحين والآخر ببعض الإيعاز من أطراف في الدولة نفسها. هذا الوضع -بالمُجمَل- أفضى عَمَليًّا إلى تقزيم السياسة، وتجفيف منابعها، و"أَمْنَنَة" الأفق السياسي والحركي، بترك ساحة الجدل للتيارات الدينية وأچندتها غير السياسية بالتعريف، لتبدأ مرحلة سياسية هي لا سياسية بامتياز، وهي مرحلة ثنائية الجيش والإخوان التي استمرَّت في مصر حتى 2011.

زمن مبارك وعقود الترميم والأوهام

رسم أنور السادات ملامح النظام السياسي الذي سيستمر من بعده، ثم قام حسني مبارك بإرساء دعائمه وتحويله إلى عالَمٍ لا يمكن لأحدٍ أن يتخيَّل وجود عالم آخر سواه. كانت النهاية الدرامية لحكم أنور السادات باغتياله على أيدي عدد من ضُبَّاط القوات المسلحة -على الهواء مباشرة- إشارةً لكل الفاعلين السياسيين بضرورة الهدوء والتروِّي، وأخذ كل الخطوات الممكنة إلى الوراء. لقد تمَّ اغتيال أنور السادات من عناصر إسلامية شديدة التطرُّف، ينتسب بعض عناصرها إلى ضُبَّاط القوات المسلحة. وكان لاغتيال السادات في 6 أكتوبر 1981 -وبالذات في أعقاب اعتقالات 25 سبتمبر الشهيرة، والتي طالت كل رموز الطيف السياسي المصري- دلالةٌ واضحة على عُمق الاحتقان السياسي في مصر، إلى حَدِّ التصفية الجسدية لرأس الدولة؛ كي يبدأ عهد حسني مبارك بالتهدئة، تهدئة مُتبادَلَة التواطؤ، استمرَّت لعقود.

لم يكن مرجع التهدئة الثمانينية هو حكمة حسني مبارك، ولا طريقته طويلة النَّفَس في احتواء الأمور، فبقدر ماحاول حكم مبارك احتواء الأَمزِجَة السياسية داخل الطبقة الوسطى، راح يتعامل بمنتهى القسوة والعنف مع أي تحرُّكٍ عُمَّالي كبير في بداية عهده، فقَمَعَ إضرابات عُمَّال السكة الحديد عام 1985 وعُمَّال مصانع الحديد والصلب في حلوان عام 1989 بمنتهى القسوة والوحشية، خلَّفَت قتيلًا على الأقل في كل إضراب. بل قام وزير الداخلية زكي بدر بشَنِّ حملة أمنية عنيفة على المثقفين اليساريين المتضامنين مع الحركة العُمَّالية، وصَلَت إلى حد تعذيب المُفكِّر الراحل محمد السيد سعيد -ومعه آخرون- تعذيبًا وحشيًّا في سجن "أبو زعبل" عام 1989. كان تكتيك مبارك واضحًا وذكيًّا على المستوى السياسي والأمني: فَتحُ مجال للتنفيس الخطابي السياسي والإعلامي للطبقة الوسطى المُنهَكَة، وقمعُ أي تحرُّك كادحٍ من أسفل قمعًا شديدًا.

لكنَّ التَّجمُّد والهدوء بين أنشطة القوى السياسية المعروفة لم يكن مَرَدُّه الاحتواءَ المُباركي فقط، بل أيضًا الظرف السياسي الموضوعي الذي أنهك كل هذه القوى، والتي لم تمتلك أي حلول للاشتباك مع الواقع الجديد الذي فرضه السادات، ولا مع مفرداته، لا على المستوى السياسي ولا الأيديولوچي. تمكَّن مبارك وظروف

زمنـه مـن تبريـد الجـدالات السياسـية وحصرهـا في مسـاحة النوسـتالجيا والذكريـات والحكايـات، وأصبحـت الصحـف الرسـمية وصحـف المعارضـة -ومـن خلفهـما باقـي الوسـائط الإعلاميـة- مسرحًـا لجـدال شـديد الغرابـة والعجـب، عنوانـه المقارنـة بـين عهـدَيْ جـمال عبـد النـاصر وأنـور السـادات، ومحاولـة الانتصـار لأيٍّ مـن العهديـن، كـما لـو كان كل هـؤلاء المتجادلـين يعيشـون في كـونٍ مـوازٍ، أو في قسـم التاريـخ بإحـدى الجامعـات، وليسـوا جـزءًا مـن عالَـمٍ حَـيٍّ بالفعـل، يَعـجُّ بالمشـكلات والمتناقضـات، وينتـج اجتماعـه العـام الجديـد كل مفرداتـه الطازجـة.

كان الإنهـاك الاجتماعـي في بدايـة عقـد مبـارك الأول هـو سـيد الموقـف في البـلاد، التـي ظلَّـت تُـراوِحُ في قلـقٍ بـين الإبقـاء عـلى كثـير مـن معـالم الحقبـة الناصريـة اقتصاديًّـا واجتماعيًّـا، وبـين محاولـة تجاوُزهـا وفقًـا للأجنـدة النيـو- ليبراليـة وسياسـات صنـدوق النقـد الـدولي، وكانـت محـاولات التوفيـق بـين الاتجاهـين سـببًا في فقـدان بوصلـة الاتجاهـات عمومًـا، وأصبـح الشـعار هـو الاسـتقرار مـن أجـل الاسـتمرار، أو الاسـتمرار مـن أجـل الاسـتقرار. لا فـارق في الحقيقـة. خاصـة لـو تحـوَّل الاسـتقرار والاسـتمرار إلى مترادِفَـيْن.

ولمَّـا كان الجـدل السـياسي المحلِّيُّ في مـصر عـبر التاريـخ مرهونًـا بحركـة الطبقـات الوسـطى وتحوُّلاتهـا، فقـد اتَّسـم عقـد الثمانينـات بالـبرود السـياسي؛ نظـرًا لأن الكتلـة الحيـة للطبقـة الوسـطى الصاعـدة كانـت بالمعنـى المـادي الحـرفي للكلمـة خـارجَ البـلاد، وكان حـدود تأثيرهـا هـو التغـيُّرات الاجتماعيـة الناتجـة عـن تحويلاتهـا مـن الخـارج وأثرهـا عـلى السـوق المحـلي وعـلى مسـتوى معيشـة أُسَرِهـم وقُراهـم، وهـو الأمـر الـذي سـبَّب أيضًـا نوعًـا مـن الغمـوض والارتبـاك؛ حيـث تحسَّـن المسـتوى المعيـشي لفئـات اجتماعيـة غـير مُنتِجَـة مـن الأصـل؛ بفضـل التحويـلات النقديـة القادمـة مـن الشـبكات الاجتماعيـة المهاجـرة الداعمـة؛ مـمَّا سَـبَّب غيـاب ملامـح واضحـة للفئـات الاجتماعيـة الوسـطى، والتـي -مـن غـير امتـلاك ملامـح واضحـةٍ- لا تملـك قـدرة عـلى تعريـف نفسـها، خاصـة في بَلَـدٍ سِـمَتُه الأساسـية عـبر قـرن مـن الزمـان كانـت تتمحـور حـول الحـراك الاجتماعـي السريـع والمسـتمر وعـدم الاسـتقرار الطبقـي، وهـذا مـا سـأحاول تناولـه بالمزيـد مـن التفصيـل في الفصـل القـادم

زمن الطّفو وعقيدة مبارك

تكلَّسَت دولة ما بعد الاستقلال المصرية سياسيًّا وديناميكيًّا، فعجزت عن التعامل مع المعطيات المتغيِّرة حولها بسرعة، فقد كانت حسابات أنور السادات البَدَهيَّة تعتبر أن الصراع القطبيَّ بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة سيستمر ويطول، وأنه على مصر أن تختار الحليف الأمريكي، وتَنهَلَ من ضرع قُوَّته الإمبراطورية، عِوَضًا عن سياسة عدم الانحياز المَيَّالة -عمليًّا- للسوفييت، والتي اتَّبعها جمال عبد الناصر. لم يكن في بال الدولة المصرية أن هامش المناورة التي امتلكته مصر باللعب على التناقُض الدولي بين القوتين العظميين -والذي مَكَّنها في لحظاتٍ بعينها من الحصول على معونات كبيرة من الدولتين العظميين بشكلٍ متوازٍ- في طريقه للانتهاء؛ نتيجة انزواء الإمبراطورية السوفييتية وأفولها تدريجيًّا منذ منتصف الثمانينات، ليتحول تَحالُفها مع الولايات المتحدة من ميزة تنافُسيَّة على مسرح الصراع الدولي، إلى عبءٍ وفَخٍّ، بل وأَسْرٍ، في ظلِّ عالم القطب الواحد المهيمن.

التَّغيُّرات الدولية الكبرى تلك جعلت العالم بالنسبة إلى الدولة المصرية عالَـمًا خَطِرًا، يتوجَّب التعامل معه بأشد درجات الحذر السياسي وعدم المغامرة. رافق ذلك استشراء الأزمات الداخلية الناتجة عن التخبُّط الاقتصادي الناتج عن عدم وضوح رؤية التحوُّل الاقتصادي المنشود، وتناقض مصالح البرجوازية البيروقراطية مع مفهوم السوق المفتوح الشفاف، وفي نفس الوقت، تخلِّي الكتلة الحاكمة عن الاستمرار في سياسات اشتراكية مساواتية لم تعتقد فيها يومًا بجدِّيَّة. ما سبق جميعًا جعل العنوان الرئيسي لحُكم مبارك هو "الطَّفو" فوق الأزمات ومُلاعَبَة الزمن، فمصر مبارك كانت مصر طافِيةً فوق الأزمات، تُحيل حَلَّها إلى المستقبل، وتحاول إداراتها بحكمةٍ وأقلِّ قدرٍ من الخسائر المرحلية، سواء كانت أزمات اقتصادية أو أزمات تتعلَّق ببنية الجهاز الإداري للدولة وفعاليته، وكذا مسألة الحريات.

لكن في جانبٍ إيجابي من الأمر كان عقد الثمانينيات عَقدَ مُكاشَفَةِ الناس بالأزمات. كان حسني مبارك بلا فواتير سياسية سابقة، ويملك سيرةً حَسَنَةً بفعل دوره في حرب أكتوبر 1973، محل إجماع وطني؛ لذا، كان يُردِّد بشجاعةٍ وفجاجةٍ

أنه تسلَّم حُكم مصر من بعد سَلَفَيْه وهي في حال أقرب إلى الخراب، ولا سيَّما على مستوى البنية التحتية التي راح يُحدِّثها بصبر ودأب، ومثلما بدأ التطبيع مع إسرائيل إقليميًّا، أصبح مطلوبًا مع المصريين تطبيعٌ مع الوضع الجديد ذي الأسقف المنخفضة والآمال المحدودة. عرف الناس في عقد الثمانينيات حجم الديون الخارجية الكبيرة التي وصلت وقتها إلى ما يقارب خمسين مليار دولار، وراحت حملات تجوب المدارس المصرية لجمع تبرُّعات من الأطفال لسداد ديون مصر. كان كاتب هذه السطور أحد المُتبرِّعين فيها بمصروف جيبه المتواضع، كان النظام في حاجة إلى توضيح طبيعة الأزمة للناس، ودعوتهم للتعايش معها في أُلفَة ووَداعَةٍ وصبر، مقابل بعض الحريات السياسية والصحفية، وهامش من حرية الفساد المسموح به أيضًا.

سياسة الطفو المباركية حوَّلَت مصر إلى سفينةٍ هو ربَّانها والشراع في بحرها كما وصفته إحدى أغنيات نفاق عهده. كانت "مصر مبارك" سفينةً عائِمَةً وليست بنيانًا ثابتًا، سفينة قَدَرُها الطَّفو داخليًّا وخارجيًّا في مسير بحريٍّ لا يعرف وجهةً مُحدَّدة، وسط تغيُّرات إقليمية وعالمية كبيرة، وكانت أهم شروط طفو السفينة العملاقة المنفجرة سكَّانيًّا -والتي تضاعَفَت في عهده مرَّتين ونصف- والمتعثِّرة تنمويًّا هو البطء والحذر لضمان عدم انقلابها وسط الأمواج المتلاطمة؛ لذا كان مفهوم "الإصلاح" شديدَ المحافظة والحذر والغموض عند مؤيِّديه داخل الدولة، وكان مُنفِّرًا -بالتعريف- لدى الدوائر الأكثر محافظة، باعتباره خطرًا على توازن مسيرة السفينة الطافية. كان عنوان السياسة الخارجية في عهد مبارك هو السلام و"التهدئة" والميل إلى فَضِّ النزاعات أو تبريدها، حتى لو ترتَّب على ذلك تسويف القضايا إلى ما لا نهاية؛ لذا كانت الأمواج الخارجية عاتِيةً وكفيلة بهَزِّ طفو السفينة، بصرف النظر عن مدى شِدَّتها، بدءًا من غزو الكويت، ثم تحطيم العراق، وصولًا لدخول الإنترنت مصر وتَعرُّف المصريين على العالم الخارجي من خلال وسائط أكثر حياديَّةً.

كانت النظرة إلى التغيير الاجتماعي والسياسي سيَّان؛ فالتغيير كإرادَةٍ ومشروع هو نوع من أنواع التحدِّي، والتغيير الوحيد المقبول هو التغيير البطيء المتمدِّد في الزمن بدون حماسة أو دعاية أو تبشير. التغيير المقبول هو التغيير المادي الذي لا يمكن ولا يجب إدراكه إلَّا بعد حدوثه واستتباب آثاره، والمُتَّفق على حتميته

عالميًّا باعتباره شرًّا لا بُدَّ منه. هذه الذهنية هي التي عرفت معنى "الاستقرار" في مصر خلال عهد مبارك، وهو المفهوم الذي التبس في ذهن الكثيرين حتى ترادُف مع مفهوم الطفو نفسه، فمعنى الاستقرار أصبح هو تجنُّب انفجار المشكلات، وليس مواجهتها بحكمةٍ وتؤدة. استقرار مبارك كان حالة ممتدَّة من الإنكار. وضع عائم ورتيب. القلق هو عنوانه الدائم. أفيال كثيرة في غرفة ممتلئة بأنابيب البوتاجاز المتقادِمَة غير الآمنة. كان الاستقرار المباركي هو القُدرَة الممتدَّة على إدارة الأزمة، فإذا استفحلت الأزمة تَحوَّل تعريف الاستقرار إلى القدرة على إدارة الكارثة.

تَمدُّد الأزمات في الزمن التسعيني

تمدُّد الأزمات في الزمن خلال عهد مبارك كان الضمانَ الوحيد لاعتياد الشعب للتدهور والرداءة والتآلف معهما كشروط طبيعية للحياة، خاصة وأن كثيراً من أبناء زمنه لم يعرفوا زمنًا آخر غيره، فسياسات مبارك لم تكن صادِمةً أبدًا في يوم من الأيام؛ لذا لن يدرك الناس تدهور خدمات التعليم والصحة -مثلًا- إلا مع مرور السنوات والعقود، ومع تعرُّفهم على العالم الخارجي وما يجري فيه بحكم عالم الاتصالات الذي تطوَّر بعُنفٍ منذ منتصف العقد الأول من الألفية الجديدة. هذا التطوُّر بالذات كان هو السببَ الرئيسيَّ في حلحلة الوضع من تحت سلطة مبارك المستقرَّة مع الزَّمن.

لكن قبل ثورة المعلومات والاتصال، وإدراك الناس أنهم جزءٌ من عالم أكبر، كان هناك شرط موضوعيٌّ جديد يفرض نفسه اجتماعيًّا ويُشكِّل تحدِّيًا قادمًا لمبارك، على الرغم من أن هذا الشرط كان من صنيعة مبارك نفسه وسياسته، ألا وهو الطبقة الوسطى الجديدة التي نشأت واستقرَّت منذ منتصف التسعينات، إمَّا بعودة المصريين من دول النفط العربي ومعهم مُدخَّراتهم، وبسبب تحسُّن الأداء الاقتصادي النسبي بعد قيام الولايات المتحدة بإسقاط كل ديون مصر العسكرية دفعة واحدة، بعد مشاركة مصر لها قيادة التحالُف الدولي لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي. كانت هذه الخطوة بالذات سببًا في إنقاذ الاقتصاد المصري من حافَّة الإفلاس الذي وصل لها في منتصف عام 1990، وكأن احتلال

العـراق للكويـت وتكويـن تحالُـف دولي مضـاد لـه كان بمثابـة قُبلـة الحيـاة للاقتصـاد المـصري المتعـثِّر الـذي تلقَّـى دعـمًا ماليًّـا مباشرًا مـن دول الخليـج، وأُسـقِطَت ديونـه العسـكرية نظـير خيـاره السـياسي بالانحيـاز للمعسـكر السـعودي الأمريـكي.

لقـد كان عقـد التسـعينات هـو عقـد مبـارك بامتيـاز، عقـد انفـراده بالمشـهد السـياسي والاقتصـادي وتَمـدُّد سـلطته إلى حـدودٍ فرعونيـة لم تكـن بنفـس قـدر الوضـوح خـلال عقـد الثمانينـات. اسـتطاع حسـني مبـارك الانفـرادَ التـام بالسـاحة السياسـية بعد أن سـاعدته جماعـات الإسـلام السياسي المُسـلَّحة في ذلـك بشَـنّ حـرب مفتوحـة ودموية ضـد الدولـة والمجتمـع عـلى السـواء، وقيامهـا بسلسـلة مـن التفجـيرات العشـوائية في قلـب القاهـرة طالـت كل المواطنـين بـلا اسـتثناء، وقتلـت العـشرات منهـم، وبشـكلٍ جَعَـلَ المجتمـع في حالـة اصطفـافٍ كامـل مـع الدولـة في حربهـا مـع تنظيمـي الجماعـة الإسـلامية، والجهـاد. وفي المقابـل، ووفقًـا لقواعـد الحـرب المسـلَّحة، تمـدَّدَت سـلطة الأجهـزة الأمنيـة هـي الأخـرى وأصبحـت سياسـاتها الوقائيـة والاحترازيـة مدعومـة بشـكل كامـل، بعـد أن أصبـح عناصرهـا مُسـتَهدَفين مـن قِبَـل إرهـاب الجماعـات الإسـلامية في حـرب اسـتمرَّت لأكـثر مـن ثمـاني سـنوات، خلَّفَـت مئـات القتـلى مـن الشرطـة والجماعـات، وعـشرات القتـلى مـن المواطنـين، وعـشرات الآلاف مـن المعتقلـين السياسـيين مـن التيـارات الإسـلامية الجهاديـة.

الانفـراد السـياسي هـذا رافَقَـه بالتبعيـة تحييـد لـكلِّ القـوى السياسـية الأخـرى في زمـنٍ لا صـوت يعلـو فيـه فـوق صـوت الرصـاص، وبموجبـه، تمكَّـن حسـني مبـارك مـن البـدء المُتحفِّـظ في سياسـات الخصخصـة والتكيُّـف الهيكلي بـدون مقاومة شـعبية كبيرة، وأصبحـت مـصر في مـدار سياسـات صنـدوق النقـد الـدولي بطريقـةٍ أو بأخـرى، وهـو الأمـر الـذي خلـق نوعًـا مـن الـرواج السـوقي النِّسـبي، وجـذب عـددًا مـن الاسـتثمارات الإقليميـة والأجنبيـة، خلقـت بدورهـا قطاعًـا أكـثر تدويـلًا داخـل الاقتصـاد الوطنـي، وأكـثر اتِّصـالًا بالسـوق العالمـي وتقاليـده وتقنياتـه. سـاهم هـذا القطـاع بالفعـل في دفـع مكانـة الطبقـة الوسـطى الجديـدة وإعـادة بلـورة تصوُّراتهـا عـن التقـدُّم وفقًـا للمعايـير "الكوربوراتيـة" الشركاتيـة الأمريكيـة، فتعـرَّف شـباب العاملـين الجُـدُد عـلى عـدد مـن القيـم الموجـودة في بيئـات العمـل الرأسـمالي الأكـثر تطـوُّرًا، مثـل: قِيَـم العمل الاحـترافي واحـترام الوقـت والإنجـاز والدِّقَّـة والحَوكَمَـة والعقلانيـة والرشـادة، وبشـكل

جعل كثيراً من الناس في إطار ثورة المعلومات المُتفجِّرة ينظرون إلى الخارج بعيون مشدوهة وآمِلَة في استنساخ أنماط الحياة المتطوِّرة فيه داخل مصر.

عقد التسعينات ومن بعده عقد الألفية الأولى كشَفَا عن أزمة مزدوجة في علاقة المصريين بمفهوم التطور، فقد تحسَّنَ كثيرٌ من مفردات حياتهم بشكل نسبيٍّ، ولا سيما على المستوى الاستهلاكي قياسًا بآبائهم، لكن هذا هو القانون الطبيعي للتطوُّر البشري في العالم كله. أصبحت السِّلَع المُعمِّرة مثل البوتاجاز والثلاجة والغسَّالة موجودة في منازل الفقراء والمحتاجين بعد أن كانت بالحجز المُسبَق وحصريَّة لأبناء الطبقات المتوسِّطة الميسورة والعليا في عالم الستينات والسبعينات، لكن هذا لم يكن مرجعه تَطوُّرًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا حقيقيًّا بقدر ما كان تعبيراً عن تطوُّرٍ كُلِّيٍّ للبشرية، جعل هذه السِّلَعَ أرخص ثمنًا وفي متناول يد العامة؛ لذا يمكن القول إن حياة المصريين في عهد مبارك تحسَّنَت لأن مبارك حكم مصر لثلاثين عامًا تطور خلالها العالم حتى أصبح في مقدور المعدمين في الهند استخدام شبكات الإنترنت السريعة؛ لذا كان الطرف الثاني لازدواج الأزمة هو بدء قطاعات من المصريين -ولا سيما الأكثر اتصالًا بالعالم الخارجي- في مقارنة أحوالهم وحرياتهم وشوارعهم وبيئاتهم، بهذا العالم الذي انفتح أمامهم بالبث الحيِّ المباشر لأربع وعشرين ساعة في اليوم. احتكَّ المفهومان سويًّا ليخلقا صراعًا بين الأمل والتوقُّعات، وبين الرضا والمحافظة، وهو الصراع المستمر حتى لحظتنا المعاصرة.

في المقابل كان مفهوم الطفو المباركي قد تحوَّل إلى عقيدة دولة بأكملها بدون صيغة مكتوبة أو وثيقة سياسية جادَّة تُحدِّد معناه وحدوده؛ ذلك أن الجدل السياسي الجاد والمفتوح والعقلاني كان ممنوعًا من الأصل، محصورًا في مقارنات الناصريين والساداتيين، ولا يبارح مساحة الصراع الرمزي في تلاسُنات الإسلاميين والعلمانيين، أو حدود احتواء الشَّطَط الإسلامي المُنبَتِّ الصِّلَة عن أي واقع ماديٍّ أو تحدٍّ حقيقيٍّ. هذا الوضع بالمُجمَل مثلما حوَّل مبارك إلى ربَّان السفينة الطافية، حوَّل الأجهزة الأمنية -بتنوُّعاتها- إلى ملَّاحي السفينة وبحَّاريها، فالطَّفو والاستقرار في الزمن يحتاج إلى انضباطٍ مجتمعيٍّ شديدٍ، واحتواء مستمر للمشكلات، إمَّا بالعنف أو المفاوضة أو التخويف، أو بتخريب حِسِّ المبادرة، فتمدَّد عَملُ الأجهزة الأمنية ليصل إلى مساحات مرهقة وغريبة، تفضُّ أحيانًا المنازعات بين العُمَّال

وأصحـاب العمـل، وتحتـوي في أحيـان أخـرى خلافـاتٍ وصراعـاتٍ في عالم المـال والأعمال، وصـولًا لملفّـاتٍ ترفيهيَّـةٍ، مثـل جمهـور كـرة القـدم ونشـاطاته واتجاهاتـه. كان هـذا المنحـى حتميًّـا وليـس مُخطَّطًـا بالـضرورة، فنظـام مبـارك المـوروث مـن السـادات يعـي جيِّدًا ضَعـفَ تنظيمـه السـياسي وعـدم قدرتـه عـلى التمـدُّد والإقنـاع والتعبئـة في ضـوء عـدم شـعبية سياسـات الدولـة غـير المنحـازة للطبقـات الكادحـة. لم يكـن هنـاك بُـدٌّ مـن الأَمنَنَـة وإرهـاق أهلهـا بغالبيَّـة المهـام السياسـية، وحـصر الجـدل السـياسي الجـاد والخيـارات الحقيقيـة في أروقـة الأجهـزة "المعنيَّـة" و"السـياديَّة".

هجوم الإنترنت والتقاء عوالم لا تلتقي

كان لدخـول الإنترنـت مـصر الكلمـة العليـا والأخـيرة في تحديـد كثـير مـن معالمهـا السياسـية والاجتماعيـة، بـل ومسـتقبل نظامهـا الحاكـم. بشـكل شـخصي، لم أتفاجـأ كثـيرًا حـين قُمـتُ بحسـابات بسـيطة، أدرَكـتُ معهـا أن أكـثر مـن 60 % فقـط مـن سـكان مـصر المعاصريـن عرفـوا الإنترنـت في سِـنٍّ مُبكِّـرة ووعـوا العـالم، وقـد أصبـح التَّواصُـل السَّـيبراني -بدرجـات تَطـوُّره المختلفـة- جـزءًا لا يتجـزَّأ مـن مفـردات حياتهـم اليوميـة. بصفـة شـخصية تعرَّفـتُ عـلى الإنترنـت وأشـكال التواصـل السـيبراني وأنـا في سـن الـ 19؛ لـذا فشـهادتي ربمـا تكـون ذات قيمـة مـا؛ نظـرًا لأننـي عِشـتُ بـين عصرَيْـن بشـكل يسـمح لي بالتأمُّـل في التحـوُّل الكبـير الـذي حـدث في أقـل مـن عقـد بـين عالَمَـيْن مختلفـين تمامًـا، أحدهـما كان لا يعـرف الإنترنـت، والثـاني بـدأ في الاعتـماد عليـه كثـيرًا في معظـم تفصيلاتـه. في عـام 1996 مثـلًا، كان عـلى حديثـي التخـرُّج البحـث عـن وظائـف فقـط بـين قصاصـات جريـدة الأهـرام. كان مـن المسـتحيل تصـوُّر إمكانيـةٍ للحصـول عـلى أي عمـل ثابـت -مهـما بلغـت بسـاطته- بـدون وسـاطات لديهـا علاقـات مبـاشرة مـع أصحـاب الأعـمال. كانـت المعلومـة -أي معلومـة- ثمينـة جـدًّا، وليسـت في متنـاول إلا الباحـث المُدقِّـق، أو مـن يملـك شـبكة مـن العلاقـات تسـمح لـه بالوصـول إليهـا؛ لـذا كانـت الشـبكات الاجتماعيـة بمعناهـا الحـي والمبـاشر شـديدةَ الأهميـة للوصـول إلى أي غايـة، وهـو أمـر لم يتوفَّـر للكثيريـن، ولم يتوفَّـر أصـلًا إلَّا بنِسَـبٍ متفاوتـة، وكانـت العزلـة هـي الإحسـاس المصاحـب لأي تجمُّـع، فالقـدرة عـلى الاتصـال محكومـة بعوامـل وأدوات محـدَّدة، لم تكـن بالسـهولة الحاليـة. حالـة العزلـة وانغـلاق الدوائـر تلـك كان

لها تبعاتها الاجتماعية أيضًا وقيمها المصاحبة، فالعزلة وضيق الدوائر كانت تحتِّم على أبناء هذا العالم التَّمتُّعَ بقدرٍ عالٍ من الحذر الاجتماعي، ودرجة أعلى من الطاعة والحكمة. فالإنسان منَّا كان ابنًا لعوالم بعينها، واضحة الحدود وغير منفتحة إلَّا بقدر مستوى اتصالها بالعوالم الأخرى؛ لذا فالإنسان كان في المجمل أقلَّ تَمرُّدًا؛ لشعوره بأن تجاوُزَ عوالمه الاجتماعية أو الجِهَويَّة إمكانياته محدودة.

وحين بدأ الناس في النصف الثاني من التسعينات التعرُّف على شبكة الإنترنت، كان أول استخداماتهم له معبِّرَة عن محاولة كسر العزلة تلك واكتشاف ما هو مثير في العالم، أو بمعنى أصح: اكتشاف العوالم الأكثر إلحاحًا على عقولهم وغرائزهم؛ فراح الناس يستخدمون تطبيق "ICQ" في البحث عن إسرائيليين؛ لتبادُل السِّباب معهم، أو اكتشاف ماهيَّتهم، أو إرسال رسائل كراهية، أو تعبيرًا عن حبِّ الاستطلاع. وراح آخرون يبحثون عن الجنس الآخر في العالم الافتراضي، بدأت كثير من الفتيات السجينات في جدران بيوتهن في التجرُّؤ بالحديث بأسماء مستعارة مع شُبَّان، وبدأ الشبان في محاولة التعرُّف على فتيات ونساء أجنبيات؛ أملًا في مهرب عاطفي من أسوار الوطن. تعرَّف الجميع على مواقع "البورن" في صورتها البدائية، حيث كان يقضي الشباب ساعاتٍ من أجل تحميل صورة أو مشهد جنسيٍّ لا يتعدَّى ثواني، في ظل بطء شبكة الإنترنت وقتها، وامتلأت غرف التعارف والتواصل بجيوش من البشر الذين يتبادلون المعلومات والسِّباب والشعارات؛ في مشهدٍ أشبه بالرسائل المنحوتة على جدران دورات المياة العمومية، وكانت غرف الحوار لبرنامج الـ "Paltalk" مسرحًا لجدالات طائفية ظلَّت مدفونة لسنين طويلة، حيث تبادل المسلمون والمسيحيُّون كافَّة أشكال السباب الطائفي والتشكيك العقائدي والكراهية الخام، ومحاولات التنصير والأسلمة المتبادَلَة. لقد كانت المرحلة الأولى لاستخدام الإنترنت في مصر تعبيرًا حقيقيًّا عن العطش الحقيقي للمس ومعرفة كل ما كان مُحرَّمًا أو مُشتَهًى أو محلًّا للفضول. لم يكن الإنترنت وقتها مجالًا للتواصُل والمعرفة والعمل والتشبيك والتنظيم والارتزاق، بل كقناة أشبه بنفقٍ محفور أسفل زنزانة قد تصل بالإنسان إلى حيث يشعر بحريته.

تراكمٌ أفضى إلى تكوين "المشهد العام" افتراضيًا، وخلق روح عصاميّة جبّارة

كان مستخدمو الإنترنت أقربَ إلى الطفل الذي يتحسّس أعضاء جسده ليكتشف ماهيتها، تعرّفوا على القوة الكامنة في التواصل تدريجيًّا، وقبل أن يتعرّفوا على قوة التواصل وما يترتب عليها، تعرّفوا على بعضهم البعض أيضًا. وكان أول السعداء بهذه المعرفة هي الجماعات ذات الميل الثقافي المُتميِّز، التي طالما ظنّت أنها قليلة ومعزولة، ولا يتعدّى أفرادها أصابع اليدين، فإذا بهم يكتشفون أنهم كُثرٌ، ويقتحمون مجال التواصل فيما بينهم، ويصيغون -لأوّل مرّة- ملامح أوّليّة لجَدَلٍ عام حُرٍّ ظلَّ مُحتكَرًا من قِبَل الدولة ووسائطها الإعلامية منذ عشرات السنين، ففي سنين قليلة تضاعف عدد مستخدمي الإنترنت ووسائطه المختلفة من كل الطبقات والفئات والأعمار، وبشكلٍ خارج عن أي سيطرة من أي سلطة.

هذه الحالة بالتحديد خلقت نوعا جديدًا من الفاعلين السياسيين غير النمطيين، غير الخاضعين للتصنيفات السياسية المُتداوَلة، هم أنفسهم لم يدركوا كُنهَ ذاتهم إلا بالجدل والممارسة والاحتكاك. كان المجال العام المادي في مصر مُغلقًا، إلا أنه -بطريقة أو بأخرى- بدأ في إعادة تشكيل نفسه في الواقع الافتراضي عبر المجموعات والمنتديات التي لا حَصرَ لها، وعبر تطبيقات مثل فيسبوك وتويتر، وبإسهامات رائدة من حركة المُدوِّنين التي انطلقت مع بداية الألفية الجديدة، حيث تواصَلَت عناصر من خلفيات سياسية مختلفة اعتادت أن ترسم لبعضها البعض صورًا نمطيّةً فَجّةً. أدرك كثيرون أن الواقع الحيَّ أكثر طزاجةً وحيويّةً ممّا بَدَا في عالم ما قبل التواصُل. لقد خلق الإنترنت جيلًا جديدًا بلا ذاكرة سابقة مُثقَلَةٍ بتجربة، جيلًا انطلق من لحظة تواصله والتقائه تلك، بكل عيوب ذلك ومميزاته، حيث الإقدام والمغامرة والأمل على وجهٍ للعُملَة، وعلى الوجه الآخر منها قَدرٌ لا بأس به من البراءة والاستحقاق، وكثيرٌ من الغرور.

بمعنى من المعاني: سمح الإنترنت بتكوين شبكات أمان جديدة، وبكسر احتكار المعلومة وبفتح دالّة الاحتمالات بشكل غير مسبوق. مئات الآلاف من الناس زادوا من حصيلتهم المعرفية والعلمية عبر كتب ومواد مُقَرصَنَة أو مُتاحَة على الإنترنت. مئات وآلاف تمكّنوا من الحصول على وظائف جديدة وجيِّدة بدون

وساطات أو معارف مُسبَقَة. ارتفعت أصوات جديدة لمَّا يكن مُتاحًا لها الكلام من قبل، أصبح للنساء صوتٌ أعلى في التعبير عن معاناتهنَّ البنيوية المستمرة، صِرنا نسمع لهجات الأقاليم المصرية بأصواتها الحقيقية، وليس في صورتها الكاريكاتورية المُتَلفَزَة.

كل ما سبق كان إمكانية عصامية عظيمة استفاد منها ملايين المصريين. بعض من الحرية والإتاحة والتلاقي سمحوا بتأسيس عوالم، وتلاقي أخرى، وارتفاع شأن مَن يستحق بجهده وإمكانياته. انطلقت ثورة يناير ولم ينتهِ العالم الذي خلَقَته، على الرغم من هزيمتها وملاحقة ذكراها. الإنترنت جاء ليبقى، جاء وغيَّر وجه مصر التي اعتادت أن تراه في إعلام التوجيه ومناهج الدراسة الرسمية. شكرًا للعلم، وشكرًا للتكنولوچيا.

الفصل الخامس

مُؤثِّرات استثنائيَّة على مسارات العِصاميَّة والجَربَعَة

دائمًا ما اقترن الحراك الاجتماعي في مصر بسياسات الدولة والطبقات الحاكمة وتوجُهاتها، ومدى فتحها لمجالات يمكن من خلالها أن ينفذ السُّكَّان إلى شروط حياة أفضل، فضلًا عن الدور الذي لعبه الاستعمار وأثر السياسات الإمبريالية المباشر على تطوُّر الرأسمالية في مصر وتشكيلها، وانعكاس ذلك على مُتطلَّبات السوق المادية والبشرية. في الفصول السابقة ركَّزتُ على محطات زمنية بعينها لهذه العملية، خاصة خلال القرن العشرين، لكن في هذا الفصل قرَّرتُ تسليط الضوء على ما اعتبرتُها طَفراتٍ ذات طابع مادِّيٍّ وثقافي، لعبت أدوارًا لا يمكن الاستهانة بدورها في تشكيل المفاهيم والتصوُّرات التي رافَقَت عمليات الحراك الاجتماعي في مصر بدءًا من سبعينات القرن العشرين، من دون أن تكون تحت إدارة وهيمنة وهندسة الدولة المصرية بشكل مباشر. واللافت أن هذه الظواهر ترافَقَت زمنيًّا بحيث شكَّلوا معًا ملامح أساسية لعناصر الحياة في مصر، بصورة ظلَّت مستمرَّةً معنا إلى لحظتنا المعاصرة، فكانت بداية أَمْرَكَة مصر وهجرة العمالة إلى الدول

العربيـة وبـزوغ الصحـوة الإسـلامية- المَلمَـحَ الرئيـسي لتلـك الفـترة، ولعبـت كل ظاهـرة فيهـم عـلى حِـدَة دورًا خاصًّـا في تشـكيل الظاهرتـين الأُخرَيَـيْن وحدودهـما، بحيـث لا يمكـن تخيُّـل أيٍّ منهـما بمعـزل عـن الأخـرى. لكـن يمكننـي المغامـرة بالقـول إنهـم كانـوا جميعًـا تعبـيرًا وتجلِّيًـا لطَـورٍ جديـد مـن أطـوار الدولـة الوطنيـة في مـصر، طَوْر اتَّضَحَـت فيـه أزماتهـا البنيويـة وتعايشـت معًـا، فرسـمت حـدود أدوارهـا الجديـدة ومعهـا حـدود سـيادتها وتأثيرهـا عـلى عمليـة التغيـير الاجتماعـي، وبـدأت مرحلـة لم تَعُـد فيهـا الدولـة لاعِبًـا مُنفـرِدًا في تشـكيل المجتمـع وعوالمـه، بـل كيانًـا، مَهمَّتـه إدارة الأزمـات والكـوارث ومنـع الانفجـارات وكبـح مـآلات حركـة التاريـخ.

ما فعلته بنا الأَمرَكَة المبكِّرة

حـكى لي صديقـي العزيـز وسـيم سـليمان[1] قصـة انتظـاره الطويـل في أحـد الطوابـير، ولمـدَّة سـاعتين، أمـام أحـد محـلات البقالـة الشـهيرة كي يكـون في مقدِّمـة المشـترين لـشيء سـحري جديـد يتـمُّ الإعـلان عنـه باسـتمرار في التلفزيـون والصحـف، مـشروب غـازي اسـمه "سـڤن أب". كان هـذا في صيـف عـام 1974، حـين انتظـر الطفـل وسـيم طويـلًا، مُحتَمِـلًا حـراراة وقيـظ صيـف القاهـرة، حتـى أتى دوره وتمكَّـن مـن الـشراء. كانـت عبـوات "سـڤن أب" وقتهـا مسـتوردة وغاليـة الثمـن. فتـح وسـيم العبـوة المُغلَّفـة بالسـوليفان، وشرب بعضًـا مِـمَّا في داخلهـا، ليشـعر باحـتراقٍ شـديد في معدتـه؛ فالمـشروب الغـازي كان شـديدَ السـخونة، وكـثرة الطوابـير لم تسـمح لمحـل البقالـة بوضـع كل مخـزون العبـوات في ثلَّاجـات التبريـد، كانـت خـبرة وسـيم الأولى مـع "سـڤن أب" سـلبيَّةً للغايـة.

لسببٍ مـا كان لمـشروب السـڤن أب وقتهـا سـحره الخـاص، فعـلى الرغـم مـن أن المصريـين كانـوا يسـتهلكون منـذ زمـنٍ مشروبـات الكوكاكـولا والبيبـسي كـولا، إلا أن مجـيء السـڤن أب إلى الأسـواق المصريـة كان لـه وَقعُـه الآسر عـلى المسـتهلكين، بشـكلٍ يتجـاوز كونـه مشروبًـا غازيًّـا، فأطبَّـاء الأطفـال في هـذه المرحلـة كانـوا يصفـون السـڤن أب كـدواء مُهضِـم، أو كعـلاج لنـزلات الـبرد والمعـدة، أنـا شـخصيًّا -وبعـد حادثـة وسـيم

(1) لقاء شخصي مع وسيم سليمان، سيدني، أبريل 2008.

بعَقدٍ من الزمان- كنت أحد الضحايا لهذه الأسطورة. كان أهلي يجلبون عبوات السڤن أب غالية الثمن من المنطقة الحرة في بورسعيد؛ لأنني كنتُ طفلًا معتادَ الإصابة بالنزلات المعوية، لم أكن وحدي بالطبع، ولكني لم أكن الأسوأ حظًّا، ففي كل الأحوال لم يكن السڤن أب هو علاجي الرئيسي من النزلات، لكن كان هناك مَن كان حظهم أسوأ مني بين أطفال العالم وقتها، حيث انتشر السڤن أب كعلاجٍ للأطفال، وانتشر هذا التصوُّر كجزء من حملات الترويج الاستهلاكية للمُنتَج في البلدان النامية، حتى صارت هناك ظاهِرَة تُسمَّى بأطفال السِّڤن أب، وهم أطفال في حالة هُزالٍ شديد، يعانون من أمراض مؤذية ومستعصية، ويقدِّم لهم آباؤهم السِّڤن أب كعلاجٍ شافٍ من كل الأمراض.

بَيْدَ أن الأمركة ليست مجرَّدَ نمط مُعيَّن من الاستهلاك والترويج للسِّلَع الأمريكية عبر غزو الأسواق ودَقِّ أسوارها على غرار نموذج سڤن أب، الأمركة هي خلق نماذج محاكاة لنمط كامل في الحياة غير مُتحقِّق فعليًّا إلا في الولايات المتحدة، بعد أن قدَّم نفسه بدءًا من النصف الثاني من القرن العشرين على أنه الصيغة الأكثر تقدُّمًا وحداثة في العالم، وكان له سحره الخاص على العديد من سكان الكوكب. روَّج الحلم الأمريكي لإمكانية الإثراء والرفاهة وتوافُر الفرص وتحقيقها؛ طالما سعى الإنسان بجدٍّ وإبداعٍ نحو هدفه، وفي غياب سلطة تعوقه عن تحقيق أحلامه، فالرأسمالية الأمريكية والدولة الأمريكية لهما سماتهما الفريدة غير الموجودة في أوروبا. الدولة الأمريكية دولة غير مُتدخِّلة في حياة المواطنين، وهي ليست دولة راعية لهم على مستوى الخدمات الاجتماعية والصحية، ولا تزال تصوُّرات المواطن الأمريكي عن الحرية مرتبطة بعدم تدخُّل الدولة في حياته ولا خياراته العقائدية أو الأخلاقية أو التعليمية، ولا حتى الصحية.

لكن الأمركة في سياق حالتنا المصرية كانت عبارة عن هبوط لعدد من التصوُّرات الضبابية عن نمط الحياة الأمريكية هبوطًا مظلِّيًّا فوق دولة "عالم ثالث" متخلِّفة، يتصوَّر قادتها أنهم قادرون على استنساخ بعضٍ من ملامح النموذج الأمريكي دون غيرها: الرفاهة من دون كفاح، نُموّ البيزنس والمشروعات من غير سوق تنافُسيٍّ حرٍّ وشفَّاف، تَصوُّر وجود آليات فعَّالة للسوق في ظل غياب سيادة القانون واستشراء الفساد الإداري، تصوُّر أن كل خدمة عامة يجب أن يقابلها ثمنٌ جَشِع مهما كانت رديئة، خصخصة كل شيء واعتبار الملكية العامة

فكـرةً غـير مُحبَّـذة بالتعريـف، اعتبـار الفقـر مسـؤولية أصحابـه إلى حـد النظـر إلى قطاعـات واسـعة مـن السـكان عـلى أن وجودهـم عـبء في حَـدٍّ ذاتـه، الإيمـانِ بحتميـة التفـاوُتِ الطَّبقـيِّ الشـديد باعتبـاره تجسـيدًا لقوانـين الاسـتحقاق الطبيعـي، وإيمانًـا بـأن كل فـردٍ منَّـا مسـؤول عـن مصـيره ووضعـه، فضـلًا عـن النفـور مـن الاسـتثمار في كل مـا هـو عـامٌّ وجماعـيٌّ، وتشـجيع كل مـا هـو خـاصٌّ وفـردي.

المُلابسات السياسية لبداية الأمركة المُبكِّرة

عاشـت مـصر مـن بعـد هزيمـة 1967 في عُـسرٍ اسـتهلاكي حقيقـي. لقـد احتـاج إعـادة بنـاء القـوات المسـلحة إنفاقًـا ضخـمًا عـلى المجهـود الحـربي، تطلَّـب تنفيـذ عـدد مـن الإجـراءات الاقتصاديـة التَّقشُّـفية التـي كان لهـا أثـر حقيقـيٌّ وملمـوسٌ، إجـراءات طالـت بالأسـاس الطبقـات الوسـطى والميسـورة، وكل مـا يتعلَّـق بعنـاصر ومفـردات الاسـتهلاك الـتَّرَفيِّ وغـير الـضروري؛ مـمَّا جعـل هـذه الفئـات الاجتماعيـة تشـعر بوقـع الهزيمـة في حياتهـا اليوميـة، ليـس مجـرَّد مَـرَّة ولا مرَّتـين، بـل ثلاثـة: المـرة الأولى كان مـع شـعور الإحبـاط والخـوف الوطنـي العـام مـن جـرَّاء الكارثـة الكـبرى وعـدم القـدرة عـلى اسـتشراف المسـتقبل، والمـرة الثانيـة حـين مسَّـت الإجـراءات التقشـفية مُفـرَدات حياتهـم الميسـورة نسـبيًّا، قياسًـا بباقـي السُّـكَّان، فوجـدوا أنفسـهم في طوابـير انتظـار السِّـلَع، مثلهـم مثـل باقـي المواطنـين، والمـرة الثالثـة حـين طالـت واجبـات الخدمـة الوطنيـة أبناءهـم بعـد قـرار قيـادة الجيـش الجديـدة -التـي تتَّسِـم بالكفـاءة والاحـتراف- بالتوسُّـع في تجنيـد المُتعلِّمـين وخرِّيجـي الجامعـات في القـوات المسـلحة والاعتـماد عـلى العنـاصر المتعلِّمـة تعليـمًا متوسِّـطًا وعاليًـا كقـوامٍ رئيـسيٍّ لجنـود وضُبَّـاط الاحتيـاط، وكان لهـذا القـرار بالـذات أثـرٌ نفـسيٌّ واضـح عـلى الطبقـة الوسـطى وأبنائهـا، حيـث تعلَّـق مصيرهـم بمصـير المعركـة وتوقيتهـا، وكلـما طالـت مُـدَّة الانتظـار وحالـة الـلا سِـلم والـلا حـرب كلَّـما أصبـح مسـتقبل هـؤلاء الأبنـاء محـلَّ شَـكٍّ كبـير؛ لـذا كان بـدء معـارك حـرب أكتوبـر 1973 بمثابـة فرحـة وطنيـة كبـيرة؛ نظـرًا لمـا مثَّلَـت مـن أمـل في اتجـاه حسـم الموقـف المعلَّـق لصالـح طريـقٍ مـا، أيًّـا كان، وكـسرٍ لحالـة الجمـود وعـدم اليقـين والثِّقـة، اسـتمرَّت لِسِـتِّ سـنوات، وجـاءت قـرارات الانفتـاح الاقتصـادي التـي صـدرت في نفـس شـهر الحـرب لتزيـد مـن الشـعور بـأن

مرحلة جديدة في طريقها للبدء، مرحلة يمكن لهذه الطبقات الوسطى أن تستعيد قدرتها على الحياة والاستهلاك والتَّرقي الاجتماعي مرَّةً أخرى.

إلى جانب حسم سؤال الحرب والبدء في الفتح النسبي للأسواق كان أهم ما ميَّز الفترة التي تلت حرب أكتوبر هو الإعلان الواضح عن تغيير وجهة التحالفات الاستراتيجية المصرية وتحويل دفَّة السياسة الخارجية نحو التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية والإنهاء العصبي لعلاقة الصداقة المصرية السوفييتية التي استمرَّت نحو 15 عامًا، بل وخلق حالة من الخصومة السياسية والكلامية مع الصديق السوفييتي المهجور وحلفائه في المنطقة بشكل دراماتيكي غير متوقَّع، في ضوء المساعدات السوفييتية السَّخيَّة لمصر قبل وأثناء حرب أكتوبر، وما بدا من أواصر صداقة عميقة بين البلدَيْن، خاصَّةً في الفترة التي تلت هزيمة 1967، وقيام الخبراء العسكريين السوفييت بإعادة بناء وتدريب الجيش المصري الجديد.

الحقيقة لم تكن مصر أبدًا جزءًا من الكتلة الشرقية السوفييتية بالمعنى المباشر، صحيحٌ أن توقيع أنور السادات لمعاهدة الصداقة المصرية السوفييتية في 27 مايو 1971 كان يعني -وفقًا للتقاليد السياسية وقتَها- خطوةً تسبق مباشرة الانضمامَ إلى حلف وارسو السوفييتي بشكل رسمي، وهو الأمر الذي زاد من شكوك عدد من القيادات العسكرية المصرية؛ ممَّا اعتبروه اقترابًا زائِدًا عن الحَدِّ من الاتحاد السوفييتي ووجود مُخطَّط شيوعي للسيطرة على مصر[1]، كان سببًا في ترتيب محاولة انقلابية فاشلة في أكتوبر 1972، قادها قائد المنطقة المركزية اللواء علي عبد الخبير، ونجا منها أنور السادات بالصُّدفة[2]، إلاَّ أنه وفقًا للرؤية العالمية لم تُصنَّف مصر أبدًا كبلد من الكتلة الشرقية؛ لذا فحين حوَّلَت مصرُ دفَّةَ وجهتها من السوفييت إلى الأمريكان لم يتمَّ التَّعامُل مع هذه الخطوة على أنها بداية انهيار الكتلة الشيوعية، وهذا ما أظنُّه خطأً؛ فمصر كانت أوَّلَ حليف سوفييتي رئيسي في القرن العشرين يتمكَّن بنجاحٍ من مغادرة حِلفِه مع موسكو وينتقل إلى الجانب الأمريكي، بصرف النظر عن درجة التبعية لكليهما، وهي في رأيي خطوة تاريخية واستثنائية لم يدرسها الكثيرون، فقد سبقت مصر كثير من

(1) اللواء محمد زكي عكاشة: جند من السماء، صفحة 121.

(2) الفريق سعد الدين الشاذلي: مذكَّرات حرب أكتوبر، صفحة 149.

دول العالم الثالث المرتبط بالاتحاد السوفييتي بنحو عَقدٍ من الزمان في طرح جدالٍ محليٍّ مُبكّر، وخطابات ودعايات إعلامية حول جدوى التحالف مع الاتحاد السوفييتي، وأثر ذلك الاقتصادي والثقافي السيئ مقابل حسنات التحالف مع الولايات المتحدة، صاحَبَه الترويج للنموذج الأمريكي في الحياة والاستهلاك كعنوانٍ للتقدُّم والبحبوحة والنعمة والقوة، مقابل الفقر والتقشُّف السوفييتي المرتبط بنمط الحياة في الدول الشيوعية وقتها، هذا الجدل السياسي والإعلامي الذي رافق سياسات الانفتاح الاقتصادي، والارتباط المتزايد بالولايات المتحدة عَمَّق مبكّرًا من تصوُّرات المصريين عمَّا اعتقدوه لاحقًا شكلًا مناسبًا للحياة الرَّغدَة المتحققة وفقًا لنمط حياة القوة الأكبر والأعظم والأغنى، عملية أمركة مصر لم تكن مجرَّدَ عَرَضٍ من عوارض الانفتاح الاقتصادي على السوق العالمي وتغييرًا في نمط وسلوك استهلاك قطاعات مختلفة من السكان، بل كانت مسألة سياسية بالأساس تتعلَّق بإعادة توجيه رؤية المصريين لمستقبلهم بشكل يناقض ما رُوِّج لهم في العقود التي سبقت، فالأمركة والالتحاق بالقوة الأكبر سيعني الثروة والرخاء، وهو الأمر الذي يمكن معه تسويغ السلام مع إسرائيل التي طالما اعتُبِرَت عدوًّا وجوديًّا، فكانت الأمركة جُزءًا من حزمة متكاملة من تصوُّر المستقبل الذي يترادف فيه السلام مع الرخاء مع الرأسمالية مع معاداة الشيوعية مع صعود الصحوة الإسلامية والارتباط المتزايد باقتصاديات مشايخ الخليج البترولية.

إنتاج الخَواء والقسوة

لا يوجد في الدنيا أسوأ من استزراع نسخة مشوَّهة من أشكال نمط الحياة الأمريكية في بلد عالم ثالث متخلِّف، متفاوت الطبقات وضعيف الإنتاجية وغير خاضع لسيادة القانون، إنها وصفة للعذاب المُمَنهَج المستمر لمن يعيشون تلك التجربة، فوفقًا للنمط الأمريكي في الحياة، الاستهلاك المستمر هو عنصر رئيسي وحاسم في تعريف معنى تحقُّق الإنسان في حياته، لكن هذا الاستهلاك هو جزء من عملية تدوير تروس ماكينة رأسمالية شديدة الفاعلية، يعيش البشر فيها في حالة عملٍ مُضنٍ ومستمر في ظلِّ منافَسةٍ شَرِسَة ووَعدٍ مستمر بحياة أفضل

ومجـال لا ينتهـي مـن فـرص الاسـتهلاك المسـتمرَّة التـي تُعـوِّض طحـن الإنسـان داخـل ماكينـة العمـل والإنتـاج، وتصـوِّر لـه أنهـا تخفِّـف عنـه قسـوتها.

أمَّـا في الـدول معطَّلَـة النُّمـوِّ كمـصر، فتصـوُّرات الحلـم الأمريـكي فيهـا لا تعنـي إلَّا ضغوطًـا مجَّانِيَّـة في الحيـاة وأعبـاء مضاعفـة وإحسـاس مسـتمر بالضغـط والتقصير وعـدم التحقُّـق. لهـاث بـلا جـدوى لفئـات اجتماعيـة تتدهـور أحوالهـا حتـى صـارت أشـبه بمـن يـرى المـاء يتدفَّـق أمامـه ولا يسـتطيع الـشُّرب منـه، فالسـوبر ماركـت ممتلـئ بالسِّـلَع المتنوِّعـة، وهنـاك أكشـاك صغـيرة في الشـوارع محاطـة بثلاجـات مُعبَّـأة ببضائـع مـن شركات مختلفـة، لكنهـا ليسـت في المُتنـاوَل السـهل إلا لأقلِّيَّـة صغـيرة مـن النـاس، فتصبـح قطاعـات أوسـع مـن النـاس مسـتعدَّة للاسـتدانة أو العمـل المضاعَـف أو التـورُّط في الفسـاد فقـط كي تحقِّـق رغبـات اسـتهلاكية تُشـعرها بالرضـا عـلى نحـوٍ مـا، فالنزعـة الاسـتهلاكية هـي عمليـة سـعي أبـديٍّ إلى اللحـاق بمـا يطرحـه السـوق بشـكل مُسـتمرٍّ. الرغبـات الماديـة والمعنويـة في ظـل سـيطرة تلـك النزعـة لا تحتـاج إلى كثـير مـن الجهـد لإقنـاع المسـتهلك بـأن حاجـة جديـدة مُلِحَّـة قـد اسـتقرَّت في وجدانـه نحـو السـلعة الجديـدة، ومـع الترويـج المسـتمر وبـدء الآخريـن في اقتنـاء السـلعة أو اسـتهلاكها تصبـح هـذه الحاجـة مـن الإلحـاح بحيـث يشـعر المحتـاج أن الحيـاة لا يمكن أن تسـتمرَّ بـدون الحصـول عليهـا، دائـرة جهنميـة وشريـرة بالفعـل.

لكـن لـو أخذنـا أيضًـا في الاعتبـار أن الماكينـة المحليـة للتنميـة الرأسـمالية معطوبـة، وقواعـد الثـواب والعقـاب زئبقيـة وغـير عادلـة، فـإن سـقف توقُّعـات الاسـتهلاك العالية مردوداتهـا الفعليـة أقـلُّ بكثـير مـن الأمنيـات المرتجـاة منهـا، خاصـة مـع الـتردِّي العـام لمسـتوى جـودة الخدمـات وقواعـد حمايـة المسـتهلك وخدمـة العمـلاء ومـا شـابه. وفي ظـل هـذا الوضـع سـنجد أن الأغنيـاء أنفسـهم يعيشـون عيشـة مكلِّفَـة وسـيئة، الفـرق بينهـم وبـين فقـراء مجتمعاتهـم هـو فَـرقُ السُّـوء والـرداءة النسـبية للسِّـلَع والخدمـات التـي تصـل لـكلٍّ منهـم، وحـين تتصـوَّر قطاعـات مـن الأثريـاء والطبقـات الوسـطى أنهـا تحيـا حيـاةً رَغـدةً ومتحقِّقـة فـإن هـذه الرَّغَـد المُتوهَّـم لا يعـرف نفسـه في الحقيقـة إلا مـن خـلال القيـاس عـلى بـؤس الآخريـن الذيـن يقبعـون في درجـةٍ أدنى مـن السُّـلم الاجتماعـي، فحيـاة غالبيـة الميسـورين في مـصر هـي بـأي معيـار عالمـي منخفضـة الجـودة في كافَّـة تفاصيلهـا وعاليـة التكلفـة في نفـس الوقـت.

تتجسَّـد التناقضـات السـابقة في عـدد مـن الظواهـر البسـيطة التـي تسـترعي الانتبـاه، مثـل أن سلسـلة محـلات ماكدونالـدز في مـصر لا تـزال أسـعار قائمـة مأكولاتهـا مرتفعـة الثمـن جـدًّا، وليسـت في متنـاول السـواد الأعظـم مـن النـاس، ولا تـزال تُعتَـبَر مـن علامـات الاسـتهلاك البرچـوازي، عـلى الرغـم مـن أن ماكدونالـدز تَحـوَّل منـذ زمـن بعيـدٍ إلى طعـام الفقـراء والمحتاجـين في غالبيـة دول العـالم الغـربي، حيـث يقـدِّم أحيانًـا نوعًـا مـن الوجبـات لا يتجـاوز سـعره دولاريـن أو ثلاثـة، وهـو مـا يعـادل سـعر زجاجتـي ميـاه غازيـة، وعـلى الرغـم مـن دخـول سلسـلة محـلَّات ماكدونالـدز مـصر منـذ مـا يقـارب الثلاثـين عامًـا فـإن سـحره البرچـوازي لا يـزال كـما هـو، أي أن النـاس لم تَعتَـد بعـدُ عـلى اسـتهلاكه للدرجـة التـي تُمكِّنهـم مـن التعامـل مـع منتجاتـه باعتبارهـا أمـرًا عاديًـا، حتـى بعـد مـرور ثلاثـة عقـود.

هنـاك مشـهد مأسـاوي آخـر شـهدته منطقـة التجمُّـع الخامـس الراقـي منـذ عـدة سـنوات، وهـو لحظـة افتتـاح سلسـلة محـلات دانكـن دونتـس للقهـوة الأمريكيـة، فقـد وقفـت طوابـير طويلـة في انتظـار افتتـاح المحـل، وكانـت هنـاك حالـة مـن الفـرح والانتشـاء في أوسـاط سـكان التجمُّـع الخامـس وداخـل مجموعـات الفيسـبوك البرچوازيـة ابتهاجًـا بالخـبر السـعيد والنقلـة الحضاريـة، بينـما هـذه السلسـلة الأمريكية بالـذات معـروفٌ عنهـا أنهـا تقـدم القهـوة الأرخـص سـعرًا والأقـل جـودة والأكـثر كمِّيَّـة، وهـي عنـوان اسـتهلاك الطبقـة العاملـة الأمريكيـة لقهـوة الصبـاح، وغالبًـا مـا يتأفَّـف أبنـاء الطبقـات الوسـطى مـن تناوُلهـا، ولا يُقدِمـون عـلى ذلـك إلَّا لـو كانـوا مضطرِّيـن أو يسـكنون منطقـة نائيـة أو يشـتاقون لاحتسـاء القهـوة في سـاعة متأخِّـرة مـن الليـل وكل المحـال مغلقـة ولا يوجـد بديـل آخـر.

في العمـوم، تطـوَّرَت حالـة الاسـتهلاك المُتأَمـرِك إلى حـدودٍ غـير متوقَّعـة مـن البؤس، خاصَّـةً في العقـد المـاضي، بلغـت درجتهـا اسـتيراد الأعيـاد الأمريكيـة شـديدة المحليـة، والاحتفـال بهـا، وبكافـة تفاصيـل مفرداتهـا، داخـل الأوسـاط البرچوازيـة المصريـة. فعيـد "كُلِّ القدِّيسـين" المعـروف بالهالويـن تحـوَّل في العـشر سـنين الأخـيرة إلى عيـد برچـوازي مُحبَّـب، ولا سـيما للأطفـال، يشـترون خلالـه أقنِعـةَ ومُسـتَلزَمات التَّنكُّـر بغـرض تخويـف بعضهـم البعـض في مـرحٍ، الإشـكال الرئيـسي هـو أن هـذا العيـد في أمريـكا مرتبـط بعـدد مـن الممارسـات الشـعبية غـير المرتبطـة بالأنمـاط السـلوكية البرچوازيـة بالمـرَّة، مثـل مـرور الأطفـال عـلى منـازل الجـيران يطالبـون بإعطائهـم حلـوى، بمنتهـى

الإلحـاح، وإلَّا أخافوهـم بالأقنعـة الهالوينيَّـة، شيء أشـبه بعـادات أطفـال الفقـراء في مـصر في المـاضي حـين كانـوا يطوفـون بفوانيـس رمضـان قبـل عيـد الفطـر ويغنُّـون "إدُّونـا العـادة" أو العيديـة، بالطبـع عيـد الهالويـن منـزوع السـياق تمامًـا في مـصر؛ فهـو فضلًا عـن كونـه عيدًا دينيًّـا مسـيحيًّا إنجليزيًّـا في الأصـل، فهـو أيضًـا عيـدٌ شـعبيٌّ، وليـس ممارسـة متأمركـة لأطفـال أغنيـاء في دول العـالم الثالـث.

لكـن الأكـثر غرابـة في الواقـع هـو محـاكاة البرچوازيـين المصريـين المتأمركـين لعيـد الشـكر الأمريـكي أو "الثانكسـجيڤنج"، وهـو عيـد لـه خَلفيَّتـه الدينيـة الأنجلوسكسـونية القديمـة، تحـوَّل مـع الوقـت إلى عيـد أمريـكي وطنـي يُـروِّج لفكـرةٍ محـل خـلاف شـديد عـن وحـدة الشـعب الأمريـكي وتناغـم مكوِّناتـه؛ لـذا فالاحتفـال بـه في مـصر هـو أشـبه باحتفـال الشـعب اليابـاني مثـلًا بأعيـاد شـم النسـيم أو المولـد النبـوي، فعيـد الشـكر الأمريـكي والمرتبـط عـلى مسـتوى الممارسـة بتجمُّـع العائلـة والتفافهـا حـول ديـكٍ رومـي مطبـوخ وأطبـاق القـرع العسـلي، مرتبـطٌ بواقعـة دخـول عـدد مـن المسـتوطنين البِيـض لولايـة ماساتشوسـتس عـلى ظهـر عـدد مـن المراكـب وهـم في حالـة مـن الإعيـاء والتعـب مـن الـبرد، ثـم إنقاذهـم عـلى يـد اثنـين مـن السُّـكَّان الأصليـين، اللَّذَيْـن شرعـا في تعليـم المهاجريـن الجُـدُد كيفيـة صيـد الطيـور والحيوانـات والأسـماك، وزراعـة الـذرة. السـؤال هنـا: مـا علاقـة هـذا العيـد أو ملابسـاته أو أي مُفـرَدٍ مـن مفرداتـه أو دلالاتهـا بـأيٍّ مَـن كان في مـصر؟ لمـاذا يشـتري بعـض المصريـين ديـوكًا روميَّـة في نفـس الفـترة ليلتفُّـوا حـول المائـدة في سـعادةٍ أُسريَّـة؟ الأمـر تعيـسٌ فعـلًا، ويحتـاج إلى تأمُّـل أنثربولوچـي متعمِّـق فـوق مسـتوى قـدراتي المتواضعـة.

وربمـا يكـون حـال الأطفـال في مـصر هـو العنـوان الأكـثر فجاجـة ومأسـاوية للجربعـة المتأمركـة المزدوجـة، فأطفـال الطبقـات الوسـطى والميسـورة اعتـادوا تنـاول الوجبـات الجاهـزة، ويرتـادون بشـغفٍ سلاسِـلَ المطاعـم الأمريكيـة والأطعمـة والمشروبـات سريعـة التجهيـز، وهـم في العمـوم يخضعـون لنُظُـمٍ غذائيـة ضـارَّة وغـير صحيَّـة، سـبَّبَت انتشـار ظاهـرة البدانـة بينهـم، في حـين أن بدانـة الأطفـال -وفقًـا للتصـوُّرات الأمريكيـة- هـي التعريـف الواضـح للفقـر والبـؤس، وسـوء التربيـة، وعـدم قـدرة الأسرة عـلى الاهتـمام بالأطفـال وتغذيتهـم تغذيـةً سـليمةً ومتابعـة نشـاطاتهم الرياضيـة. الأطفـال في مـصر لا يعانـون مـن البدانـة بالطبـع، فـما زال السـواد الأعظـم مـن فقـراء أطفالهـا نحيـلي الأبـدان، مُصفَـرِّي الوجـوه، هزيـلي العظـام، مـا زالـوا في

مرحلة البحث عن كوب لبن وجرعة مناسبة من البروتين الحيواني، لا يزال سوء التغذية في مصر حتى الآن مرادفه النحافة، فتصبح البدانة والنحافة هم أحد مظاهر الغِنى والفقر معًا، فأطفال البرچوازيين فقراء وفقًا للمعايير الأمريكية، وأطفال الفقراء نحفاء وفقًا للمعايير العالمية، ليُشكِّلَا معًا عُملةً واحدة، وجهاها: بؤس الأغنياء وفقر الفقراء.

التأثيرات القِيَميّة والرّمزيّة للأمرَكة

للأمركة تأثيرات قِيَميَّة واضحة ومباشرة، أبسطها هو الإيمان بأمريكا نفسها وما تمثِّله. لو ضربنا مثالًا بدول أوروبا الشرقية ذات النُّظُم الشيوعية حتى أواخر ثمانينيات القرن العشرين، فالأمركة لم تَعنِ لهم بالأساس كوكاكولا وماكدونالدز، بل الديمقراطية وحرية الرأي والاعتقاد وتعدُّد الأحزاب، فماذا تمثِّل أمريكا لنا كمصريِّين؟ ظنِّي أنه مع مرور زمن طويل من تبعيتنا للولايات المتحدة، يمكن القول إننا استبطَنَّا في داخلنا ترادُفَ معنى الأمركة مع معنى الهزيمة والانبطاح والتسليم للقوة المُطلَقَة، خاصة بعد أن فشلت وعود السلام والرخاء التي أطلقها السادات وأرفقها بدخول مصر في الفَلَك الأمريكي، فلم تتجاوز مصر عنق الزجاجة في عام 1980 كما وعد السادات، بل اغتيل هو نفسه في العام التالي، ومع الوقت أصبحت العلاقة النفسية الناشئة مع أمريكا يختلط فيها الافتتان والكراهية والتسليم البديهي بالتبعيَّة. أمريكا مُتقدِّمة لأنها قويَّة وليست قويَّةً لأنها مُتقدِّمة. مصدر قيمتها الأساسي يأتي من القوة والسيطرة والجبروت العسكري وليس من القيم والأُسُس التي قامت عليها الجمهورية الأمريكية. أمريكا إمبراطورية لأنها قوية ومُسلَّحة وليس لأنها جمهورية وديمقراطية، هذه الإحالة الحصرية للقوة أنتجت مُركَّبًا نفسيًّا شديد البؤس؛ فإمَّا الاستسلام والتبعية الكامِلان، أو المقاومة على طريقة اختطاف الطائرات وتفجير الأبراج والتهليل فرحًا بذلك.

من هذين الموقعين: المُفتَتَن أو الكاره، جاء تأثير الولايات المتحدة على وعي المصريين السياسي والفكري، خاصَّةً المثقفين منهم، فهي إمَّا إمبراطورية الشر كلِّيَّة القدرة والجبروت التي لا تُمثِّل إلا كل ما هو شرير ومخيف ولا أخلاقي، أو هي الصيغة الأكثر تطوُّرًا وتقدُّمًا لمعاني الحرية والديمقراطية والممارسة السياسية

السليمة، وهي مناط التحضُّر والنموذج المثالي لتخطيط المدن وسياسات النقل ولتصوُّر علاقات السوق الحُرِّ والسياسات الضريبية والصحية، إلى آخره من عناصر تكون في اكتمالها صِفَةُ النموذج الشامل.

تستطيع أن تدرك عمق تأثير الأمركة على النُّخَب المصرية ومدى نفاذها إلى وعيهم من خلال سعيهم إلى محاكاة أنماط أمريكية لا يمكن محاكاتها، أو لا جدوى وأساس ماديّ من محاكاتها. سنجد -مثلًا- أنه بعد إبرام اتفاقية كامب ديفيد عام 1978، بدأت بعثات عسكرية مصرية في الدراسة في الأكاديميات العسكرية الأمريكية الواقعة في مناطق مترامية على أطراف المدن الأمريكية الكبرى أو في المناطق الريفية الواسعة، حيث لا يوجد نظام للنقل الجماعي أو شبكات مواصلات عامة ويعتمد السكان بالأساس على سياراتهم الخاصة وعلى الطرق السريعة الواسعة ذات الرسوم المُحصَّلة وأنماط عمران الضواحي الغنية الهادئة، لتصبح هذه التجربة الحياتية هي النموذج الأعلى في أذهان الكثيرين، والمرجع الذي يراد استنساخه في بيئات صحراوية ذات تواجُدٍ سكّاني مكتظٍّ، لا يمكنه تحمُّل تكلفة الحركة اليومية المعتمدة على حرق الوقود بشكل شخصي، ويصبح نموذج البيت الأمريكي ذي الثلاث طوابق المكسو بالقرميد هو الشكل المُتخيَّل عن العز والأُبَّهة.

سنجد مثلًا مَن يحاولون استنساخ نموذج جماعات الضغط الأمريكية بشكل محليٍّ كوسيلة من وسائل تشبيك مصالح مجموعات مُعيَّنة والدفاع عنها، وهو نموذج أمريكي صِرف، ابنٌ لحالة ديمقراطية شديدة الاستقرار لها تقاليد عتيدة في الاستمرار ولم يحدث لها أي انقطاع، في ظلِّ نظام حزبيٍّ ثنائيٍّ قديم ونخبة سياسية متماسكة ومتجدِّدة، وليس سلطة استبدادية فوقيَّة ضيِّقة الدائرة وشديدة المركزية، تتحوَّل معها نسخة جماعة الضغط المحلية إلى جماعات استجداء أو جماعات مصالحية شديدة الأنانية، لا تشتبك مع الشأن العام إلا من منظور حسابات شديدة الضيق، وهو ما وسم ملامح تعامُل جماعات رجال الأعمال المصريين مع السياسة ومع المسائل الوطنية بالمُجمَل.

ولن يختلف الأمر لو نظرنا إلى حال الكثير من الجماعات الثقافية والأكاديمية، حيث تسيطر مفردات الخطابات الأمريكية على جدالاتهم، فأصبحت سياسات

الهويـة الليبراليـة -مثـلًا- هـي المدخـل الرئيـسي لتحديـد مـا هـو تقدُّمـي ومـا هـو محافـظ، مـا هـو صائـب ومـا هـو غـير صائـب، بـل سـنجد أن كثـيراً مـن خطابـات اليمـين المـصري منقولـة بالحـرف مـن تصوُّرات اليمـين الأمريـكي، عـلى الرغـم مـن عـدم وجـود أي مجـال للتشـابه في الأرضيـة والخلفيـة بينهـما، ليصـل الأمـر إلى استنسـاخ نفـس نظريـات المؤامـرة التـي يتـمُّ ترديدهـا بـين الجماعـات الأكـثر يمينيَّـةً في الولايـات المتحـدة، بـدءًا مـن خضـوع العـالم لقـوى ماسـونية ومجلـس إدارة كـونيٍّ يسـيطر عليـه، وكذلـك نظريـات حـروب الجيـل الرابـع التـي صكَّهـا عسـكريُّون جمهوريُّـون متقاعِدون في فلوريـدا، وصـولًا إلى الترويـج لنظريـات تحـاول إثبـات عـدم كرويـة كوكـب الأرض، وأنـه مسـطَّح بيضـاوي، فضـلًا عـن وجـود مؤامـرة مـن وكالـة الفضـاء الأمريكيـة بشـأن حقيقـة الهبـوط عـلى القمـر الـذي تـمَّ فبركتـه، نهايـةً بترديـد نفـس الدعايـات اليمينيـة الأمريكيـة بشـأن وجـود مخطَّـط صينـيٍّ -بالتعـاون مـع رجـل الأعـمال الأمريـكي بيـل جايتـس- يقـف وراء انتشـار ڤـيروس كوڤيـد 19.

مـرَّ أكـثر مـن خمسـة وأربعـين عامًـا عـلى زيـارة الرئيـس الأمريـكي الأسـبق ريتشـارد نيكسـون إلى القاهـرة واسـتقباله بحفـاوة رسـمية وشـعبية جارفـة أدهشـت الجميـع حينهـا، منـذ هـذه اللحظـة المفصليـة، بـدأت مسـيرة الأمركـة وأثرهـا العميـق عـلى المجتمـع المـصري ودولتـه، عـلى كل المسـتويات الرسـمية والشـعبية والثقافيـة والمؤسَّسـيَّة، أثـر يحتـاج للمزيـد مـن البحـث والتأمُّـل؛ لدراسـة درجـة عُمقِـه عـلى مجريـات الحيـاة في مـصر. الجماعـة الثقافيـة المصريـة في حاجـة إلى بذل مجهـود كبير في هـذا الشـأن؛ لأن فيـه أحـد أهـم المفاتيـح اللازمـة للإمسـاك بواحـد مـن أهـم المكوِّنـات التـي تُشـكِّل جـذور وملامـح اللحظـة الراهنـة، فالأمركـة طالـت اليمـين واليسـار، الدولة والمجتمـع المـدني، الجيـش والأمـن، الإعـلام والتعليـم، النقـل والطُّـرُق، كافـة تفاصيـل الحيـاة تقريبًـا، والأدهـى أنهـا طالتـه مـن مواقـع نفسـية مختلفـة ومتناقضـة، بعضهـا ينكـر ظاهـرة الأمركـة بالكليـة، بـل ويعتقـد أنـه في حالـة عـداءٍ عميـق معهـا، بينـما هـو مغـروسٌ حتـى قمَّـة رأسـه في كل مُفـردات عالَمِهـا.

آثار مغامرة الترحال إلى دول النفط العربي

في الأزمنـة البعيـدة كـره المصريون السـفر، لم يميلـوا إليه إلَّا مُضطرِّيـن مُكرَهين؛ فهم فلاحـون يعيشـون في الـوادي، يخافـون الصحـراء التـي تحيـط بهـم، ولا يـودُّون معرفتها أو استكشـافها، حـذرون مـن الترحـال، لا يحبِّـذون المغامـرة، لم تكـن التجـارة مهنـةً إلَّا لأقلِّيَّـةٍ بينهـم، وكان السـفر يهـين ولاءهـم لـلأرض التـي عليهـم زراعتها ورعايتها. كان الفـلاح المـصري يقسـم بغربتـه إذا مـا غـادر قريتـه إلى القريـة المجـاورة لهـا مباشرة. لم يسـبق أبـدًا أن كان للمصريـين تجـارب وخـبرات مهجريـة قديمـة. ليسـوا كاليونانيـين أو اللبنانيـين والسـوريين الذيـن اسـتوطنوا العـوالم الجديـدة وهاجـروا إلى الأمريكتـين منـذ منتصـف القـرن التاسـع عـشر بجاليـات كبـيرة، وإلى يومنـا هـذا مـا زال المصريـون في الخـارج عاجزيـن عـن تأسـيس روابـط وجاليـات متماسِـكَة ذات حضـور قومـي وثقـافي مميَّـز في المهجـر، قياسًـا بقوميـات أخـرى مثـل الأرمنيـة واليونانيـة والصينيـة. ربمـا نجـد روابـط متماسـكة لأبنـاء القريـة الواحـدة أو المحافظـة الواحـدة في المهجـر، لكننـا مـن الصعـب أن نجـد روابِـطَ وثيقـةً تجمعهـم بصفتهـم مصريـين؛ فالمصريـون لم يعرفـوا طريـق الهجـرة للخـارج بأعـداد كبـيرة إلَّا في الثلـث الأخـير مـن القـرن العشريـن، وبعـد هزيمـة يونيـو 1967 بالـذات ومـا تلاهـا. بعـض مـن تلـك الهجـرات دائـمٌ، وكثـير منهـا مُؤقَّـت أو موسـمي، وكلهـا إشـكالية الطابـع عـلى مسـتوى أثرهـا النفـسي والاجتماعـي عليهـم، كـما لـو كانـت خطيئـةً مـا أو شرًّا لا بُـدَّ منـه، فغالبيـة المصريـين كانـوا -ولا يزالـون- غـيرَ مُحِبِّـين للهجـرة، حتـى ولـو تدافعـوا بالمناكـب سـعيًا وراءهـا، بحيـث يظـل الحنـين مُرافِقًـا لوجودهـم في المهاجـر مهـما تحسَّـنَت مفـردات حياتهـم واسـتقرت ظروفهـم، ومهـما كانـت ذاكـرة حياتهـم السـابقة في مـصر قاسـية وطـاردة ومريـرة.

مـع اعتيـاد الهجـرة والتمـرُّس عليهـا بـدأ مصريُّـو الخـارج في لعـب دور مؤثـر عـلى الداخـل المـصري، وأصبـح هـذا الـدور في تزايُـدٍ مسـتمرٍّ، خاصَّـة مـع تزايـد رغبـة المصريـين في الهجـرة يومًـا بعـد يـوم؛ بسـبب تـردِّي الظـروف الداخليـة، وقيـام مصريـي الخـارج بجلـب أقربائهـم وأبنـاء بلداتهـم إلى مواطنهـم الجديـدة، فتكوَّنـت -مـع الوقـت- مهاجِـرُ مصريـة تمتـدُّ لجيلـين أو ثلاثـة أجيـال، وأبرزهـا الهجـرات المسـيحية المصريـة إلى الولايـات المتحـدة وكنـدا وأسـتراليا التـي بـدأت منـذ أواخـر سـتينات القـرن العشريـن، والتـي أسَّسَـت مجتمعـاتٍ كنسـيَّةً هنـاك تَتَّسِـم بالتعاضُـد النسـبي، فضلًا

عـن وجـود هجـرات ريفيـة واسـعة ومسـتمرَّة إلى إيطاليـا واليونـان، اسـتقرَّت وتوطَّنَـت ببـطء وهـدوء، لكـن عـلى الرغـم مـن أن تأثـير الجاليـات المصريـة المسـتقرة في الخـارج عـلى الحيـاة في مـصر أصبـح لا يمكـن إغفـال آثـاره عـلى المشـهد الداخـلي في مـصر وديناميكيتـه، إلَّا أن تأثـير الهجـرة القصـيرة والموقوتـة عـلى الواقـع اليومـي المـصري كان -ولا يـزال- هـو الأكـثر وضوحًـا، بحيـث لعـب الـدور الأكـبر في إعـادة تشـكيل الخرائـط الاجتماعيـة المصريـة ريفيًـا وحَضَريًـا منـذ منتصـف السـبعينات.

تتَّسِـم الهجـرة المصريـة إلى الـدول العربيـة بأنهـا ذات مُعـدَّل دوران عـالٍ، وطابعها قصـيرٌ ومؤقَّـت حتـى لـو اسـتمرَّت لعقـود. باسـتثناء مملكـة البحريـن، ومؤخَّـرًا؛ لأسـباب طائفيـة بالأسـاس، تهـدف إلى زيـادة نسـبة المسـلمين السُّـنَّة في المجتمـع- لا تُوفِّـر البلـدان العربيـة البيئـة القانونيـة والتشريعيـة التـي تسـمح بتوطـين المهاجريـن المصريـين والحصـول عـلى جنسـياتها عـلى نطـاق واسـع، كـما في حـال المهاجريـن المصريـين إلى الـدول الأوروبيـة والولايـات المتحـدة وكنـدا وأسـتراليا، وكانـت الطبيعـة الموقوتـة للعمـل في البلـدان العربيـة هـي مـا جعلـت مـن تأثـير العمالـة المصريـة عـلى الواقـع الاجتماعـي المـصري اليومـي أكـثرَ حـدَّة ووضوحًـا، فنحـن نتحـدث عـن عـشرات ملايـين مـن المصريـين سـافروا عـبر خمسـة عقـود إلى دول الخليـج والعـراق وليبيـا، لفـترات متفاوتـة، كان محكومًـا عليهـا حتـمًا بالانتهـاء، وعـودة أصحابهـا إلى مـصر، إن عاجـلًا أم آجِـلًا، ليشـكِّلوا بعودتهـم تلـك واقعًـا اجتماعيًـا جديـدًا ومُتغـيِّرًا بحكـم الوفـورات الماليـة الضخمـة التـي حقَّقوهـا، ولا سـيما في فـترة السـبعينات والثمانينـات، والتـي أعـادت تشـكيل الخريطـة الطبقيـة المصريـة بشـكل ملحـوظ.

فـلا شَـكَّ أن هجـرة العمالـة المصريـة إلى الـدول العربيـة النفطيـة منـذ منتصـف السـبعينات كانـت تدخُّـلًا اسـتثنائيًا غـير مسـبوق في إعـادة تشـكيل الخريطـة الاجتماعيـة المصريـة بشـكل جـذري، عـلى المسـتوى الحـضري والريفـي، وفقًـا لمعـادلات جديـدة لم تكـن معروفـة مـن قبـل، فتحويـلات المصريـين العاملـين مـن الخـارج لم تكـن أبـدًا قبـل هـذه المرحلـة عنـصرًا رئيسـيًّا مـن العنـاصر التـي يعتمـد عليهـا الاقتصـاد القومـي في توفـير العملـة الصعبـة وتنشـيط الاسـتثمار والاسـتهلاك المحـلي، ولأوَّل مـرة في التاريـخ المـصري الحديـث لعـب عنـصرٌ مـن خـارج الحـدود السياسـية المصريـة دورًا رئيسـيًّا في إعـادة تشـكيل الخريطـة الطبقيـة في مـصر بشـكلٍ مَكَّنـه مـن تصعيـد فئـات مختلفـة ومتنوِّعـة طَبَقيًّـا، لم تكـن هـي الأبـرز عـلى أجنـدةٍ أولويـات التحديـث

الاجتماعـي المـصري، بمعنـى مـن المعـاني، ومـن وجهـة نظـر المواطـن المهاجـر للعمـل في الخـارج، كانـت عمليـةً أكـثر حريـة وعدالـة، قـام فيهـا صاحـب المبـادرة والمغامـرة ببيـع قـوَّة عملـه في بلـد أجنبـي، وخـاض تجربـة الغربـة عـن بـلاده، تلـك التجربـة التـي لا يُحبِّذهـا ولم يعرفهـا أحـد مـن قبلـه، ومعهـا أُجـبِر عـلى الخضـوع والتكيُّـف مـع بيئـات جديـدة، مقابـل صعـود اجتماعـي مُسـتحقٍّ. لكـن مـن وجهـة نظـر قطـاع مُعتَبَر مـن الدولـة والمجتمـع المـصري المسـتقر، كان الحـراك الاجتماعـي الناتـج عـن الهجـرة المؤقَّتـة للعمالـة المصريـة إلى الخليـج والـدول العربيـة تعبـيراً عـن اختـلال واضطـراب في البنيـة الاجتماعيـة المصريـة؛ لكونـه ناتِجًـا عـن عمليـة صعـود اجتماعـي تمَّـت خـارج حسـابات وهندسـات الدولـة والطبقـات المُهَيمِنَـة وسياسـتهم، وبعيـدًا عـن إدارتهـم المبـاشرة التـي طالمـا اعتـادوا عليهـا واعتبروهـا الممـرَّ الشرعـيَّ الوحيـد للصعـود الاجتماعـي المقبـول، فعمليـة الصعـود الاجتماعـي في مـصر عـادةً مـا تتـمُّ برضـا وقبـول البرچوازيـة، ووفقًـا لخطتهـا هـي، وبالمقـدار والمسـار الـذي تُحـدِّده هـي.

فوضى السبعينات الخَلَّاقة

هيمنـت الدولـة عـلى الاقتصـاد منـذ الخمسـينات بحيـث أصبحـت هـي اللاعـب الرئيـسيَّ في تحديـد الفئـات المسـتهدَفَة بالرعايـة والتصعيـد الاجتماعـي، وعـلى الرغـم مـمَّا بَـدَا إنصافًـا نسـبيًّا للريـف وصغـار ومتوسِّـطي المـُلَّاك الزراعيـين، إلا أن الطبقـة الوسـطى المدينيـة والطبقـة العاملـة كانـا الأولى بحظـوة ورعايـة الجمهوريـة اليوليويـة في طورهـا الخمسـيني والسـتيني، وجـاء فشـل الخطـة الخمسـية الأولى 1961 - 1966 -والتـي أعقبهـا مبـاشرة هزيمـة يونيـو 1967 المُدمِّـرة- ليُخِـلَّ مـن اتِّـزان الدولـة وخططهـا، بشـكل يُعجِزهـا عـن إدارة التحـوُّلات الاجتماعيـة بالهيمنـة التـي تتصوَّرهـا عـن نفسـه. ولا شـك أن هزيمـة يونيـو 1967 قـد أصابـت الاقتصـاد المـصري بضربـات قاسـمة، فقـد حرمتـه مـن إيـرادات قنـاة السـويس وعائـدات السـياحة والبـترول، وبالتـالي خلقـت أزمـة واضحـة للعُملَـة الصعبـة، ترتَّـب عليهـا خفـضٌ واضـح للـواردات والسـلع الاسـتهلاكية والكماليـة مـن الخـارج؛ مـمَّا أثَّـر بشـكل مبـاشر عـلى مفـردات حيـاة الطبقـة الوسـطى والعاملـة، وفي ظِـلِّ تضخُّـم بـدأ يزحـف تدريجيًّا وتتـآكل معـه رواتـب العاملـين في الدولـة التـي لا تَتَّسِـم بالمرونـة في مواجهـة تقلُّبـات الاقتصـاد،

كانت بدايات هجرة العمالة المصرية للخليج تشكِّل حَلًّا سحريًّا للمواطن الفرد في مواجهة هذه الأزمات، فرواتب الخارج كانت أضعافَ أضعافِ ما يتلقَّاه المهني المصري حديثُ التَّعيين بحيث تسمح له بتراكُمٍ ماليٍّ استثنائي يمكنه في سنوات قليلة من امتلاك عقار وسيارة وفوائض، وهو الأمر الذي لم يكن سائِدًا وقتها بالمرة بين شرائح الطبقة الوسطى المدينية.

تعامَلَت الدولة مع هجرة العمالة المصرية للخارج بمشاعر مزدوجة ومتضاربة، فمن ناحية رأت جانبًا إيجابيًّا في الظاهرة يتمثَّل في تخفيف العبء عليها وعلى التزاماتها الاجتماعية إزاء مشكلات اقتصادية متفاقمة، بدأت تنال من الطبقة الوسطى وتثير تَذمُّرَها السياسي، فهجرة كثير من المُتعلِّمين إلى العمل في الخليج كان يعني اختيار الحلول الفردية للترقِّي الاجتماعي، عِوَضًا عن خوض غمار صراعات جماعية حول مستقبل مصر الذي بدا ضبابيًّا بعد هزيمة يونيو 1967 وحرب 1973، ومن ناحية أخرى شعرت الدولة بأنها غير مُتحكِّمة في قوة العمل المصرية، وغير قادرة على توجيهها وفقًا لخُطَطِها هي داخل البلاد؛ لذا جاء الخطاب الإعلامي المصاحب لهجرة المصريين إلى الخليج يحمل في ثناياه بعض الإدانة للمهاجرين، من دون أن تكون إدانةً صريحة، ولكن بالشكل الكافي الذي يشير إلى سرعة اغتناء بعض المصريين بسبب عملهم في الخليج كعلامة من علامات إحداث نعمة، لكن في كل الأحوال، كانت الدولة عاجزة عن التعامُل مع الظاهرة بشكل عمليٍّ وفعَّال، فقد كانت غارِقةً في مشكلاتها المتراكمة بسبب الحروب وسوء الإدارة الاقتصادية؛ لذا لم تشرع في التفكير المُبكِّر في إدارة العمالة المصرية المهاجرة سياسيًّا وتنظيمًا بشكلٍ يساعدها هي في حساباتها السياسية والإقليمية، ولا سيما مع الدول التي اعتمدت على العِمالة المصرية اعتمادًا أساسيًّا في السبعينات والثمانينات، بل على العكس، أصبحت العمالة المصرية مع الوقت سيفًا مُسلطًا على رقبة الدولة المصرية، وعُنصرًا من عناصر إخضاعها من قِبَل بعض الحكومات العربية، وأصبح التهديد بطرد العِمالَة المصرية ورقةً مُبتَذَلَة في يد بعض الحُكَّام العرب لمساومة الدولة المصرية سياسيًّا.

وافدون جُدُد على الطبقة الوسطى

لكن التحوُّل الاجتماعي الأكبر والأكثر دراماتيكيًا لم يكن في أوساط الطبقات الوسطى المتعلمة بقدر ما كان في أوساط فئات صغار المهنيين والعمال اليدويين المهرة والمزارعين، الذي سافروا بالملايين للعمل في العراق وليبيا تحديدًا طوال عقدين السبعينات والثمانينات، وقتما كان السفر إلى هذين البلدين ذوي الأنظمة السياسية العروبية أكثر سهولة وتيسيرا قياسًا بغيرهم، إلى حد السماح لدخول المصريين إلى أراضيهم بالبطاقات الشخصية أو جوازات السفر بدون تأشيرات، فسافر ملايين الفلاحين المصريين في موجات متعاقبة للعمل في العراق وليبيا والأردن حتى شكلوا نسبة سكانية معتبرة من سكان تلك البلاد، ليكون ناتج عملهم هذا سببا مباشرة في تغيير شكل الحياة في الريف المصري ولا سيما الصعيد، فعلى الرغم من تدهور الزراعة في مصر والبلدان النامية عمومًا بدأ من عقد السبعينات، إلا أن هذا العقد شهد في مصر التوسع الحقيقي في استخدام ادوات الميكنة الزراعية التي غيرت من منظومة العمل الزراعي، وظهور قطاعات أكثر خدمية وتجارية في الريف المصري، فضلا عن التوسع في البناء والملكية العقارية في الريف وتحول الريف تدريجيًا من صيغة القرى الفقيرة البائسة ذات البيوت الطين، إلى عمران الطوب الأحمر شبه المديني سيئ التخطيط.

كانت هجرة العمالة اليدوية المصرية إلى الخليج سببًا مباشرًا في تعديل وضعها الاجتماعي بالكامل، ليصبحوا مرشَّحين جدًا لعضوية الطبقة الوسطى المصرية، ولكن من حواشي هوامشها المدينية ومن قلب قرى ريفها وأطراف المدن الصغيرة، فلقد تمكَّنَت هذه الفئات من حيازة الوَفْر المالي اللازم لشراء سلع معمرة كانت حِكرًا على أبناء الطبقة الوسطى المدينية فقط، وعنوانًا لقيمتها الاجتماعية؛ أصبح التلفزيون والثلاجة والبوتاجاز ملكًا للجميع، وأصبحت الغسالات الأوتوماتيكية ونصف الأوتوماتيكية في متناول قطاعات سكانية أوسع، ولم يَعُد معيار حيازة واستهلاك السلع المُعمَّرة ابن حقبة الستينات -وهو المعيار المُحدِّد لعضوية الطبقة الوسطى- معيارا صالحًا في الثمانينات والتسعينات، فأصبح امتلاك منازل في أحياء بعينها -ومعها ملكية السيارة والمُكيِّف المنزلي، والقدرة على حيازة عضوية أندية اجتماعية ورياضية- سقفًا جديدًا للوجاهة الاجتماعية "الطبقة وُسطية".

غـير أن هـذا لم يمنـع مـن وفـودٍ جـارفٍ جديـد لهـذه الفئـات الوسـطى عـبر بَّوابـة العمـل في البلـدان العربيـة والادخـار والاسـتثمار الناتـج عـن الوفـورات المُجزِيَـة المتحققـة عـن هـذا العمـل، فكانـت الأجـور الخليجيـة سـببًا مباشرًا في تشـكيل طبقـات وسـطى جديـدة في المـدن المصريـة غـير القاهـرة والإسـكندرية، الطبقـات الوسـطى -وحتـى العليـا- الموجـودة حاليًـا في مـدن الأقاليـم المصريـة تديـن بـولاء كامـل لأعمالهـا في الـدول العربيـة خـلال فـترة الهجـرة العظمـى في الثمانينـات، وبقـدر طـول مـدة العمـل في الخـارج والقـدرة عـلى الادِّخـار، ثـم القـدرة عـلى تدويـر هـذا الادِّخـار في الاسـتثمار المحـلي؛ بقـدر مـا تمَّـت إعـادة تشـكيل الطبقـات الوسـطى والعليـا في الحـواشي المدينيـة ونصـف الريفيـة في مـصر.

تأفُّف المُتأفِّفين من الوافدين الجُدُد

حملـت الذاكـرة الخطابيـة الثقافيـة المصريـة في تعاملهـا مـع الهجـرة للخليـج عديـدًا مـن العنـاصر، أغلبهـا كان سـلبيًا، ولا سـيَّما في تعبيراتهـا الأدبيـة والسـينمائية والدراميـة، فمـن وجهـة نظـر عمـوم أعضـاء الطبقـة الوسـطى والعاملـة بنـت المرحلـة الناصريـة، والتـي كانـت ناقِمـةً ومُتـضرِّرةً مـن سياسـات الانفتـاح السـاداتي، كانـت ظاهـرة الهجـرة إلى الخليـج بالنسـبة لهـا جـزءًا مـن حالـة التدهـور العـام الـذي اعتبرتـه صِنـوًا للعهـد السـاداتي، وتعبـيرًا عـن تفكيـك البنيـة الإنتاجيـة المصريـة، وخسـارة وطنيـة لليـد العاملـة المُنتِجَـة. لكـن دعنـا مـن الخطابـات الحنجوريـة التـي تَحِـنُّ دائمًـا إلى مـاضٍ مـضى لـن يعـود، فقـد كان وراء التأفُّـف الاجتماعـي مـن ظاهـرة الهجـرة إلى الخليـج والبلـدان العربيـة دوافِـعُ أكـثر عمقًـا مـن وجهـة نظـري، كانـت تُعـبِّر عـن شـفرات الغـيرة الطبقيـة المتأصِّلـة داخـل الفئـات الاجتماعيـة الوسـطى التـي صعدت في زمـن سـابق بالعصاميـة أو الجربعـة عـلى حَـدٍّ سـواء، فـأي وافـد جديـد عـلى موقعهـم الطبقـي المتميـز والمتوسـط داخـل هـرم البـؤس المـصري هـو دائمًـا موضـوعٌ للتشـكُّك والتمحيـص والفـرز، وعـادة مـا يُصـاغ ضـدَّه خطـاب مـن نـوع "القوالـب نامـت والانصـاص قامـت"، أو خطابـات بمفـردات أكـثر تَثاقُفًـا، مثـل مفـردات ترييـف المدينـة وتصحـير الحضـارة، وعـدد مـن الصياغـات التـي تعتـبر ذلـك الصعـود الاجتماعـي لتلـك

الفئات الجديدة تعبيرًا عن اختلال موازين الطبيعة وتحدِّيًا لحكمة الخالق من خلق الكون.

ربما كان من أكثر الخطابات استعلاءً وتَنطُّعًا على مغامرة كفاح المصريين في الدول العربية، هو اتهام العائدين من الخليج بأن ولاءهم الثقافي قد حاد عن جادَّة صواب الوطنية المصرية، وأصبح يمجِّد النموذج السعودي مثلًا، وراحوا يتحدثون عن الأثر الشرير للمال النفطي على نقاء الثقافة المصرية "الأصيلة"، لكن المثير للتعجُّب في هذا الخطاب أنه لا يحمل حدًّا أدنى من الجدية والتأمُّل في حال هؤلاء المصريين قبل هجرتهم، فكثير من هؤلاء لم يسبق لهم رؤية مدينة واحدة قبل سفرهم، وكان مرورهم على عاصمتهم القاهرة مجرَّدَ محطَّة طيرانٍ جوِّيٍّ في رحلة هجرتهم، وعمليًّا، كانت تجاربهم المدينية الأولى هي تجارب حياتهم في أحياء مدن الكويت والرياض وجدة والمنامة، فلِمَ لا يدينون بالفضل لهذه التجارب التي كانت سببًا مباشرًا في تَرَقِّيهم الاجتماعي وتحسين شروط حياتهم وارتفاع جودتها؟

من النادر أن تسأل مواطنًا مصريًا عن رأيه في فترة حكم الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين إلّا وكان ردُّه إيجابيًا، ولِمَ لا؟ لقد كانت العمالة المصرية في العراق مدلَّلة إلى حَدٍّ كبير، قياسًا بحالها في السعودية وباقي دول الخليج، وكان التعامُل معها أساسه الطِّيبة والأخوَّة والنِّدِّيَّة، هذه العمالة شهدت فترة زهوٍ سبعيني ثمانيني غير مسبوق في عهد بعث صدام، وازدهر موقعها في العملية الإنتاجية العراقية وقتها بشكلٍ محلٍّ ترحيب. يدين هؤلاء المصريين لزمن صدام حسين بالوفاء لأنه كان سببًا في ترقِّيهم الاجتماعي، بنفس القدر من الوفاء الذي تحملة الطبقة العاملة الصناعية المصرية وطبقة متوسِّطي المُلّاك الزراعيين ناحية عهد جمال عبد الناصر، الذي كانت سياساته سببًا مباشرًا في رفع مكانتهم الاجتماعية والمواطنيَّة.

من المفهوم طبعًا أن يتأفَّف الخطاب الثقافي الوطني التقليدي من تراكم ثروات في الداخل المصري بشكل ناتج عن علاقات إنتاجية واقتصادية تتمُّ في خارج البلاد، هذا منطقيٌّ تمامًا، لكن غير المنطقي قطعًا هو استمرار مضغ واجترار هذا الخطاب المصاب بالغيبوبة الزمنية، بعد أن أصبحت الروابط الاقتصادية المصرية

باقتصاديات الدول النفطية هي أحد الأُسُس المُحرِّكة والمُنظِّمة للاقتصاد المحلي، فتحويلات المصريين من الخارج لم تَعُد هي المصدر الرئيسي في معادلة العلاقة مع اقتصاديات دول الخليج باعتبارها مصدرًا رئيسيًّا من مصادر العملة الصعبة، والمصدر الرئيسي للتدوير المستمر لسوق العقارات في مصر، لكن رؤوس الأموال الخليجية نفسها صارت مع الوقت، وبالتدريج، هي المصدر الرئيسي للاستثمار الأجنبي في مصر، بحيث ارتبط الاقتصاد المصري ارتباطًا عميقًا باقتصاديات الريع الخليجي، ارتباطًا لا تنفصم عُراه، صار أشبه بعلاقات التبعيَّة.

هجرة العِمالة والأثر السياسي

بدأت هجرة العمالة المصرية إلى الدول العربية في أعقاب فترة انتعاشَةِ الاقتصاديات النفطية التي تلت نهاية حرب أكتوبر 1973، تزايدت معدَّلات الهجرة باضطراد خلال عقد السبعينات، إلَّا أن عقد الثمانينات كان عقد الهجرة بامتياز، فقد سافر المصريون من كل الطبقات، ومن كل المناطق، للعمل في كل البلدان العربية، كان العراق فاتحًا أبوابه للمصريين من كل الفئات، وكانت دول الخليج العربي -وفي مقدِّمتها السعودية والكويت- موطِنًا لعمل ملايين المصريين، ولم يمنع تدهور العلاقات المصرية الليبية في هذه الفترة من وجود عِمالَةٍ مصرية كبيرة شكَّلَت نسبة مئويَّةً معتبرة من سُكَّان ليبيا نفسها، ولا سيما تلك الآتية من الصعيد المصري.

لقد كان عقد الثمانينات فريدًا من نوعه في التاريخ المصري، فلأول مرة ينتقل الجسم المعتبر للطبقة الوسطى المصرية بشكلٍ ماديٍّ إلى خارج مصر، بشكلٍ أثَّر على الحياة السياسية والثقافية في البلاد، فغياب الوجود المادي المستقر للطبقة الوسطى المصرية داخل بلادها جعل السِّمة الرئيسية للمجال السياسي والحركي في الثمانينات يتَّسِم بالفقر والضمور وانعدام المبادرة وعدم القدرة على خلق تصورات جديدة لتحديات الواقع المحلي، بشكل انعكس على خطاب التيارات السياسية المصرية الموجودة وقتها، وجعل مصر منعزلة عن تغيُّرات العالم السياسية في هذا العقد، وكأنه عقدٌ تَمَّ إسقاطه من حسابات التاريخ السياسي، عقد آسِنٌ، عنوانه الملل والصعود التدريجي للتيار الإسلامي، بدون مضمون سياسي واضح،

ولِمَ لا؟ ما دام الجسم الرئيسي للفئة الاجتماعية التي طالما حملت على أكتافها هذا النوع من المَهمّات أصبح يكسب قوته من خلال عملية سياسية واقتصادية تتمُّ في بلدان أخرى.

احتاجت مصر إلى عودة جزء كبير من أبنائها المهاجرين في العراق والكويت في أعقاب حرب الخليج الثانية عام 1991، ثم عودة موجات ثانية من المهاجرين إلى السعودية، حتى تبدأ طبقة وسطى مصرية جديدة في إعادة تشكيل نفسها في التسعينات عبر العمل والاستثمار في السوق المصري، مستفيدة من إعفاء مصر من ديونها العسكرية الأمريكية أثناء حرب الخليج، وحدوث تحسُّنٌ نسبيٌّ في الأداء الاقتصادي، بدءًا من منتصف التسعينات، كي تظهر -وبشكل تدريجي- ملامح بدائية لجدل عام وسياسي جديد يتنامى ببطء، لكي تظهر ملامحه الأولى مع مطلع الألفية الجديدة وانتشار الإنترنت، لكنه كان جدلًا ابنًا لعالَمِه الجديد الذي يلعب فيه المال النفطي دورًا استثماريًّا وإعلاميًّا كبيرًا وحاسِمًا، حاول من خلاله ضبط إيقاع التحديث والحراك السياسي في مصر على إيقاعه هو، وعلى ترَدُّدات موجات مشكلاته هو بحدودها التي تتَّسِم بالتقليدية الشديدة، بشكلٍ خَلَقَ تحالُفًا موضوعيًّا بين التيارات المحافظة الإسلامية وبين مَشيَخات الخليج وإماراتها، التي لن تترك الواقع المصري وتفاعُلاته يقود عملية تحديثٍ هو المُهيمِن عليها سُلطَويًّا، والتي تتَّسم بالتدريجية والحذر الشديد؛ لذا كان الظهور البازغ للتيارات السلفية المدينة بالولاء الكامل للمملكة العربية السعودية، ومنها -وبسببها- بدأت تتسرَّب إلى المصريين مفردات ومعاني الطائفية المذهبية الإسلامية، وتمَّت صياغة خطابات ضد المسلمين الشيعة لم يكن يعرفها المصريون من قبل.

لقد بدأت الحقبة البترو- دولارية بهجرة العمالة المصرية إلى الخليج، ولكنها انتهت إلى قيادة الخليج نفسه لإيقاع التحديث والتغيير في مصر، خاصة بعد انتصار الرجعيات الخليجية على النزوعات الجمهورية والمواطنية الثورية التي صاحَبَت الربيع العربي في بداياته، واستطاعت أن تسهم في توجيه دفَّة الصراعات المحلية في دول الربيع العربي إلى اصطفافات طائفية ودينية لم تُفضِ إلَّا إلى تقويض أركان وجود تلك الدول والبلدان، وحتى يومنا هذا ما زلنا نعيش في العالم الذي أنتجَته هذه المرحلة التي لا نعرف يقينًا إلى أين ستُفضي بنا وبالمنطقة العربية كلها.

صحوةٌ إسلاميَّة تُواجِه الأزمة فتُعمِّقها

ليس من قبيل المبالغة أبدًا النظر إلى الصحوة الإسلامية باعتبارها الظاهرة الاجتماعية والسياسية الأهم في التاريخ المصري الحديث منذ بداية سبعينات القرن العشرين وحتى اندلاع ثورة يناير 2011، فهي التي وَسَمَت جدالاته وحدَّدَت نطاق حركته السياسية والاجتماعية، وخلَقَت استقطاباته وشكَّلَت رؤى وتصوُّرات ووجدان أربعة أجيال متتالية على الأقل، فإذا كانت الحياة في مصر منذ بداية السبعينات قد تشكَّلَت بمثلَّثٍ، أضلاعه هي: الانفتاح الاقتصادي وهجرة العمالة المصرية إلى الخليج وغزو أنماط الحياة المتأمركة، فالصحوة الإسلامية كانت بمثابة المساحة الداخلية لهذا المُثلَّث والمجال الرابط بين أضلاعه، فكل ظاهرة من الثلاثة على حِدَة كانت مؤثِّرَةً على قطاعات مُعيَّنة في المجتمع أكثر من غيرها، لكن الصحوة الإسلامية شكَّلَت في ظنِّي الحبلَ السُّرِّيَّ الذي يربط كل هذه الظواهر ببعضها البعض، إلى جانب كونها ظاهرةً أصيلة في ذاتها، ولا يمكن اعتبارها متغيِّرًا تابعًا لأيٍّ من الظواهر الأخرى.

لم تكن الصحوة الإسلامية إحياءً جديدًا لشيء فارَقَه الناس كما يدَّعي البعض، سواء كان هذا الادِّعاء من موقعٍ نَظَريٍّ وسياسي علمانيٍّ وطني يحاول إثبات غربة الظاهرة عن المجتمع، أو من موقعٍ إسلاميٍّ مضاد أسبغ على الصحوة صفات ربَّانية استثنائية باعتبارها فتحًا أسَّس ودعا له رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله لنصرة الإسلام، ففي ظنِّي المتواضع، ظلَّت التقاليد الإسلامية في السياسة والاجتماع مكوِّنًا حاسِمًا من المكوِّنات التي تأسَّسَت عليها الوطنية المصرية المحافظة في صبغتها "القرن عشرينية"، وظلَّت كذلك شرطًا رئيسيًّا لقياس مدى سلامة ومواءمة الأفكار الجديدة التي تبنَّتها الحركة الوطنية المصرية بحذر وتهيُّب كي تثبت أنها لا تخالف الدين الإسلامي، سواء كانت هذه الأفكار لها جذور أيديولوچية ليبرالية أو قومية أو اشتراكية، فسؤال كيفية التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، المستمر من منتصف القرن التاسع عشر وحتى لحظتنا المُعاشَة، ليس إلا محاولة مستمرَّة لإيجاد سبل لتكييف المفاهيم الحداثية على التقليد الإسلامي الموروث سياسيًّا واجتماعيًّا، بشرط ألَّا يتغلَّب التقليد الإسلامي على المسارات التي ارتأتها الحركة الوطنية شرطًا للتقدُّم ونَيل الاستقلال واللحاق بالغرب، وفي نفس الوقت، التأكُّد

المستمر من أن الأسس الحديثة الجديدة لا تنال من جوهر التقليد الإسلامي نفسه ومن حضوره الضروري والمرغوب في كل مناحي الحياة في المجتمع، لقد كان هذا هو سؤال أسئِلَةِ وطنيَّتنا الحديثة كما أظن، ولا أعتقد أن يستقيم هذا السؤال المحوري المستمر مع ادِّعاءاتٍ تتعامل مع المد الديني الذي يأتي بين حقبة وأخرى باعتباره ظاهرة مستوردة على جوهر الوطنية المصرية، أو باعتباره الدخول الأول لدعوة الإسلام والتوحيد في بَرِّ مصر.

في جانبٍ منها، كانت الصحوات الدينية الإسلامية والمسيحية في مصر استجابةً تاريخية لمفاعيل مشروع التحديث على المجتمع، وفي نفس الوقت استجابة ورَدَّ فعل لنكوص نفس مشروع التحديث وتعثُّره، هذا التناقض هو ما شكَّل -في ظنِّي- ملامح الصحوة الإسلامية العصبية والمتضاربة، فقد كانت من زاوية تحمل روح وعاطفة التغيير، وكانت في نفس الوقت دعوة للدفاع والتمسُّك بكثير من التقاليد المحافظة المعادية للتغيير.

يمكن فهم الصحوة كاستجابة مجتمعية لأثر التحديث على مصر بسبب زيادة عدد المتعلِّمين في البلاد وأثر التعليم الحديث على رؤيتهم لمعنى لوجودهم الشخصي ووجودهم في العالم الذين يعيشون فيه، وكوافدين جُدُدٍ على الجسم المديني للدولة والمجتمع، فتشكَّلَت كتلة معتبرة من السكان احتاجت إلى مداخل وأدوات وخطابات جديدة للتعامل مع الدين والعقيدة وتطبيقاتهما الحياتية، بشكل تغيَّرَت معه كثير من الملامح التقليدية والبسيطة التي ميَّزَت تعامُل الأجيال السابقة معهما. أصبح الناس بحكم التعليم المنتشر قادرين على الاطِّلاع المباشر على التراث الديني وتأويلاته، ومحاولة قراءته بشكل يستجيب لشروط واقعهم المعاش وتحدياته، ولم يَعُد الأمر حِكرًا على عدد من رجال الدين الأزاهرة ومشايخ الطرق، بل امتد ليشمل المهنيِّين خرِّيجي الجامعات الحديثة والكليات العملية، ففي التحليل الأخير أصبحت الطليعة المتحمِّسة دينيًّا بعد الصحوات الدينية في بداية السبعينات من الأطباء والمهندسين والصيادلة وليس من طلبة الزوايا والمدارس.

لكن من زاوية أخرى، ومن داخل نفس الحالة التاريخية، كانت بداية واستمرار صعود الصحوات الدينية في السبعينات والثمانينات، ثم هيمنتها في

التسـعينات، تعبـيرًا واضحًـا عـن خلـل مـشروع التحديـث المـصري وأزمـات الدولـة الوطنيـة وتياراتهـا الفكريـة في أعقـاب هزيمـة يونيـو 1967. الهزيمـة التـي أصابـت الكتلـة التاريخيـة المهيمنـة في مـصر وقتهـا بحالـة انعـدام وزن شـديد وشـعور عميـق بالخـواء النفـسي، وميـلٍ عَدَمـيٍّ للكُفـر بالمـشروع الوطنـي بسـماته الناصريـة ذات الرطانـة الاشـتراكية، باعتبـاره طريقًـا أفـضى إلى الهزيمـة والانكسـار. وكانـت هنـاك حاجة مُلِحَّـة لاقتفـاء أثـر إجابـات متعجِّلـة لأسـئلة مصـاب الهزيمـة الأليمـة مـن موقـعٍ مُغايِـرٍ لموقـع السـلطة وجعجعاتهـا الخطابيـة، وفي نفـس الوقـت، مـن موقـع أكـثر عصمـة وأمانًـا وغـير مفـارق لجـذور الفكـرة الوطنيـة الإسـلامية الراسـخة في وجـدان المصريـين، والتـي أتى منهـا أبنـاء الصحـوة الإسـلامية أنفسـهم.

لقـد كانـت الصحـوة الإسـلامية صحـوةً بحـقٍّ، تفاعَلَـت سريعًـا مـع المُكـوِّن الدينـي في الوجـدان العـام، ومـع العاطفـة الدينيـة الجيَّاشـة للمصريـين، تفاعُـلًا حفَّـازًا، كان مـردوده العاطفـي واضحًـا بشـدَّة، وأثَّـر عـلى أمزجـة وميـول مختلـف الطبقـات، ومختلـف العنـاصر مـن داخـل جسـم الدولـة وخارجهـا، وتمكَّـن مـن اخـتراق كل مفـردات النقـاش العـام وجدالاتـه، ببسـاطة: الصحـوة اسـتحقَّت اسـمها بالفعـل، بـل أصبحـت مـع الوقـت أكـبر مـن كونهـا مُجـرَّد صحـوة، بـل هيمنـة فكريـة وسـلطة اجتماعيـة وعالمًـا بكاملـه يعيشـه المصريـون ويتحرَّكـون داخـل حـدوده وتخومـه.

الصحوة الإسلامية كضرورة سياسيَّة

تضافَـرَ عـدد مـن العوامـل السياسـية التـي جعلـت للصحـوة الإسـلامية مـدًّا جارفًـا مُهَيمِنًـا منـذ النصـف الثـاني مـن السـبعينات. مـن حيـث المبـدأ، لسـت مـن أنصـار تغليـب عامـل عـلى آخـر بجعلـه العامـل الحاسـم في تشـكيل الظاهـرة، البعـض يذهـب إلى أن صعـود الصحـوة الإسـلامية كان نِتـاجَ مُعادَلـةٍ سياسـية صاغهـا أنـور السـادات، رعتهـا ودفعتهـا مـن قبـل الدولـة المصريـة والمملكـة العربيـة السـعودية، ثـم راحـت لاحقًـا تنمـو بشـكل عضـوي وأصيـل، والبعـض الآخـر رآهـا حالـةً عضويـة بالمُجمَـل، وجـدت طريقهـا للصعـود السـياسي في أعقـاب هزيمـة يونيـو 1967 كـردٍّ منطقـي عـلى آثارهـا، وبالتـالي ينظـرون إليهـا فقـط مـن زاويـة كونهـا تعبـيرًا أصيـلًا عـن مناهضـة ومعارضـة الدولـة اليوليويَّـة.

الصحـوة الإسـلامية -في تقديـري- كانـت أكـبر مـن أن يُشـكِّلها رافـدٌ واحـد أو قـرار سـياسي في لحظـة بعينهـا، فمـن ناحيـة الدولـة اليوليويـة في طورهـا السـاداتي، كان الإحيـاء الإسـلامي هـو أحـد الأشـكال الخطابيـة التـي احتاجتهـا للتمـرُّد عـلى الإرث النـاصري، وكان تعبـيرًا عـن تمكـين يمـين النظـام في صراعـه مـع مراكـز القـوى، ومُعضِّـدًا لمفرداتـه الخطابيـة التقليديـة، كالعـودة إلى أخـلاق القريـة، وضرورة احـترام الرئيـس كبـير العائلـة؛ لـذا فـلا يمكـن إغفـال الدفعـة التـي أعطتهـا الدَّولـة للصحـوة الإسـلامية بـدءًا مـن عـام 1973، فعندمـا صـاغ الرئيـس أنـور السـادات ورقـة أكتوبـر[1] كوثيقـة سياسـية جديـدة للدولـة اليوليويـة، تتجـاوز بهـا ميثـاق العمـل الوطنـي الـذي صـدر في عهـد جـمال عبـد النـاصر، وهـي الوثيقـة التـي لم تَلـقَ الاهتـمام اللائـق بهـا كآخـر وثيقـة سياسـية مُلزِمَـة تصـدر مـن الجمهوريـة اليوليويـة، اكتسـبت شرعيتهـا مـع طرحهـا للاسـتفتاء الشـعبي في 15 مايـو 1974، وفيهـا تـمَّ صَـكُّ مصطلحـات جديـدة جـاءت لتعـرف الطـور الجديـد للدولـة اليوليويـة باعتبارهـا دولـة العلـم والإيمـان، بـل وراحـت تعـرف أيضًـا مفهـوم الجهـاد وأشـكاله، مُبيِّنَـة أنـه ليـس مجـرَّدَ قتـال في سـبيل اللـه، بـل يتَّسِـع ليشـمل معـاني الجهـاد الاجتماعـي والعلمـي، معضِّـدَةً لذلـك بآيـات مـن القـرآن وعـدد مـن الأحاديـث النبويـة.

زاد المحتـوى الدينـي في الإعـلام الرسـمي بشـكل واضـح منـذ منتصـف السـبعينات، وبـزغ نجـم الشـيخ محمـد متـولي الشـعراوي، الـذي منحتـه الدولـة برنامجًـا أسـبوعيًا ثابتًـا يتـم بثُّـه في وقـت ذروة المشـاهدة يـوم الجمعـة ظهـرًا قبل بـدء مباريـات الدوري العـام لكـرة القـدم، وتحـوَّل السـيد أنـور السـادات إلى الرئيـس "محمـد" أنور السـادات؛ تأكيـدًا للقـب الرئيـس المؤمـن الـذي أطلقـه عـلى نفسـه، واسـتطاعت الدولـة اسـتخدام هـذه الجرعـة الدينيـة المسـتحدثة في رسـم صـورة جديـدة لهـا تتـماشى مـع مراجعتهـا للنزوعـات الخطابيـة الاشـتراكية التـي وَسَـمَت المرحلـة الناصريـة، بـل وحـشرت ذلـك المُكـوِّن الدينـي الجديـد في مـتن الشـعارات التـي تنحـاز لميولهـا اليمينيـة الجديـدة،

---

(1) ورقـة سياسـية مُكوَّنـة مـن عـشر نقـاط أساسـية، صاغهـا الرئيـس الأسـبق محمـد أنـور السـادات حـدَّدت تصـوُّرًا عـن مسـتقبل مـصر حتـى عـام 2000 واسـتراتيجيات وأولويـات العمـل الوطنـي في ضـوء المتغـيِّرات السياسـية الجديـدة ، وكانـت بمثابـة الورقـة السياسـية المُراجِعـة لميثـاق العمـل الوطنـي الـذي أقـرَّه جـمال عبـد النـاصر عـام 1962 ليكـون الوثيقـة السياسـية الرسـمية للدولـة المصريـة، وفي 15 مايـو 1974 طـرح السـادات ورقـة أكتوبـر للاسـتفتاء الشـعبي بـين المواطنـين؛ كي تأخـذ صفـة الوثيقـة السياسـية المُلزِمَـة، وحصلـت "رسـميًا" عـلى تأييـد 8 ملايـين مواطـن، بنسـبة 99.99 %، بالطبـع!

فأصبحت شعارات شركات القطاع العام والهيئات الحكومية المُبايِعَة للسادات في استفتاءات الرئاسة هي "نعم للاستقرار والإيمان وشرائع السماء، ولا للحقد الطبقي والفكر المستورد". لقد تم اعتماد مفردات الصحوة الإسلامية كجزء من صحوة اليمين المصري عمومًا، بكل أمزجته وميوله، وكجزء من عملية حصار اليسار، بكل تفرُّعاته، سواء كان يسار النظام المهزوم، والمتمثِّل في مراكز القوى المُعتَقلَة منذ مايو 1971، أو اليسار الشيوعي الذي كان في طليعة قيادة الحركة الطُّلَّابية المصرية ما بين عامَيْ 1968 و1977.

لكن ما سبق لا يعني إغفال نموِّ التيار الإسلامي عضويًّا وكفاحيًّا بعد هزيمة 1967 مباشرة. بعض أشكال ذلك النُّموِّ اتَّخذ ملامح راديكالية بشكل مُبكِّر، فلقد جاب رفاعي سرور وعبد الله السماوي -وآخرون- محافظات مصر وأطرافها، داعين إلى تشكيل حالة إسلامية أكثر راديكالية من الصيغة التي كانت عليها جماعة الإخوان المسلمين، والتي كانت تُعتَبر مُهادِنَة وجبانة من وجهة نظرهم، فكانت الإرهاصات الأولى لتنظيم الجماعة الإسلامية والجهاد الإسلامي، الذي سيستمرُّ حضورهما ونفوذهما لعقود لاحقة، والذي تمَّ تأسيسهما فعليًّا في النصف الثاني من السبعينات، وقتما انتقل مركز الثِّقل الحركي داخل الحركة الطلابية من التيارات الشيوعية والناصرية إلى التيارات الإسلامية، وهو الأمر الذي بات ملحوظًا بشدَّة بعد انتفاضة يناير 1977، وتعرُّض اليسار المصري لضربات قاصمة، وبداية سيطرة التيارات الإسلامية على الاتحادات الطلابية في الجامعات، فعبَّر بذلك التيَّارُ الإسلامي الصاعد في الجامعات عن الطَّور اليائس والمُحبَط من الحركة الطلابية الشبابية الأكثر ضَجَرًا من النظام، والأقل رهانًا على إمكانية إصلاحه، فكان طابعه أكثر حركيَّةً ومَيلًا للعنف، وهو ما بلور نفسه بوضوحٍ بقيام تنظيمَيْ: الجهاد والجماعة الإسلامية باغتيال أنور السادات عام 1981، بينما لم يكن عُمرُ أغلب قادة التنظيمين يتجاوز الخمسة والعشرين عامًا.

في عام 1973 أطلق أنور السادات سراح مَن تبقَّى من جماعة الإخوان المسلمين في السجون، وفي الواقع كان على النظام في هذا التوقيت أن يختار الطريقة التي سيتعامل بها مع التيار الإسلامي الذي لا يمكن إغفال وجوده في المجتمع وإنكار حصَّته من الشعبية، أيًّا كان شكل وصيغة هذا الوجود، فجماعة الإخوان المسلمين لم تكن لتبقى في المعتقلات إلى الأبد، فاختار السادات عقد مواءمة تاريخية معها،

تقـوم مـن خلالهـا الجماعـة باحتـواء باقـي التيـارات الإسـلامية السياسـية قـدر الإمـكان، وهـو الـدور التـي لعبتـه الجماعـة بالفعـل واسـتطاعت مـن خلالـه أن تُمَوضِـع نفسـها كقلـب سـياسي وسـطيٍّ للصحـوة الإسـلامية، تـدور في فلكهـا تيـاراتٌ أكـثر راديكاليـة، كتنظيـمات: الجماعـة الإسـلامية والجهـاد الإسـلامي، وسـتدور في مداراتهـا أيضًـا النزعات الإسـلامية المحافِظَـة المُؤيِّـدة للدولـة، أو نزعـات التَّدَيُّـن المتنامـي عمومًـا في المجتمـع. واسـتطاعت جماعـة الإخـوان المسـلمين في هـذا الصـدد أن تتسـلَّم قيـادة الصحـوة الإسـلامية مـن دولـة العلـم والإيمـان اليوليويـة، لتقـوم جماعـة الإخـوان بلعـب دور ضرس العقـل لهـذه الحالـة الإسـلامية المتوهِّجـة، ومتنوِّعـة الأنمـاط والأمزجـة مـا بـين تنظيـمات متطرِّفـة ومسـلَّحة، ومـا بـين دُعـاةٍ ومشـايخ يـزدادون شـهرة ونفـوذًا.

ولا يمكـن بالطبـع إغفـال البعـد الإقليمـي والـدولي في جعـل الصحـوة الإسـلامية ضرورةً سياسـية في الداخـل المـصري في هـذه المرحلـة بالـذات، فالتقـارب المـصري السـعودي في أعقـاب حـرب 1973 -والـذي أعقبـه تحالُـفٌ مـصريٌّ أمريـكيٌّ اسـتراتيجيٌّ- كان في طريقـه للتبلـور، كانـوا وجـب وأن يمـرُّوا عـبر العـداء الصريـح للاتحـاد السـوڤييتي والشـيوعية واليسـار، كانـت أكـثر أشـكاله فجاجـةً وتهـوُّرًا هـو قيـادة أنـور السـادات "بـذات نفسـه" للتكتُّـل المناهـض للتدخُّـل العسـكري السـوڤييتي الداعـم للنظـام الشـيوعي الجديـد في أفغانسـتان، والـذي بـدأ بمبـادرة أنـور السـادات بدعـوة المتمرِّديـن الإسـلاميين الأفغـان إلى القاهـرة، وتعهُّـده بـأن مـصر سـتقدِّم لهـم كل أشـكال الدعـم، و"بـكل مـا لـدى الإسـلام مـن قـوة".[1] تعهُّـدات السـادات السـخية تلـك كان أحـد تجلِّياتهـا -وليـس كلهـا- هـو تسـهيل الدولـة المصريـة عـلى مـدى عقـد كامـل لسـفر الآلاف مـن عنـاصر تنظيمَـيْ: الجماعـة الإسـلامية والجهـاد الإسـلامي إلى الأراضي الأفغانيـة لقتـال السـوڤييت، وهـي العمليـة التـي لم يمكـن لهـا أن تتِـمَّ بغـير وجـود حاضِنـةٍ محلِّيَّـة واسـعة داخـل مـصر للتيـار الإسـلامي الراديـكالي؛ كي يسـتطيع مـن خلالهـا فـرز وانتقـاء آلاف المجاهديـن الذيـن سـيتم تسـفيرهم إلى بيشـاور في باكسـتان؛ تمهيـدًا لدخولهـم الأراضي الأفغانيـة. علينـا فقـط أن نتأمَّـل ونتخيـل حجـم القاعـدة الإسـلامية الراديكاليـة المُنظَّمـة والمُسـلَّحة التـي تسـامحت الدولـة المصريـة معهـا طـوال

(1) عنوان و مانشيت جريدة الأهرام 30 مايو 1980.

عقد كامل، كجزء من مشاركتها في التحالف الأمريكي السعودي ضد الوجود السوفييتي في أفغانستان.

لكن يبقى في الأخير أمرٌ أشد أهمية من كل ما سبق من سياقات تكتيكية وظرفية صاحبت نمو الصحوة الإسلامية سياسيًّا، وهذا الأمر يتعلق بالأساس بطبيعة الطَّور السياسي الجديد للجمهورية اليوليوية من بداية عهد أنور السادات، والذي اعتمد على قتل الجدل السياسي الحي وتحجيمه قدر الإمكان، ولا أعني هنا بالجدل السياسي السماح بوجود صحف معارضة تصرخ في البرية، وتنبح؛ تنفيسًا عن الغضب، واحتواءً له، بل أعني كف النظام السياسي نفسه عن محاولات الحشد والتعبئة السياسية للجماهير المصرية، فلم يعد مُحبِّذًا لتأسيس تنظيم سياسي شعبي واسع كما حلم جمال عبد الناصر وفشل في ذلك فشلًا ذريعًا مع تجربتي الاتحاد الاشتراكي العربي وتنظيم طليعة الاشتراكيين السري، فالحزب الوطني الديمقراطي الذي أسَّسه أنور السادات كان محدود القدرة والتأثير والجاذبية منذ لحظة تأسيسه، وكانت هناك رسالة مستمرة تُبَثُّ إلى الجماهير، مفادها أن رئاسة الجمهورية على مسافةٍ ما مع هذا التنظيم السياسي الجديد، والذي لم يتعدَّ كونه تجمُّعًا لعدد من الشبكات الزبونية المستفيدة من الدولة، والقادرة على الوساطة بينها وبين قطاعات من الجماهير في مواسم بعينها، كمواسم الانتخابات.

المَنحَى اللا سياسي للطَّور الساداتي/ المباركي للدولة اليوليوية كان حتميًّا؛ بحُكم طبيعة سياسات النظام التي كان من الصعب الترويج لها بحماسٍ عبر تنظيم سياسي حقيقي مرتبط بالشارع، فلا يمكن للترويج الأمين لسياسات التقشف والخصخصة وانسحاب الدولة من دورها الاجتماعي الداعم الذي لعبته في العهد الناصري، ولا يمكن بالطبع الدعاية بقلبٍ جريء إلى سياسات التصالح مع إسرائيل والترويج للتحالف مع مَن كان يتمُّ تسميتهم حتى وقت قريب بالاستعمار والإمبريالية، فالدولة الوطنية المصرية في التحليل الأخير هي دولة الاستقلال والتحرُّر الوطني، ومهما تم الحديث عن رخاء سيأتي بالرضاعة من الصدر الأمريكي، فهذا في التحليل الأخير ينال أخلاقيًّا ومنطقيًّا من المصدر الرئيسي لشرعية الجمهورية المصرية، وهذا بالفعل ما حدث تدريجيًّا مع الزمن بظهور تناقُضٍ بين وجود علاقة متينة بين مصر والولايات المتحدة يتوازى معها هجومٌ

وتَرصُّد إعلامي مستمر ودائم لأمريكا وسياساتها، والسماح بفتح المجال لسبابها والنيل خطابيًّا منها كما لو كانت عدوًّا!

لذا كان اعتماد الدولة حصريًّا على شرعية حرب أكتوبر ودعم القوات المسلحة للنظام مآلًا طبيعيًّا لمسار تجفيف منابع السياسة الذي اتَّخَذَته. كان من الطبيعي أن يتلاقى هذا المسار مع نموِّ المزاج الصَّحويِّ الإسلامي في المجتمع، حتى لو ظهرت من داخله بين الفترة والأخرى تنظيمات راديكالية مسلَّحة، وحتى لو قامت تلك التنظيمات باغتيال أنور السادات نفسه؛ فالحاجة إلى التآلف الاستراتيچي مع الروح الدَّعَويَّة المحافظة للتيار الإسلامي كانت حاجةً مُلِحَّةً، باعتبارها قادرة على استيعاب الأجيال الشابة الجديدة في أطر أكثر محافظة وتقليدية، واستنزافهم في جدالاتٍ أقل سياسية وخطورة، وحصر الغضب الشعبي في مساحات لا تدعو فعليًّا إلى تغيير سياسي واجتماعي حقيقي. الحالة التوافقية تلك استمرت لفترة تجاوزت العقدين من الزمان، فمنذ إطلاق سراح من تبقَّى من مسجوني جماعة الإخوان المسلمين وبداية مرحلة تفاهُمات السادات- التلمساني عام 1973، لم تتلقَّ جماعة الإخوان المسلمين -التي تنامت عضويتها وتوسَّعَت أنشطتها بمعدلات أسطورية- أيَّةَ ضربةٍ أمنية تنظيمية مؤثِّرة حتى عام 1992، تحديدًا مع قضية "سلسبيل" الأولى، والتي تمَّ القبض فيها على عدد قليل من قيادات الجماعة، أي أنه لمدة عشرين عامًا لم تتعرَّض الجماعة لضربات أمنية تؤثر على حركتها وتناميها، ولا أعتقد أن عقدين من الزمان في حسابات ومعايير الجمهورية اليوليوية التي لا ينقصها الشراسة مع معارضيها يمكن اعتبارهما زمنًا قصيرًا، ولا يمكن تصوُّر تَجنُّب الهجوم الشامل على تنظيم سياسي معارض لمدة عشرين عامًا بدون وجود تفاهمات كبرى تُعلِّل وجود هذا التنظيم، وتحدِّد أدواره وحدود حركته، في عملية كانت أقرب للائتلاف والتحالف منها إلى إدارة تناقض رئيسي، أو حتى ثانوي، بين أعداء.

الصّحوة الإسلامية كضرورةٍ اجتماعيّة وتربويّة

دائمًا كانت لعمليات الحراك الاجتماعي الواسع في مصر تجليات ثقافية واضحة، وإذا كان التجلّي الأبرز لتحوُّل جزء من متعلّمي الفلاحين إلى أفندية وبكوات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو وضع اللبنات الأولى لمفهوم الثقافة المصرية ولحركتها الوطنية لاحِقًا، فإن كل عملية تحوُّل اجتماعي أخرى غالبًا ما صاحبها دائمًا تجديد ثقافيٌّ ما، يُعَنونُ قِصَّة صعود فئات بعينها في إطار عملية تحديثها. وظني أن كل عمليات تمدين المصريين -سواء بالهجرة إلى المدينة أو بتحويل القرى نفسها إلى مدن- غالبًا ما صاحبها مَيلٌ لوجود صياغات وخطابات أخلاقية وتربوية جديدة تستطيع أن تتعامل مع هذا التحوُّل العمراني والحضاري الجديد، جماعة الإخوان المسلمين مثلًا أُنشِئَت في مدينة الإسماعيلية أواخر عشرينات القرن العشرين، وكانت الإسماعيلية وقتها مجتمعًا عمرانيًّا جديدًا بامتياز، تمَّ خَلقُه بعد حفر قناة السويس، يختلط فيها المهاجرون بالأجانب، بسكانٍ محلّيِّين لم يتجاوز وجودهم في البلد جيلَيْن على الأكثر، وكانت الدعوة الدينية في هذه المدينة استجابة لما بدا مشكلاتٍ أخلاقيَّةً واضحة في نظر حسن البنا، من: فقر، وتفكُّكٍ أخلاقي، وانتشار الرذائل، واتخاذ الناس الإرساليَّات المسيحية الأجنبية قدوةً اخلاقية، فبدأ حسن البنا دعوته في المقاهي لا في المساجد، في دليلٍ واضح على الروح العصرية لدعوته، التي تطوَّرَت لاحقًا واتَّسَعَت عضويتها بشكل كبير، حتى وصلت أعداد منتسبيها إلى مئات الآلاف قُبَيلَ حَلِّها بشكل نهائي عام 1954. تنامي عضوية جماعة الإخوان المسلمين لم يكن تعبيرًا عن عبقريَّةٍ استثنائية لحسن البنا بقدر ما كان إثباتًا لوجود طلَبٍ شعبي على وجودها، وعلى الدور الذي تلعبه، والفراغ الذي تملؤه، فعملية التمدين المستمرة للسكان كانت تعني حرمان القرويين السابقين من نسق قِيَمِهم وعلاقاتهم التقليدية المتوارث والمتماسك، هذا التحوُّل كان يحتاج -ببساطةٍ- إلى فاعِلٍ جديد قادر على التعامل مع تلك المستجدات الديموغرافية، مَهمَّته الرئيسية هي تأسيس حالة تربوية محافظة، وتقديم منهج أخلاقي لتقويم شباب الطبقة المتوسطة الدنيا المتعلّمين الذين يشقون طريقهم نحو الترقي الاجتماعي المديني المنضبط.

وعلى الرغم من أن هناك خلافًا وجدلًا كبيرًا حول الدور السياسي لجماعة الإخوان المسلمين منذ نشأتها، لكن من النادر حقًّا أن نجد نقدًا عميقًا لدورها

التربـوي عـبر تاريخهـا الطويـل، ففـي التحليـل الأخـير -ووفقًـا لشـفرات الطبقـة الوسـطى المدينيـة الدُّنيـا التـي اجتذبهـا عضويـة الجماعـة في تأسيسـها الأول- كان شـيئًا مُحبَّبًـا ومُطَمئِنًـا لـكل أب أن يواظـب ابنـه عـلى الصـلاة، ويمتنـع عـن التدخـين، ويلتفـت إلى دروسـه، ويمـارس الرياضـة البدنيـة والكشَّـافة؛ فهـذه الصيغـة بالـذات هـي التـي ستسـاعد الأسرة حديثـة الصعـود الاجتماعـي عـلى تنشـئة أبنـاء قادريـن عـلى اسـتكمال مسـيرة نجاحهـم وترقِّيهـم العصاميـة، عـبر الاستمسـاك بحميـد الأخـلاق التـي لا يعرفـون لهـا مصـدرًا آخـر سـوى تعاليـم الديـن الحنيـف؛ لـذا سـنجد أن أهـم نقـد لجماعـة الإخـوان فيـما قبـل يوليـو 1952 كان ينصَـبُّ حـول عـلى ممارسـاتهم السياسـية وموقـع العنـف منهـا، فعبـارة "إنهـم يتَّخِـذون مـن الديـن سـتارًا لأهدافهـم" -والتـي طالمـا وجَّهها خصـوم الإخـوان لهـم- كانـت تعنـي في العُمـقِ عـدمَ قـدرة نُقَّـاد الإخـوان عـلى رفـض الـدور التربـوي الرئيـسي للجماعـة، بـل فضحًـا لانحـراف هـذا الـدور عـن مسـاره الصحيـح.

لم يختلـف الأمـر كثـيراً مـع عمليـة الحـراك الاجتماعـي الواسـع التـي حدثـت منـذ منتصـف السـبعينات بسـبب الوفـورات الماليـة الناتجـة عـن هجـرة العِمالـة إلى الخليـج، وبسـبب الـرواج الاسـتهلاكي الـذي صاحـب الانفتـاح الاقتصـادي، لقـد عَنوَنَـت الصحـوة الإسـلامية الجديـدة نفسـها كحاضِنَـةٍ أيديولوچيـة وخطابيـة للفئـات الاجتماعيـة الصاعـدة، في ظـل غيـاب خطـاب أخلاقـي وسـياسي مُقنِـع مـن الدولـة في طورهـا السـبعيني، والتـي راحـت تتماهـى هـي الأخـرى مـع الصحـوة في ظـل عـدم امتلاكهـا لأي مـشروع جـادٍّ للتعامـل مـع هـذا التحـوُّل الاجتماعـي الواضـح، لا عـلى مسـتوى التخطيـط العمـرانى ولا الاسـتيعاب الحضـاري ولا التنظيـم السـياسي ولا أي شيء، فالدولـة في هـذا الطـور لم تهتـم إلا بالحفـاظ عـلى بقائهـا وتماسُـك هياكل سُـلطَتِها الفوقيـة، وكان المـزاج اليسـاري والتقدمـي في المجتمـع عاجـزًا هـو الآخـر عـن التفاعـل مـع هـذا الصعـود الاجتماعـي غـير المُنظَّـم، والـذي تـم بالأسـاس في حواضـن جغرافيـة شـبه ريفيَّـة ليـس لـه وجـود أو تأثـير قـويٌّ فيهـا؛ لـذا كانـت الصحـوة الإسـلامية بتجِّلياتهـا المختلفـة هـي الإجابـة الأكـثر منطقيـة لعمـوم المصريـين المُتلطِّمـين في بحـار الهجـرات الداخليـة والهجـرات الخارجيـة والتغـيُّرات الاقتصاديـة العنيفـة التـي أعقبـت سياسـات الانفتـاح الاقتصـادي التـي أصابـت الطبقـة الوسـطى المهزومـة بهزيمـة عبـد النـاصر ووفاتـه.

الصَّحوة الإسلامية كشريكٍ مستمرٍّ في الأزمة

لكـن صحـوة السـبعينات والثمانينـات الإسـلامية لم تكـن فقـط مجـرَّدَ اسـتجابة طبيعيـة لحَـراكٍ اجتماعـي لم يجـد مـن يحتويـه أيديولوجيًّـا وتربويًّـا، فالصحـوة لم تكـن حالـةً فكريـة وأيديولوجيـة صاعِـدَةً بصعـود آخريـن في رحلـة التقـدُّم والتطـوُّر، بـل كانـت أيضًـا تعبـيرًا عـن قلـق، وأزمـةً يمـرُّ بهـا المجتمـع ككُلٍّ في أعقـاب هزيمـة عسكرية أنهـت مـشروع تحـرُّره الوطنـي الصاعـد، ثـم تحـوُّلات اقتصاديـة واجتماعيـة أنتجـت صعـودًا فاسـدًا لطبقـات رأسـمالية طفيليـة أسَّسَـت لسـيادة لحالـة متداعيـة مـن الفسـاد الإداري الواضـح في كل أركان أجهـزة الدولـة. لقـد كان الحـراك الاجتماعـي السـبعيني حـراكًا مأزومًـا مصاحبًـا لقيـم الحلـول الفرديـة والشـك في جـدوى العمـل الجماعـي والصِّيـغ الكليـة الكـبرى، كان تمثيـلًا لعمليـة تطـوُّر اجتماعـي لافـت لقطاعات واسعة مـن السـكان بـدون خطـة واضحـة أو قيـادة سياسـية واعيـة لـه، تغـيَّرت معـه حيـاة النـاس وتحسَّـنَت مفرداتهـا، لكـن في ظـل ظـروف نفسـية واجتماعيـة قاسـية، اسـتشرى فيهـا الفسـاد حتـى أصبـح قانونًـا حاكِـمًا للمعامـلات اليوميـة، واختفـى فيـه مفهـوم سـيادة القانـون بالكيفيـة التـي تحمـي وتُمكِّـن الفئـات الأضعـف.

في هــذا السـياق الجديـد صـارت نزعـات التَّطهُّـر الأخلاقــي ومظاهــر التديُّــن الاجتماعـي شـكلًا مـن أشـكال حمايـة الإنسـان لنفسـه ولذويـه، وجـزءًا مـن صيغـة تبحـث لنفسـها عـن الاحـترام في مواجهـة محيطـات اجتماعيـة ازدادت شراسـةً وأنانيـة واسـتعدادًا لدهـس الأضعـف. لقـد صاحَبَـت موجـات التديُّـن الصَّحويَّـة حالـةٌ مـن الإحسـاس بالخـزي وعـدم الأمـان، ظلَّـت تتعمَّـق يومًـا بعـد يـوم، صاحَبَـت المصريـين في غربتهـم غـير معلومـة المـدة في الـدول العربيـة، وصاحَبَـت هجـرة المهاجريـن الداخليـين الذيـن انتقلـوا إلى حـواف المـدن الكـبرى سـعيًا للـرزق، وتمكَّنَـت مـن نفـوس جيـوش صغـار موظَّفـي الجهـاز الإداري للدولـة الذيـن تحوَّلَـت حياتهـم إلى مزيـجٍ يجمـع بـين الإفقـار والإفسـاد والحـطِّ مـن الكرامـة الإنسـانية.

حاوَلَـت النزعـات الدينيـة الصحويـة التعاطـي والاشـتباك مـع مشـكلات الواقـع الجديـد، وراحـت تعـدو خلـف مـا اعتبرتـه أشـكالًا فجَّـةً للتفسُّـخ القِيَمـيِّ والتهتُّـك الأخلاقـي، وأسَّسَـت لنفسـها جـذورًا اجتماعيـة تسـمح لهـا باكتسـاب الشرعيـة اللازمـة للقيـام بهـذا الـدور، بـدءًا مـن القيـام بـدور الشرطـة الاجتماعيـة في الجامعـات ومُراقَبَـة

سلوكيات الاختلاط بين الجنسين، مرورًا بلعب دور الحكم المحلي في مناطق ريفية وشبه حضرية نشأت وتكوَّنَت في غيبة الدولة، واستطاعت الجمعيات الإسلامية المختلفة القيام بأدوار مهمة لا يمكن إنكار جمائلها على الناس في مجالات الصحة والتعليم والمرافق، فضلًا عن الأدوار الخيرية المباشرة، من كفالة الأيتام ورعاية الأرامل، وكافَّة أشكال البِرِّ الاجتماعي، مثل: تجهيز متطلَّبات زواج الفتيات الفقيرات، كل هذه الأدوار مَكَّنت الحالة الصحوية الإسلامية من لعب دور الضابط والمرشد الاجتماعي لملايين المصريين بجدارة واستحقاق، ولعقود.

لكن واقع التجربة الصحوية الذي استمرَّ حوالي أربعة عقود أثمر في النهاية عن صيغَةِ تعايُش لافت بين سيادة خطابها وكافة المظاهر الدينية المرافقة له، وبين التدهورات الأخلاقية والقيمية المتفاقمة في المجتمع. في التحليل الأخير، كانت أزمات مصر المتراكمة ناتجة عن سياسات الإفقار النيو- ليبرالية التي هشَّمَت مفهوم الأمان الاجتماعي والقيمي لدى غالبية السكان، وهي أزمات مادية وهيكلية لن يحلَّها الوعظ الديني والتأنيب المستمر لضمائر العُصاة، لكن مع الوقت، امتلك المصريُّون مَناعةً طبيعية ضد المكوِّن الواعظ في الخطاب الصحوي، وابتدعوا في مواجهته حلًّا سحريًّا استطاعوا من خلاله أن يقبضوا على الخطاب الصحوي المُهَيمِن بكفِّهم اليمنى، بينما تتسرَّب من كفِّهم اليسرى كافَّةُ شروط انحطاط حياتهم الروحية والنفسية والأخلاقية، فراحوا يتبَّنون قِيَمَ المزايدة الدينية والتماهي الكامل مع مفردات الخطاب الصحوي والاستسلام لكل الممارسات المظهرية والطقسية المصاحبة له، بينما -بالتوازي- يوغلون في المزيد من الممارسات الاجتماعية والأخلاقية منزوعة الفضائل، هذه الصيغة بالذات هي التي أنتجت لاحقًا في تطوُّرها المعاصر ظاهِرَةً جربوعيَّةً بامتياز، يمكن تسميتها بظاهرة "النطاعة الدينية"، والتي يمكن من خلالها لأراذل الناس وشرار الخلق استخدام المفردات الدينية والحجج الفقهية في تبرير نزوعاتٍ غير خيرية، بعضها عديم الرحمة والإنسانية، بل أحيانًا لارتكاب وتبرير جرائم لا لَبْسَ فيها، والانحياز في أي صراع للطَّرف الأقوى والأشرس أو صاحب السلطة، وارتكاب سلوكيات تتَّسِم بالبربرية والنَّزَق وانعدام والمروءة والكرامة.

الصَّحوَة كحاضنٍ ومَظلّة لتداعي الانحطاط

ربما كان تطوُّر علاقة الصحوة الإسلامية بمسألة المرأة المصرية هو الأكثر تعبيرًا عن حالة النطاعة الدينية تلك، فسبق وأن قلنا إن الصحوة كانت أمينةً في نقدها لما اعتبرته تفشِّيًا للفساد وانهيارًا للأخلاق العامة، لكن قُدرَتها على تفعيل هذا النقد -الذي لم يَمسَّ أبدًا في جوهره الأسبابَ المادِّيَّة للأزمات "الأخلاقية" في المجتمع- كانت شبه منعدمة، فتوازى صعود الصحوة الإسلامية مع صعود الشروط الإشكالية التي أتت الصحوة للتعامُل معها، وظلَّا متوازيين لعقودٍ وتعايَشَا معًا، وخلال هذا الزمن الطويل، وكجزء من عملية التعايش تلك، ركَّزَت الصَّحوة الإسلامية على ضبط وجود وحركة ومظهر المرأة في المجال العام تركيزًا ظلَّ يزداد باضطرادٍ، حتى تحوَّل مع الوقت لملمح رئيسي لنشاطها ومعيارًا لنجاحه، بالشكل الذي حول حجاب النساء إلى قضية شديدة المركزية والالتهاب ومعيارًا لنجاح "العمل الإسلامي"، والمدخل البصري الذي تعرف من خلاله ملامح الجماعة المسلمة، حتى إن لافتات وملصقات "الحجاب قبل الحساب" ظلَّت تُزيِّن حوائط قرى ومدن تحجَّبَت كل نسائها المسلمات قبل ذلك بعشرين عامًا على الأقل، فضلًا عن شعارات من نوع "لن ينتهي الغلاء حتى تتحجَّب النساء"، والتي تؤكِّد مركزية حجاب النساء في وعي الصحوة الإسلامية، لدرجة ربطه غير المنطقي بمسألة حسَّاسة ومؤلمة مثل غلاء الأسعار.

لقد رافق صعود الصحوة الإسلامية حضورًا أكثر كثافةً للمرأة المصرية في المجال العام، أصبح تعليم المرأة والتحاقها بسوق العمل نشاطًا طبيعيًّا بعد أن كان في السابق موضوعًا للنقاش والجدل المتبادل في الأوساط البرجوازية حصرًا، بدأ كثيرٌ من الأسر في الاعتماد على جهد النساء وعرقهن من أجل إعالة أفرادها، وأصبح ضبط وتقييد حركة هؤلاء النساء المكافحات في الشوارع والمجال العام هاجِسًا مُلِحًّا للنزعة التقليدية المُحافِظَة السائدة في مصر، والتي قدَّمَت لها الصحوة الإسلامية غطاء شَرِسًا، جعل النساء المصريات في حالة دفاع دائم عن النفس والوجود، فحالة القلق الدائم داخل المجتمع والشك الدائم في أخلاقياته كثَّفَت نفسها بالكامل في مواجهة النساء، اللاتي صِرنَ مُطالَباتٍ بعدد من الالتزامات والقيود الانضباطية على مستوى الزي، وصيغة العلاقة الاجتماعية مع الجنس الآخر، وأماكن وتوقيت وجودهن القَلِق في المجال العام لقاء حضورهن المتزايد

فيـه، والمرتبـط أساسًـا بوجـودٍ مُتزايـدٍ في سـوق عمـل قـاسٍ تُمـارَس فيـه ضدَّهـنَّ أشـكال مختلفـة مـن التمييـز والحصـار، وبمـرور الزمـن تطـور الأمـر إلى تبريـر كل أشـكال العنـف ضـد النسـاء في المجـال العـام، تحـت عنـوان خطيئـة وجودهـن فيـه مـن الأسـاس، وعجـز المجتمـع عـن حمايتهـن مـن نفسـه، حتـى تحوَّلَـت ظاهـرة التحـرُّش والاعتـداءات الجنسـية إلى ممارسـة شـعبية يوميـة معتـادة، وعقـابٍ يومـيٍّ للنسـاء مـن كل الطبقـات والميـول والأزيـاء، عـلى وجودهـنَّ في الشـارع، يتـم تبريـره دينيًـا مـن قِبَـل شـيوخٍ أزاهِـرَة مُعمَّمـين، يفتخـرون ويتباهـون بذلـك بأشـد المفـردات وقاحـة.

لقـد عَنوَنَـت الصحـوة نفسـها في التحليـل الأخـير كحالـة مـن الضَّجَـر وعـدم التسـامح مـع مظاهـر التغريـب وعـدم التديُّـن، واعتبرتهـا سـببًا في فسـاد وإفسـاد المجتمـع، فكانـت حـدود انتصارهـا الفعليـة هـي إعـادة مظاهـر التديُّـن إلى واجهـة السـلوك الاجتماعـي، وتسـييد حالـة خطابيـة تحمـل قـدرًا لا بـأس بـه مـن الشراسـة والعدوانيـة ناحيـة غـير المتديِّنـين وغـير المسـلمين، وبالطبـع النسـاء، لكـن هـذا العـداء لم يكـن مـع مظاهـر التغريـب نفسـه بشـكل جوهـريٍّ، فالصحـوة نفسـها بـدأت تغـترب وتتأمـرك هـي الأخـرى، وزحفـت أمزجـة الاسـتهلاك عليهـا، وأصبحـت مظاهـر كثـيرة -كانـت مرفوضـة في السـابق- أكـثر قبـولًا، فلـم يَعُـد الحجـاب زِيًّـا تَطَهُّرِيًّـا زاهِـدًا، بـل صيحـات للموضـة وبيـوت الأزيـاء وأشـكال الفخـار والتمايُـز الاجتماعـي، لم يعـد التلفزيـون والتصويـر مُحرَّمًـا، بـل وسـيلة للشُّـهرة والدعايـة وصناعـة الأمـوال، أصبـح هنـاك دُعـاة دينيُّـون متنوِّعـو السَّـمت والحضـور بشـكل يتناسـب مـع اختلافـات كل فئـة اجتماعيـة ومزاجهـا وشـفراتها، الفقـراء لهـم الداعيـة المُحـرِّض الـشَّرِس المُتوعِّـد، والأغنيـاء لهـم الداعيـة اللطيـف البشـوش المُقبِـل عـلى الحيـاة وزينتهـا.

في كل الأحـوال، كان مـا بـين إعـلان الرئيـس المؤمـن جـدًّا محمـد أنـور السـادات عـن قيـام دولـة العلـم والإيمـان وبـين انـدلاع ثـورة ينايـر 2011 أربعـون عامًـا تقريبًـا، هيمـن خطـاب الصحـوة الإسـلامية فيهـا عـلى مـصر لِـمَا يقـارب الثلاثـين عامًـا، بـدءًا مـن بدايـة الثمانينـات، ثلاثـة عقـود بالتـمام والكـمال، كانـت التيـارات الصحويـة الإسـلامية -بتنوُّعاتهـا المختلفـة- هـي قاطـرة الجـدل العـام، والمُنتِـجَ لأكـبر التنظيـمات والحـركات، بشـكل يجعلهـا شريكـة شَراكَـةً حاسـمة في المسـؤولية عـن تلـك الحقبـة الطويلـة مـن تاريخنـا الحـي، شراكـة يمكننـا معهـا أن نطالـب بكشـف حسـاب عنهـا، فثلاثـون عامًـا في عمـر مـصر الحديثـة يسـاوي تقريبًـا الفـترة التـي قامـت وانتهـت

فيها المملكة المصرية وعرشا المَلِكَين: فؤاد وفاروق، فلماذا إذن لا نحاسب التيارات الصحوية الإسلامية القوية المُهَيمِنَة على ما قامت به، أو على ما لم تَقُم به وكان يمكنها القيام به؟

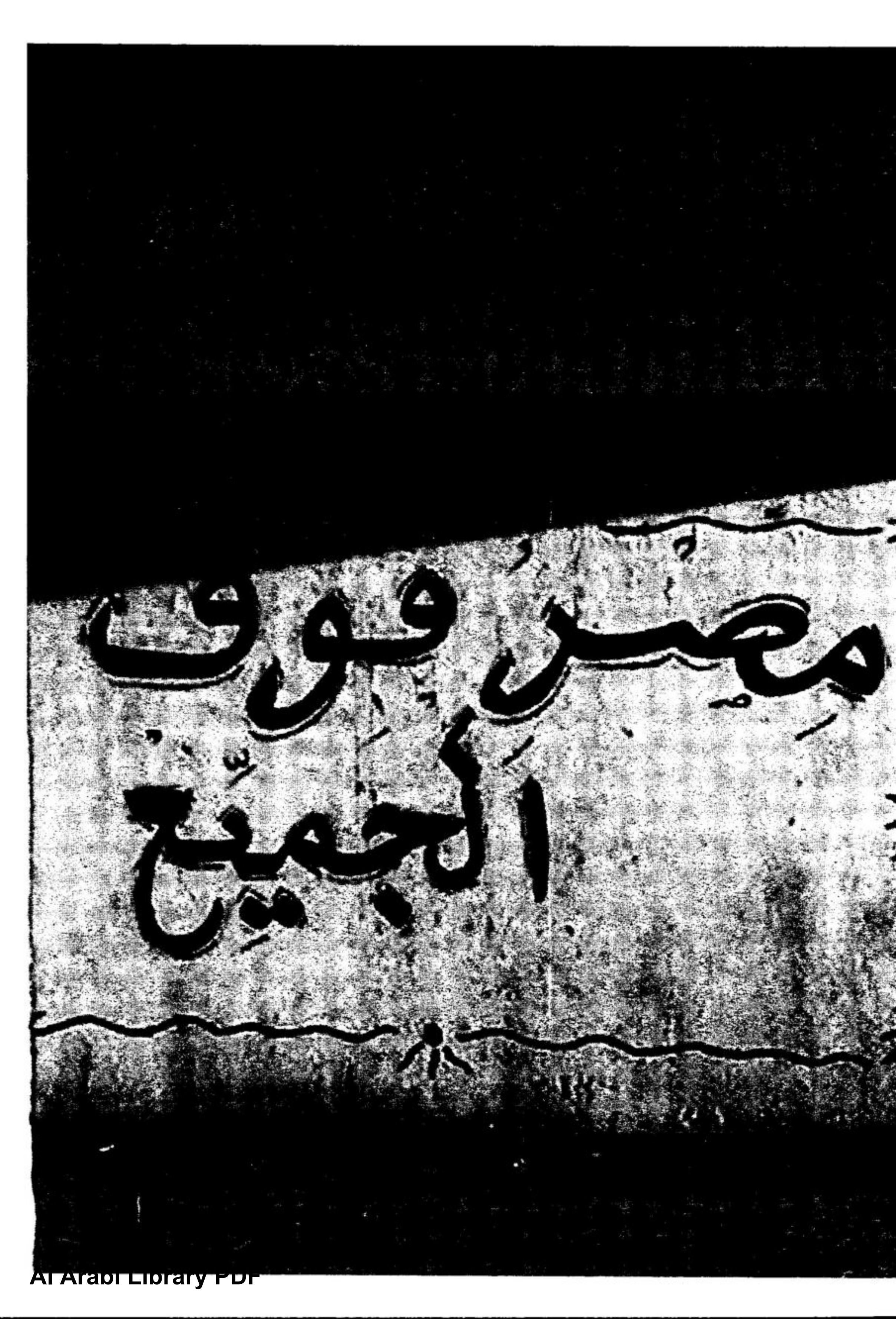
ومن بين كل ما يمكن أن ندين الصحوة الإسلامية عليه لا يوجد أكثر من إهدار ثلاثة عقود في الجدل السياسي العقيم منخفض السقف، جدل لم يرتقِ أبدًا للاشتباك مع مشكلات مصر المادية التي ظلَّت تتراكم وتتفاقم باضطرادٍ، بينما تقوى الصحوة وتتعزَّز بالتوازي وقتما كانت تجتذب إلى صفوفها أفضل العناصر الشابَّة في الجامعات. لم تقدم التيارات الإسلامية بتلاوينها المختلفة إسهاماتٍ سياسيَّةً تتناسب مع قوة حضورها وحجم تأثيرها. لم يكن عنوان الاشتباك والجدل السياسي في مصر في ظل هيمنة خطابات الصحوة الإسلامية هو التعاطي المادي والأمين مع مشكلات تتفاقم بوضوح، بدءًا من زيادة سكانية لا تُدار بالرَّشادة المطلوبة، أو غياب تصوُّر عن نهضة الصناعية تتحدَّى واقع تردِّي إنتاجنا الزراعي، أو فتح ملف العلاقة التنموية غير المتكافئة بين المركز القاهري وباقي الجمهورية، أو تدهور مشكلة التعليم ومُخرَجاته، وكم من مشكلات موضوعية محايدة، بدلًا من إثارتها ومعالجتها، تمَّ في المقابل استنزافُ بلد بحجم مصر في التلاسُن الطائفي أو العَدْوِ خلف النساء لتحجيبهن، أو اعتبار أن أي إصلاح لا يمكن له أن يبدأ إلَّا بتطبيق العقوبات البدنية في الساحات العامة على المُدانين.

لقد تعايَشَت مصر مع الصحوة الإسلامية حتى تَمَكَّن كلٌّ منهما من رقبة الآخر، وأصبحا معًا كالمُركَّب الكيميائي الذي لا يمكن فَصلُ عناصره عن بعضها البعض، فمصر قبيل ثورة 2011 كانت ابنةً شرعيَّةً للصحوة الإسلامية بقدر ما كانت بِنتًا للحقبة المباركية، وبالتالي لا يمكن التعامُل مع الصحوة الإسلامية الآن باعتبارها حالة من حالات المقاومة لواقع مُغايِر، بل باعتبارها سلطة راسخة من سلطات الماضي، أقامت دولتها الاجتماعية والذهنية والرمزية، تشعَّبَت وهيمنت، وخرج من رَحِمها أجيال وأجيال، لكنها أصبحت حالة تتعرَّض الآن للمراجعة والنقد والمساءلة، ولا يمكنها إعادة إنتاج نفسها، مُتملِّصَةً من هذا التراث الحيِّ الممتد؛ فالتاريخ لا يعبر النهر مرَّتَيْن.

من ملامح أزمة إعادة التأسيس الاجتماعي والسياسي



أسفل كوبري ١٥ مايو .. منزل كورنيش النيل


مصر فوق
الجميع

الفصل السادس

ثورة يناير 2011 كإعلانٍ تاريخيٍّ لانفجار الأزمة

تناولت الفصول السابقة بعضًا من ملامح التحوُّلات الاجتماعية الناتجة عن عدم الاستقرار الاقتصادي والتنموي الذي أفضى إلى حالة مُزمِنَة من السيولة الاجتماعية، رافقها نموٌّ سكانيٌّ لافِتٌ غيَّر من شكل الخريطة الديموغرافية المصرية بشكل غير مسبوق، الأزمات الاجتماعية بطبعها لن تظلَّ في مساحتها الاجتماعية للأبد، بل ستبحث دائمًا عن ثغرة سياسية ما كي تُعبِّر عن نفسها من خلالها، بحيث تتحوَّر لتصبح أزمة سياسية تطرح مشكلاتها باعتبارها مسألة قومية وعامة ومُلِحَّة.

تراكُم الأزمات الاجتماعية في مصر وعدم القدرة على الإمساك بجذورها الاقتصادية والسياسية أفضى إلى وضعٍ جعل الاجتماع العام المصري بالجملة مُهدَّدًا وملتهبًا، يزداد تأزُّمًا بفعل الأزمة التنظيمية الكبيرة في المجتمع، وعدم القدرة على التعبير التنظيمي الفعَّال عن مصالحه بشكل يؤطِّر الصراعات بشكل رشيد ويدفعها إلى حدود الحلِّ أو الحسم، تحت حكم دولة تفرض قيودًا على التنظيم

المستقل، وفي نفس الوقت لا تنظِّم أحدًا، فأصبحت مع الوقت أشبهَ بالرأس الأسطورية اليونانية "ميدوزا"، التي إذا نظرت إلى جسمٍ حيٍّ أحالته إلى حجرٍ في التَّوِّ، بعد أن أثبتت لها تجربة الانفتاح النسبي الذي ساد في العَقد الأول من الألفية، وأفضت إلى ثورة يناير 2011 أن أي عملية إصلاحية محسوبة تفتح الباب لعملية ثورية محتومة.

وإذا كانت الدولة في اللحظة الحالية قادرة على احتواء التجليات السياسية والحركية المُحتَمَلَة للأزمات العامة التي لا يمكن لأي عينٍ أن تخطئها، إلا أنها لا يمكن لها أن تفعل شيئًا حيال أزمات الاجتماع العام المتفاقمة إلى حدٍّ أصبح يُهدِّده بالكامل، ويجعل الوجود المشترك الطوعي للأمة المصرية محلَّ قَلقٍ وغير قادر على الحركة إلا بعصا شديدة الغلاظة، وعين شديدة اليقظة الدائمة. لقد جرَّدت الدولة المصريَّةُ -وبفعل القمع المُمَنهَج- الطبقة الوسطى المدينية من قوتها السياسية الحركية وأدواتها المعنوية، وهي الطبقة التي تمَّ الرهان عليها طوال عقد التسعينات والألفية، وتمَّ النظر إليها كرافِعَةٍ للتغيير والتحوُّل التنموي في المستقبل، حتى صارت في لحظة من اللحظات هي مناط الشرعية لدى كل الفُرَقاء الذين طلبوا ودَّها، بدءًا من جمال مبارك ومشروع جيل المستقبل، وحتى قوى التغيير التي أطلقت ثورة يناير.

التجاسُر على طرح سؤال شرعيَّة الاجتماع الوطني

القومية هي إرادة مشتركة للعيش معًا، وهي إمَّا إرادة عامَّة مكتملة لعموم السكان، أو إرادة فوقية تعبِّر عن توافُقاتٍ راسخة ومبادئ مؤسسة بين القوى الاجتماعية المهيمنة، والإرادة صنو للحرية؛ لأن القسر أو الاضطرار ربما يخلق لُحمةً مُؤقَّتة، لكنه يعجز عن ضمان استدامتها، ومن النادر جدًّا أن نجد كتاباتٍ مصريَّةً تفترض في الاجتماع العام المصري سِمَةَ الإرادة والحرية، فنحن لا نرى وجودنا المشترك إلا كقدر لبعضنا البعض، وقدر الجغرافيا النيلية، عيشنا المشترك المحكوم بضيق الوادي، نعتقد أننا كُنَّا -ولا نزال، وسنظل للأبد- سُكَّانَه. هوياتنا المتعدِّدة المفترضة عبءٌ على كاهلنا، والتاريخ الذي تَصوَّرنا في أنفسنا امتدادًا له هو تاريخ مديد أقوى من أي حاضر مهما بلغت عَظَمَتُه، نفخر بإحصاء سِنِيه،

ومـن ثِقـل وطأتـه نسـأل أنفسـنا: هـل نحـن مَـن يعيـش الزمـن، أم الزمـن هـو الـذي يعيشـنا؟ كـما تسـاءل يومًـا الشـاعر الراحـل سـيد حجـاب، أو تثـور حاميتنـا لحمايتـه وقـت مجابهـة الغربـاء الغُـزاة، ونقـول كلنـا جميعـا للوطـن ضحيـة كـما غنـى سـيد درويـش في زمـن مـضى.

قـد يتَّهمنـي البعـض بالهرطقـة الوطنيـة إذا مـا بـدأت بالتشـكيك النظـري في سـؤال اجتماعنـا المشـترك، في صلاحيـة اسـتدامته وفي حريـة إرادتـه، غـير أن التاريـخ علَّمنـا أنـه لا يطـرَح إلا المهـمات التـي يمكنـه إنجازهـا؛ بمعنـى أن الشـك لا يـأتي إلا في وجـود مـا يثـيره، أو أن عـددًا مـن الظواهـر الماديـة والأزمـات البنيويـة قـد اسـتفحلت إلى الحَـدِّ الـذي مكَّننـا مـن امتـلاك شـجاعة طـرح أسـئلةٍ لا تَـرِقُّ قلوبنـا إليهـا، وحـين تختمـر في عقولنـا تُسـبِّب آلامًـا عنيفـة للوجـدان.

إن مـا يدَّعيـه البعـض ثوابـتَ اليـومَ كان موضوعًـا للنقـاش والجـدل في المـاضي القريـب، بـل كان موضوعًـا للنَّبـذ والملاحقـة في المـاضي الأبعـد، سُـنَّةُ الحيـاة هـي التغيـير، والوطـن هـو تجربـة اجتماعيـة مسـتمرَّة في الأخـير، وكل تصـوُّرٍ وطنـي مُصاغ في لحظـةٍ بعينهـا هـو تعبـير عـن مصالـح وتوازنـات لهـذه اللحظـة بالـذات، وادِّعـاء وجـود ثوابـت راسـخة هـو عمـل طبيعـي مـن أعـمال الهيمنـة، حيـث يحـاول أصحـاب الهيمنة التأصيـلَ لـكل فكـرة أو مصلحـة حـاضرة وآنيَّـة عـبر التدليـل بتاريخيَّتهـا ومحاولـة إثبـات رسـوخ ممارسـتها بـين أبنـاء أُمَّتنـا قديمـة الوجـود، مـن هنـا تصبـح التقاليـد والأصالـة والأصـول مقدَّسـات، فيصبـح مثـلًا مـا اصطككنـاه مـن معـانٍ وتعريفـات آخـر عشريـن عامًـا نوعًـا مـن التقاليـد والأصـول، وتصبـح بعـض الممارسـات الحاليـة -أيًّـا كانـت- تعبـيرًا عـن روح المـكان وأصـل وجـوده وجوهـر معنـاه مهـما بلغـت تلـك الأطروحـات والممارسـات مـن سـفهٍ ولا معقوليـة، بـل وربمـا حقـارة مجـرَّدة، بعـض مـن تلـك الممارسـات والتصـورات لهـا قَـدرٌ مـن الدعـم والتأييـد باسـم ادِّعـاء رسـوخها وتوارُثهـا كابِـرًا عـن كابـر، في حـين أنهـا عـلى الأغلـب محـضُ كـذب بـيِّن وضـلال كامـل لأصحـاب مصالـح مهيمنـة يرتجـون إلى الأبـد إعـادة إنتـاج حياتهـم وسـلطاتهم الحاليـة هـم بالـذات؛ مـمَّا يُهـين المـاضي كذبًـا وإسـقاطًا بالـزور والتشـويه، وبخفَّـةٍ لا تضـع في اعتبـارات ضميرهـا تحديـات المسـتقبل الماديـة واحتياجـات أبنائـه القادمـين، الذيـن هـم حاليًـا أطفـالٌ أسرى خاضعـون لسُـلطة عالمنـا المعـاصر.

للحقائـق سـبعة أوجـه، وأكـثر الوجـوه حقيقيـة لأي تصـوُّر أيديولوجـي ينبـع دائمًـا مـن آنيَّتـه. صحيـح أن المذاهـب أقـوى مـن أصحابهـا، لكـن أصحابهـا هـؤلاء هـم عبيـدٌ حقيقيُّـون للحظتهـم الآنيـة وصراعاتهـم المعـاصرة مهـما ادَّعـوا انتماءهـم لفكـرةٍ أشـدَّ تجريـدًا، أو للحظـةٍ أكـثر عراقـةً، فيحوِّلـون مذهبهـم المُجـرَّد إلى خـادم حاضرهـم، يُشـكِّلونه بقـدر مـا يُشـكِّلهم، في عمليـةٍ مسـتمرةٍ لا تتوقَّـف؛ ولمَّـا كانـت الأيديولوچيـا تخـدم المسـتوى المـادي الآني، فـلا أعتقـد -مثـلًا- بوجـود وطنيـة مصريـة سرمديـة مُطلَقـة، بـل وطنيـة مصريـة هنـا، والآن، وطنيـة اللحظـة الآنيـة في المـكان الحـالي، حالًا، وهنـا بالـذات، وقـتَ كتابـة هـذه السـطور. وطنيـةٌ بنـت الحـاضر وملابسـاته وشروطـه وعلاقـات قـواه الحيَّـة، ومـا يـسري عـلى الوطنيـة أو القوميـة يـسري عـلى كل مسـتوى أيديولوچـي آخـر مثـل الديـن والليبراليـة والاشـتراكية، باعتبارهـم المعائـن الأيديولوچيـة الكـبرى المؤسِّـسـة.

لكـن ليـس كل لحظـةٍ آنيـةٍ كغيرهـا، فالتاريـخ لـه موعـد مـع لحظاتـه الجَلَـل ومنعطفاتـه العِظـام، تلـك التـي تسـتطيع خَـطَّ مسـارٍ ومصـيرٍ إلى اللحظـات اللاحقـة، بشـكلٍ يجعلُهـا لحظـاتٍ مؤسِّسـة؛ يُـؤرَّخ لهـا كنقطـةٍ فاصلـة بـين مـا قبلهـا ومـا بعدهـا، والأفـكار التـي تتبلـور في تلـك اللحظـات الجلـل لهـا نصيبهـا مـن الخلـود في ذاكـرة البـشر؛ يمكـن لهـا أن تبنـي لهـم التصوُّرات لفـتراتٍ طويلـة، شرط أن تكـون عـلى قـدرٍ مـن العـزم والألمعيـة التـي يسـتطيع معهـا التاريـخ أن يُحلِّـق فـوق الزمـن بسرعـةٍ، بخفَّـةِ طائـرٍ جـارحٍ. بالطبـع لم يكـن هـذا هـو مصـير كل اللحظـات المفصليـة في التاريـخ، فبعضهـا يَعـبُرُ فـوق الزمـن مـن دون قُـدرةٍ حقيقيـة عـلى اقتنـاص فرصتـه التاريخيـة، رغـمًا عـن اختـمار كثـيرٍ مـن شروط التحـوُّل، وبـدلًا مـن أن تصبـح سـببًا للانطـلاق تتحـوَّل إلى حـادثٍ مؤسـفٍ، وإلى جـرحٍ غائـرٍ في الذاكـرة.

لحظـات التأسـيس هـذه تمتلـك بالتعريـف القـدرةَ الشـجاعةَ عـلى إعـادة النظر إلى المـاضي والبـدء في نقـده، بـل وربمـا محاكمتـه بالكامـل، أمـورٌ كثـيرةٌ كانـت تظـن نفسـها في حمايـةٍ مـن التأمُّـل والتفكـير تصبـح مَحـلًا لجـدلِ العامـة، ومـا يتـمُّ تصـوُّره كهُويَّـاتٍ راسـخةٍ، يصبـح مُعرَّضًـا للدفـن السريـع لصالـح معـانٍ جديـدةٍ تؤسِّـس لهويـات جديدة، فـشرط التأسـيس الـلازم هـو القـدرة عـلى نقـد ومراجعـة مـا اعتـبره النـاس هويـات مُصمَتَـة وترتيبـات لتصـوُّراتٍ عـن حيـاة لا محـلَّ لمناقشـتها أو مُسـاءلتها، وذلـك إمَّـا بغـرض إصلاحهـا بمـا يوائـم قيـم وأهـداف التأسـيس المجتمعـي الجديـد، أو بغـرض

إلقائها بالكامل في مزبلة التاريخ، كي تأتي أجيالٌ لاحقة تتعامل مع ما حدث من تغيير عظيم كما لو كان أمرًا سهلًا وطبيعيًّا وحتميًّا؛ بينما كان في لحظتها تحوُّلًا استثنائيًّا ومفصليًّا، لربما لا يستطيع أبناء عالمنا المعاصر فَهْمَ أثرِ اللحظةِ التي دخل فيها الفلاح المصري إلى سلك الجُندية في عهد محمد علي الكبير، أو لحظة إلغاء الرِّقِّ في عهدِ حفيده إسماعيل باشا، أو لحظة التحاق الأقباط بالتجنيد الإجباري في القوات المسلحة وانتهاء الأساسِ النظريِّ للوضعية الذِّمِّيَّة، وكذا لحظةِ نزول النساء المصريات إلى الشوارع وتَحَرُّكهنَّ فيها ككيانات طبيعية، كما بدأ مع عشرينات القرن العشرين في أعقاب ثورة 1919، أو فهم ما أحدثته هزيمة يونيو 1967 من جروحٍ ونُدوبٍ عميقةٍ في الوجدان المصري كله.

نهاية طمأنات الماضي

هناك حوادث في التاريخ وَقْعُها في زمانها أشبه بنُزولِ الموت، والموتُ حقٌّ، ليس دونه حقيقةٌ، لا إزالة لأثره، ولا سبيل لاستعادة الزمن الذي سبقه، وأنا لا زلتُ على إيمان تامٍّ بأن ثورة يناير 2011 كانت إعلانًا لا لبس فيه لنهاية العالم الذي عشناه قبلها، وكلما مَرَّ الوقتُ كلما ازددتُ يقينًا؛ فالعوالم القديمة لا تنتهي في لحظات النصر التي تعلِن فيها الفئاتُ الطليعيةُ والثورية نهايتَها، ولا في لحظةِ الإجهاز المادي عليها فعليًّا، بل في اللحظة التي يعجز فيها أبناؤها المحافظون البَرَرَة عن العودة إلى ما قبلها، والاستكانة داخل طمأنات قواعدها الأخلاقية والمعرفية التي طالما عاشوا في حِجرها.

نهاية عالم ما قبل يناير 2011 هو بالتأكيد أمرٌ أكثر تعقيدًا من مُجرَّد سقوط النظام السياسي في 11 فبراير 2011؛ فهي كانت -ولا تزال- تُسمَّى بثورة يناير؛ أي أنها مؤرَّخة بلحظةِ اندلاعها وليس بلحظة سقوط حسني مبارك، هذا ما أدركناه مع الوقت وبالتجربة، فما انتهى بالفعل إلى غير رجعة ليس حكم مبارك، بل حِزمٌ كاملةٌ من التصوُّرات اليقينية بشأن الدولة والمجتمع كتجارب طبيعية، ظنَّ غالبيةُ الناس أنها تسير في التاريخ بشكلٍ طبيعي نحو وجهةٍ ما، وجهة تُعطي هذا المسير شرعيةَ استمراره، حتى إن تعريف المشكلة المركزية في الزمن الذي سبق إسقاط حكم حسني مبارك مباشرةً كان يتمحور بالأساس حول

شخص الرئيس وشيخوخته، وتركيبة نظامه، وأسماء رموزه- بشكلٍ عبَّر ضمنيًّا عن تعاطي الكتلة الحَرِجَة في المجتمع مع مسار حياة الدولة والمجتمع، كمسارٍ طبيعي يُشكِّل فيه مبارك ونظامه عَقبة وعثرة أمام استمراره، وذلك عبر الفصل بين طبيعة النظام وجوهر الدولة، فنظام مبارك فاسِدٌ، اختطف دولة المؤسَّسات المصرية العريقة، واختطف معها مستقبل ومصير مجتمعٍ طَليعَتُه هم شبابه المُتعلِّم، وطبقته الوسطى، التي تتوق إلى الإصلاح والحرية.

بَيْدَ أن مطالب التغيير في مصر قبل إسقاط مبارك لم تطرح أبدًا أفقًا راديكاليًّا يُبشِّر بمجتمعٍ جديدٍ يُفكِّك النظام الاجتماعي ويقلبه رأسًا على عقِب، أو يُحدِث تغييراتٍ كبرى حاسمة فيه وفي صميم بنية علاقات القوى داخله، فلقد كانت حدود الصراع -حتى في أشد اللحظاتِ صداميةً، ما بين 28 يناير و11 فبراير 2011 - تُراوح -موضوعيًّا- بين شعاراتٍ سبق للنظام نفسه أن طرحها، لكن عَجَزَ عن تنفيذها، أو إتمام إجراءاتٍ بدأها بالفعل، ولكن بخطواتٍ ثقيلةٍ ومتردِّدةٍ، كثيرٌ من المطالب الحركية لثورة يناير كانت بالأساس تتعلَّق بمسائل إجرائية أكثر منها جوهرية، فالحدود القصوى المُجمَع عليها بين الطيف الأوسع المُشارك في الثورة لم تتعدَّ رحيل مبارك، وتعديل مواد الدستور بما يسمح بتعدُّد مرشَّحي الرئاسة وحصر مُدد الحكم في فترتين رئاسيتين فقط؛ لضمان عدم تأبيده في الحكم أو سعيه لتوريث أنجاله من بعده.

لكن عبر التاريخ، كان للانتفاضات ذات السمات الثورية منطقها الخاص الذي قد يتجاوز وعي وأُفُق الفاعلين فيها وإراداتهم السابقة، سواء كانوا من داخل صفوفها، أو في الطرف المضاد لها، فإيقاع حركتها ومشهدية أحداثها في بعض الأحيان تتسارع بشكلٍ يسبق إدراك الجميع ووعيهم بزمنهم الجاري، ليتم في تلك اللحظات الاستثنائية ما يشبه عملية اختصار المسافات داخل الزمن التي تتكثَّف فيه السنوات إلى أيام، بما يعنيه ذلك من تراكُم عنيف للتجارب والخبرات، ومُجاهدة اختبار تلك المعاني ذهنيًّا ونفسيًّا، لتجد كل عناصر المجتمع التي تخوض التجربة الجديدة نفسها أمام واقعٍ جديد بالمجمل رغمًا عن أنفها. ونحن هنا لا يمكننا بالضبط قياس أثر تكثيف الزمن الثوري على وعي الناس وعلى تجربتهم النفسية والإنسانية التي خلَّفَتها ثورة 2011 أو ما خلَّفه يوم 28 يناير بالذات،

لكنّـي أدَّعـي أن كل مَـن كان جـزءًا مـن تجربـة كهـذه -أيًّـا كان موقعـه- فقـد اسـتبصر وشَـعر بمـا لم يَشـهده أو يختـبره سـواه.

لكـن مـا خلَقَتـه تجربـة ينايـر مـن أزمـةٍ للدولـة والمجتمـع عـلى السـواء لم يكـن فيـما طرَحَتـه هـي؛ لأنهـا في الواقـع لم تطـرح بنفسـها الكثـير، ولكـن في الفـراغ العميـق الـذي كشـفت عنـه وسـبَّبَته، فلقـد اسـتمرَّت الحالـة الثوريـة لمـا يقـرب العامـين، عمـر طويـل جـدًّا إذا مـا قارَنَّـاه بعمـر الانتفاضـات والثـورات المصريـة السـابقة، سـواء ثـورة عـرابي أو ثـورة 1919، أو الانتفاضـات العَفويَّـة في ينايـر 1952 وينايـر 1977، والتـي لم تسـتمرَّ سـوى يـوم أو اثنـين، وأصرَّت الدولـة على تسـميتها بالأحداث المؤسـفة والحرائق، عـلى خـلاف ذلـك خَلَقَـت الحالـة الينايريَّـة فراغًـا خلَّـف خـبرة وذاكـرة شـديد الكثافـة طرَحَتـا بنفسـيهما أسـئلتها الخاصـة. لم يسـبق في التاريـخ المـصري الحديـث أن نجـح حـراكٌ شـعبيٌّ مصحـوبٌ بـإرادة قتاليـة في إسـقاط نظامًـا سياسـيًّا بالكامـل ومـا يترتـب عـلى ذلـك مـن تبعـات فوضويـة أصابـت دولـةً لم تكـن مسـتعدَّةً لملحَمـةٍ مشـهدية كـبرى كهـذه؛ لـذا -وفي شـهورٍ قليلـةٍ- أصبحـت ينايـر وتجربتهـا وتداعياتهـا الماديـة والمعنويـة هـي المرجـع التأسـيسي للسياسـة والاجتـماع في مـصر، حيـث تحوَّلَـت إلى قـوة تدمـير فَتِيَّـة هائلـة أطاحـت بوضـعٍ قديـمٍ مـن دون أن تحـلَّ محلَّـه أو تمـلأ فراغه، طارِحَـةً بذلـك فيضًـا مـن الأسـئلة المُلِحَّـة، سـواء عـن عَمـدٍ أو غـير عمـد، بشـكلٍ غـائيٍّ أو اضطـراري، وذلـك تحـت وطـأة تسـارُع عجلـة الانتفـاض وفـراغ السـلطة.

لقـد خَلَّـف الفـراغُ الأمنـي الناتـج عـن انسـحاب الداخليـة مـن المشـهد بعـد 28 ينايـر 2011 سـؤالًا محوريًّـا بشـأن علاقـة الحريـة بالأمـن وتناقضاتهـا، وأيٍّ منهـما مُقـدَّمٍ عـلى الآخـر؟ ومـا الثَّمـن الـذي يمكـن أن يدفعـه مجتمـعٌ إذا وجـد نفسـه في موقـفٍ يُقايـِضُ فيـه تَحـرُّرَه السـياسي بأمنـه الاجتماعـي؟ خلَّـف غيـابُ قبضـةِ السـلطة المركزية لفـترةٍ سـؤالًا صامتًـا عـن الفجـوات الجِهَويَّـة وآثارهـا عـلى الاجتـماع العـام، ومسـتوى تمـرُّد الإقليمـي عـلى المركـزي، حتـى لـو تجسَّـد ذلـك في شـكل سـلوكياتٍ فرديـةٍ غـير سياسـية، كالتعـدِّي، والبنـاء الواسـع عـلى الأراضي الزراعيـة. هنـا أتعمَّـد ضربَ أمثلـةٍ مُحـدَّدة تتعلَّـق بمشـكلاتٍ طرحـت نفسـها بنفسـها، ولم يطرحهـا توجُّـهٌ سـياسيٌّ بعينـه أو اسـتثمر فيـه، فـكل القـوى السياسـية رفعـت شـعار عـودة الأمـن بشـكلٍ أو بآخـرٍ، وهنـا نـدرك كيـف يمكـن لـشرطٍ موضوعـي جديـد خـارج عـن إرادة الجميـع أن يطـرح

أزمـةً، يعيهـا الجميـع بشـكلٍ جديـدٍ لأول مـرة مـن دون خـبرة سـابقة، بشـكلٍ يدمـغ تفكيرَهـم ووجدانهـم مـرةً واحـدةً، وللأبـد.

الإرهاصات الاجتماعيَّة لبداية الأزمة التأسيسيَّة

بشـكلٍ عـامٍّ، أتَّفـقُ مـع طروحـات "أليكسـيس دو توكفيـل"[1] المؤسِّـسة بشـأن الـشروط المادية للثَّـورات، والتـي تـرى أن السـياق الـذي تندلـع فيـه يسـبقه تَحسُّـنٌ في الأحـوال وارتفـاعٌ في التَّوقُّعـات الشـعبية والرِّهـان الأمـل عـلى المسـتقبل، حتـى ولـو عـبَّر عـن نفسـه بنـبرةٍ ضَجِـرةٍ وسـاخطةٍ، وذلـك خلافًا لوجهـةِ النظـر التـي تؤمـن بـأن شرط انـدلاع الثـورات هـو تدهـور أحـوال البلـدان والشـعوب إلى مسـتوياتٍ لا يُمكِـن تحمُّلهـا، فالحقيقـة يمكـن للأحـوال أن تتدهـور إلى مـا لا نهايـة، يُمكـن للتدهـور أن يُفـضي إلى تَفـكُّك للدولـة أو إلى حُكـم أمـراء الحـروب والعصابـات واشـتعال حـروب أهليـة فوضويـة وليـس ثـورات شـعبية بالـضرورة؛ فانـدلاع الثـورات يحتـاج إلى إرادة شـعبيةٍ واثقـةٍ، إلى كتلـةٍ جماهيريـة حَرِجَـة وواعيـة تختطـف في حركتهـا صِفَـةَ الشـعب وتسـتولي عـلى اسـمه، فتعطـي الفِعـلَ الجماهـيري الهـادر غطـاءً مـن الشرعيـة لا يُمكـن لأحـدٍ مُنازَعتـه. لـذا -وبشـكلٍ أدق- فالثـورات في تعريفـي تندلـع في لحظـة تدهـورٍ أو خلخلـةٍ يشـهدها النظـام السـياسي الاجتماعـي خـلال مسـيرةٍ أطـولَ اتَّسَـمَت بتحسُّـن الأحـوال في المجمـل.

ظنـي أن الـشرطَ السـابق ينطبـق تمامًـا عـلى مـصر خـلال العَقـد الأول مـن الألفيـة الجديـدة، فهـذا العَقـد في التاريـخ المـصري كان عقـدًا متفـرِّدًا بملامحـه المُمَيَّـزة، فقـد خلـق تضاريسـه الخاصـة مـن داخـل أحـداث كـبرى صاغتـه عالميًّـا ومحليًّـا؛ ذلـك أن حالـة التَّكلُّـس السـياسي والاقتصـادي الثمانينـي، الـذي تلتـه حالـةٌ مـن الجـري في المـكان في عَقـد التسـعينات، وبـؤس اسـتمرارها لفـترةٍ تربـو عـلى العشريـن عامًـا، جعَلَـت أصواتًـا عديـدةً تتصاعـد -حتـى مـن داخـل الدولـة- تتحـدَّث عـن ضرورة الإصـلاح، وضـخِّ دمـاء جديـدة في جسـم الدولـة المُترهِّـل، دوافـع هـذه الأصـوات كانـت

---

(1) أليكسـيس دو توكفيـل: (1805 - 1859م) مـؤرِّخ ومُنظِّـر سـياسي فرنـسي. اهتـم بالسياسـة في بُعدهـا التاريخـي ولا سـيما فـترات التحـوُّل الثـوري. أشـهر أعمالـه: "في الديمقراطيـة الأمريكيـة (1835 - 1840م)"، و"النظـام القديـم والثـورة" (1856م).

-في رأيـي المتواضِـع- أعمـقَ وأوسـع مـن أن تكـون مجـرَّد مَطِيَّـة لمحاولـة شرعنـة توريـث الحُكـم لجـمال مبـارك، فعـالم أواخـر التسـعينات في مـصر والعـالم كان عالمًـا بـلا مشـاريع وطنيـة تحرُّريَّـة أو متمـرِّدة، وكان التَّعَوْلُـم هـو العنـوان العريـض للمشـهد، والتَّعولُـم هنـا هـو إدمـاج المزيـد مـن الأسـواق الناشـئة في السـوق العالميـة، وتجهيـز الأسـواق المبتدئـة لتكـون في المسـتقبل أسـواقًا ناشـئةً. كان المدخـل الوحيـد لقيـاس تطـوُّر الـدول هـو مـدى قدرتهـا عـلى الاندمـاج في النظـام العالمـي: سياسـيًّا وأمنيًّـا ومفاهيمـيًّ، كانـت صيغـة "الإصـلاح الشـاب النيـو- ليـبرالي" هـي الصيغـة الوحيـدة التـي تضمـن لمـصر وطبقتهـا الحاكمـة إمكانيـة إدمـاجٍ مُتطـوِّرٍ وآمِـنٍ داخـل النظـام الـدولي والسـوق العالميـة، وبطريقـة تحافـظ بشـكلٍ سـلطويٍّ ومُنضبـط عـلى الوعـد الاجتماعـي لقطاعـاتٍ محـدودة ومحـدَّدة مـن الفئـات الاجتماعيـة الوسـطى، التـي صعـدت وزادت حظوظهـا بفعـل الـرَّواج الاقتصـادي النسـبي في التسـعينات، وبفعـل تدويـل قطاعـات اقتصاديـة وطنيـة ارتبطـت بـرأس المـال الأجنبـي وتعلَّمَـت كيـف تعمـل وفقًـا للقواعـد العالميـة الاحترافيـة للسـوق.

لقـد كان الاندمـاج الأسرع في النظـام العالمـي مـن بوَّابـة النيـو- ليبراليـة هـو الـشرط والأمـل الوحيـد المطـروح عـلى الأفـق السـياسي والاقتصـادي المـصري، وكانـت صِيَـغُ الدمـج النيـو- ليبراليـة تلـك تتفـاوَتُ في تصوُّراتهـا يمينًـا ويسـارًا، ففـي يمينهـا تصـوُّر عـن نظـامٍ أمنـي عقـلاني ومجموعـةٍ سـلطوية راشـدة، تفتـح هوامـشَ مُنضبطـةً مـن الحريـات، أي تطويـر لنظـام مبـارك نفسـه، لكـن بخُطًـى محسـوبة، وفي يسـارها كان تصـورٌ أكـثر تفـاؤلًا عـن إجـراء عمليـة تحـوُّل ديمقراطـي كاملـة بصيغـةٍ تعدُّديـة حقيقيـة تُدمِـج كل المكونـات السياسـية، وأهمُّهـا: الإسـلاميون، وتسـمح بتداول السُّـلطَة السـلمي، وتسـتجيب للأچنـدات والمعايـير الدوليـة الحقوقيـة. وبالمناسـبة كانـت حـدود الخـلاف داخـل تصـوُّرات الدمـج النيـو- ليـبرالي هـي نفـس حـدود الاختلافـات بـين الجمهوريـين والديمقراطيـين في أمريـكا بشـأن تصوُّرات كُلٍّ منهـما عـن "إصـلاح" العـالم المتخلِّـف والنامـي في زمـن مـا قبـل الربيـع العـربي؛ لـذا -مـع حلـول الألفيـة الجديـدة- أصبحـت كلمـة "الإصـلاح" مرادِفَـةً للكلمـة "النيـو- ليبراليـة"، وكان معنـى "الإصـلاح" هـو المعنـى الاقتصـادي بالطبـع، عـبر نَسـخٍ وترجمـة أچنـدة البنـك الـدولي وسياسـات التكيُّـف الهيـكلي والخصخصـة وتحطيـم مفاهيـم الرعايـة الاجتماعيـة ومسـؤوليات الدولـة عنهـا تحطيـمًا مفاهيمـيًّ ودعائيًّـا، قبـل الإجهـاز عليهـا مادِّيًّـا.

كانت الألفية الأولى تجسيدًا لثنائية التحسُّن النسبي للأحوال المادية والمعيشية الذي تُرافقه حالةٌ من الضَّجَر العام، فالأداء الاقتصادي لحكومة أحمد نظيف التي تشكَّلت عام 2004 كان جيدًا للغاية على المستوى الرقمي، ارتفعت مُعدَّلات النمو الاقتصادي، لتصل في بعض السنوات إلى 7%، وزادت الاستثمارات الأجنبية بمعدَّلات معقولة، وبدأت خطوات جادَّةٌ في مَيْكَنَة الجهاز الإداري للدولة، وتسهيل تدفق المعلومات داخله، وفي المجمل تَحسَّنت أحوال الفئات الوسطى العليا، وزادت معدَّلات استهلاكها، ولا سيَّما تلك المرتبطة بقطاعات السياحة والشركات متعدِّدة الجنسيات، فشُيِّدَت قنواتٌ ومرافِقُ عبَّرَت عن صعود هذه الشرائح العليا من الطبقة الوسطى، فزادت المولات والسينمات والكافيهات ومناطق الترفيه البرچوازي في المدن الكبيرة، لكن السخط الشعبي الأوسع كان يتصاعد بسبب عدم عدالة توزيع نتاج النُّموِّ الاقتصادي وخدمته لفئات حصرية بعينها، وفي حين لم تكن تلك الفئات العليا من الطبقة الوسطى تُشكِّل نسبة مئوية مُعتَبَرَة من السُّكَّان، إلَّا أنها كانت كبيرة العدد كرقمٍ مُطلَق وكتلة متماسكة المعالم أكثر من غيرها، بشكل يؤشِّر على صعود شرائح من الطبقة الوسطى تحسَّنَت معيشتها، وتمكَّنت من خلق دائرة للكسب والاستهلاك داخل الأسواق المصرية، ومن نتاج دوائر أعمالها، وليس فقط عن طريق الادِّخار من العمل في دول الخليج كما هو الحال في ثمانينات القرن العشرين.

وعلى مستوى التوقُّعات الاجتماعية: أظهر العَقدُ الأول من الألفية نوعًا ما من وضوح المسار لإمكانيات الترقِّي الاجتماعي وسُبُله، على الرغم عن غياب تكافؤ الفرص بين عموم الناس، وبدا أن هناك صعودًا واضحًا للقطاعات المُدوَّلة من الاقتصاد الوطني، وانفتاح في حركة المجتمع المدني ومُنظَّماته، وانتعاش في أسواق الإعلام والإنتاج الرمزي والرقمي، بشكل أكثر احترافيةً ومهنيَّةً ونجاحًا، وفوق كل هذه دخلت شبكة الإنترنت ومواقع التواصُل الاجتماعي كلاعِبٍ جديد على الساحة، حيث زادت إمكانيات تعرُّف الناس على بعضها البعض، وزدات فرص العمل والتعلُّم عن طريق شبكات تواصل ومعارف أوسع، عوضًا عن أوضاع اعتمدت سابقًا على الصِّلات المباشرة والمحدَّدَة، ومع الوقت ظهرت تصوُّرات مُنمذَجة عن شكل اللياقة الاجتماعية الجديدة المرتبطة بالشاب المُلتَحق بشركةٍ صاعدة، ويعتبر مدراء شركات مثل أوراسكوم وڤودافون "مُثُلًا عُليا" ونماذج

للنجـاح والترقـي الاجتماعـي الأنيـق والمُسـتَحَق، المرتبـط بالمهنيـة والكفـاءة والتشـبُّه بأنمـاط العمـل الاحترافيـة في الخـارج، وبالنسـبة لآخريـن كان العمـلُ بالمنظـمات الأهلية والدراسـة في الخـارج مدخـلًا آخـرَ لتصـوُّر شَـكل التطـوُّر والرِّفعـة، وكان ذلـك أيضًـا مرتبطًـا بتصـوُّرٍ عـن تطويـر المهـارات الشـخصية والمعرفيـة بشـكل يقـترب مـن المعايـير العالميـة، ليجعـل مـن صاحبهـا أهـلًا للترقِّـي الوظيفـي في عـدد مـن المجـالات، بمعنـى عـام: خلقـت الألفيـة الأولى عـددًا مـن الصـور الذهنيـة عـن مـدارات النجـاح الشـخصي والمهنـي الـذي يحفـظ لصاحبـه احترامـه لنفسـه وأحقِّيَّتـه في تطويـر حياتـه للأفضـل، بجهـده وعلمـه وعملـه، وتصـوُّر عـن المسـتقبل الشـخصي الآمِـن عمومًـا، وهـو المدخـل الأول الـذي حفَّـز كثـيرًا مـن المصريـين مـن تلـك الفئـات الاجتماعيـة الصاعـدة عـلى التفكـير في المسـتوى العـام وفي المسـتقبل السـياسي في البلـد، كفاعِلـين مسـتقبليِّين فيـه، وأصحـاب حـقٍّ طبيعـي في قيـادة التقـدُّم المنشـود.

المشهد السياسي السابق على الأزمة التأسيسية

عـلى المسـتوى السـياسي، بـدأت الألفيـة الأولى مـع الانتفاضـة الفلسـطينية الثانيـة وسـماح السـلطات المصريـة بهامـش مـن الحركـة السياسـية في الشـارع والجامعـات؛ دعـمًا لهـا، وبينـما كانـت الريـاح تَـشِي بتصاعُـد الانتفاضـة ومفاعيلهـا، جـاءت هجـمات تنظيـم القاعـدة عـلى عـدد مـن الأهـداف الحيويـة في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في 11 سـبتمبر 2001، ليتغيَّر المشـهد العالمـي بشـكل شـديد التَّطـرُّف؛ ففـي غضـون شـهور معـدودة تحـوَّل الـشرق الأوسـط إلى مرمـى نـيران مُحتَمَـلٍ لغضـبٍ أمريـكيٍّ قـادم لا محالـة، وتحوَّلَـت أنظـار الولايـات المتحـدة إلى الشرق الأوسـط عـلى عُجالـة، وصيغت في الدوائـر السياسـية الأمريكيـة طروحـاتٌ وخطـطٌ سياسـية وأمنيـة جديـدة أكثر تدخُّلِّيَّـة وعدوانيـة ناحيـة المنطقـة، تَوَّجَـت نفسـها بالغـزو الأمريـكي للعـراق في ربيـع 2003، والـذي شـكَّل أكـبر كارثـة جيـو اسـتراتيجية عـلى العـالم العـربي منـذ اسـتقلال دولـه في النصـف الأول مـن القـرن العشريـن، وفجـأة تحوَّلَـت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة مـن قـوة عظمـى حليفـة لمعظـم أنظمـة العـالم العـربي إلى قـوة تدمـيرٍ أهـوج، مُسـتعدَّة لتدمـير البنيـة الأساسـية والوجـود السـياسي لـدول مُسـتقلَّة ذات سـيادة، في شـهور معـدودة، لتحـلَّ محلَّهـا حالـة مـن الفـراغ غـير المـدروس أو المُعَـدِّ لـه.

كان الغـزو الأمريـكي للعـراق جـرس إنـذار عنيـف للأنظمـة الحليفـة للولايـات المتحـدة في الـشرق الأوسـط، فقـد تـمَّ أخـذ العـراق كنمـوذج إيضـاح وعِـبرة لمـن لا يعتـبر، وأصبحـت الجيـوش الأمريكيـة موجـودة في المنطقـة بالأصالـة عـن نفسـها وليـس عـن طريـق الحليـف الإسرائيـلي المُدلَّـل، وقـدَّم الاحتـلال الأمريـكي نفسـه كقـوة غـزو عسـكري غشـوم، لا مانـع لديـه مـن تكـرار التجربـة العراقيـة في مـكان آخـر إذا تطلَّـب الأمـر؛ لـذا لم يحتـج الأمـر إلى شـهور طويلـة حتـى بـدأت وزيـرة الخارجيـة الأمريكيـة كونداليـزا رايـس في التحـدُّث صراحـةً عـن وجـوب قيـام عـدد مـن الأنظمـة السياسـية العربيـة بإصلاحـات ديمقراطيـة واقتصاديـة، بشـكلٍ كان أقـربَ إلى الإمـلاءات الاسـتعمارية العدوانيـة منهـا إلى نصيحـة الصديـق للصديـق.

البرجوازيـة البيروقراطيـة التقليديـة -وفي قلبهـا الحـرس القديـم لنظـام مبـارك- رأوا في كل هـذه التطـورات السـابقة -إقليميًّـا وداخليًّـا- خطـرًا عـلى وجودهـم المتمـترس بتقاليـد الدولـة اليوليويـة المتكلِّسـة، البرجوازيـة البيروقراطيـة المصريـة منـذ ثمانينـات القـرن العشريـن أصبحـت بالتعريـف عقبـة أمـام التاريـخ والتقـدُّم ومُعطِّلـة لـكل خيـارات التنميـة، بـل لإمكانيـات النمـو حتـى، وظلَّـت تحتـال عـلى مـا تبقَّـى مـن التقاليـد الناصريـة، كوريثـة لقِيَـم الاسـتبداد فيهـا، بعـد أن فرَّغَتهـا مـن مضمونهـا الاجتماعـي بتـؤدَةٍ وإصرارٍ طـوال عهـدَيْ: السـادات ومبـارك، فهـي تُعـادي الدَّمـج النيو-ليـبرالي بـكل صِيَغـه، وتحـت شـعارات ناصريـة النَّكهـة، وتخـشى التغيـير بالتعريـف لأنـه قـد يُطيـح بمجموعـات فيهـا ويُعيـد صياغـةَ وتقسـيم أنصبـةَ الكعكـة الاقتصاديـة؛ لـذا استشـعَرَت الخطـر، وتحرَّكَـت هـي ومُمثلوهـا الأيديولوجيُّـون مـن دَولَتيِّـين وأشـباه ناصريـين لم يتبـقَّ لهـم مـن ناصريتهـم إلا عبـادة الاسـتبداد والأجهـزة الأمنيـة.

ويُعلِّمنـا التاريـخ أن النُّظـم الاسـتبدادية لا تفتـح مجـالًا للتنفيـس والتعبـير الحُـرِّ إلَّا في حالـة وجـود تشـقُّقات داخـل كُتلَتِهـا الحاكمـة عـلى مسـتوى الرؤيـة والمصالـح، هـذه التشـقُّقات هـي فقـط التـي تسـمح للمجموعـات الهامشـية والصغـيرة بالعمـل واللعـب عـلى تناقضـات المجموعـات الرئيسـية الحاكمـة، وهـذا مـا حـدث بالفعـل في مـصر مـا بعـد عـام 2003، حيـث ظَهَـرَ عـددٌ مـن الصُّحـف المسـتقلة التـي لا يمكـن الجـزم بتبعيتهـا لأيٍّ مـن الأجنحـة المختلفـة داخـل السـلطة، فتـمَّ السـماح بهامـش مـن الحريـة الحركيـة لمجموعـات سياسـية جديـدة وغـير شرعيـة بالمعنـى الحـزبي، وتحوَّلَـت نشـاطاتها إلى العَلَنيَّـة واسـتخدام الشـارع، وظهـرت حـركات كفايـة و6 أبريـل.

وتحت شعار "لا للتوريث" تبَلوَرَت جبهةٌ شديدةُ التناقض والانتهازية، كانت البرجوازية البيروقراطية بأذرعها قُطبًا رئيسيًّا فيها، وكان المِزاج الإسلامي الإصلاحي والمِزاج الديمقراطي اليساري الشاب قطبًا آخر، في حين وقف الإخوان المسلمون في منتصف المسافة بين تلك الجبهة وبين جمال مبارك. لقد كان التكتيك الحركي والخطابي العام لهذه الجبهة هو عزل حسني مبارك عن الدولة، أو بمعنى أدق: تنزيه الدولة عنه، عبر وصفه بالنظام أو الطُّغمة المدعومة من جهاز مباحث أمن الدولة والحزب الوطني، في مقابل تنزيه وتحييد القضاء والجيش والجسم الرئيسي للإعلام والجهاز البيروقراطي للدولة، هذه الجبهة/ التواطؤ هي مَن شكَّل الكتلةَ التاريخية لثورة يناير، التي كانت بنتَ نزعةٍ توافُقيَّة إصلاحية بين مكوِّنات المعارضة من ناحيةٍ، وكُتَلٍ دَوْلَتيَّة شديدة الرجعية والفساد من ناحيةٍ أخرى، وكان هذا المشهد هو من توَّج بنفسه ثورة يناير التي قامت في مواجهة انفتاحٍ سياسيٍّ مُرتبِك متأزِّم وإصلاحات اقتصادية نيو- ليبرالية عَبَّأت ضدَّها أكثر ممَّا حشدت لصالحها، وكل هذا على خلفية إمكانية استفزازية لتوريث حسني مبارك الحُكم لابنه، ضاربًا بعرض الحائط بتقاليد البيروقراطية المصرية العتيدة، وما تبقَّى من قِيَمِ نظامها نصف الجمهوري، وكعادة الأنظمة الاستبدادية؛ فإن فُرص واحتمالات سقوطها تزداد في اللحظات التي تبدو وكأنها تُصلِح من نفسها، حيث تنفتح شهية التغيير لتبتلع بشراهَةٍ ما يطرحه النظام من فُتاتٍ إصلاحيٍّ، ثم ما تلبث إلا قليلًا حتى تلتهمه هو بالكامل.

ما زاد الطين بلَّةً هو بطء حسني مبارك الشديد إزاء كل التطوُّرات الحادثة من حوله، فلا هو عجَّل بدفع مشروع توريث جمال مبارك إلى العلن، ولا هو حسم الجدل بشكل واضح بشأن عدم إمكانية التوريث؛ لذا اكتنفت الأجواء السياسية حالة من الغموض الشديد لما يربو على السنتين، وازدادت الأوضاع [illegible]لقًا مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية في منتصف 2011، وليس هذا فقط، [illegible]ن تلبَّدَت الأجواء بغيومٍ أشدَّ مع إدارة أحمد عز -أمين تنظيم الحزب الوطني- [illegible]هد الانتخابات البرلمانية في نهاية عام 2010 بمنتهى الرُّعونَةِ والسَّفَه، حين تمَّ إسقاط جميع مُرشَّحي المعارضة بالتزوير الفاضح، بل وإقصاء العديد من المرشَّحين التقليديين للحزب الوطني نفسه، فأثار بذلك حنقَ وضيقَ قطاعاتٍ أوسع، اعتبرت نفسها في صفوف المعارضة بدءًا من أكتوبر 2010؛ لذا لم يَحتَجْ

المشـهد السـياسي المتهـاوي إلى أكـثر مـن شرارة محمـد البـو عزيـزي في تونـس كي يبـدأ فصـلًا اسـتثنائيًا جديـدًا مـن التاريـخ.

ثورة يناير واحتدام الأزمة التأسيسيّة

بـدأ تاريـخٌ جديـدٌ بعـد صـلاة جمعـة يـوم 28 ينايـر 2011 بانـدلاع أكـبر وأعنـف انتفاضـة شـعبية في التاريـخ المـصري الحديـث، انتهـى الأمـر في سـاعاتٍ قليلـةٍ، فمنـذ عـصر يـوم 28 ينايـر والجميـع يُـدرك أن كتابًـا كامِـلًا مـن التاريـخ قـد طُوِيَـت صفحتـه، لنبـدأ تاريخًـا جديـدًا أحداثـه أكـبر مـن صراع توريـث الحكـم أو تناقُضـات الأجنحـة داخـل النظـام الواحـد، أو حتـى مـن الصراعـات الخطابيـة بـين القـوى السياسـية المختلفـة. لقـد نـزل الشـعب المـصري بنفسـه، بقيـادة مثقَّفيـه وطبقتـه الوُسـطَى، ومشـاركة حواشـيه المدينيـة الكادحـة في المظاهـرات نهـارًا، ثـم خـرج سُـكَّان المناطـق الشـعبية في المسـاء، ليُجهِـزوا عـلى مـا تبقَّـى مـن هيبـة الدولـة، مُجسَّـدَةً في أقسـام شرطتهـا، ولم تَعُـد القصـة قصَّـةَ تجاذُبـاتٍ وصراعـاتٍ سياسـية سـابقة، أصبـح الـكلُّ في سـاعاتٍ معـدودةٍ يعـدو خلـف غـولٍ جماهـيريٍّ هـادرٍ بـلا عـدد، قـدَّم في يـومٍ واحـدٍ مئـات الضحايـا -وربمـا آلاف منهـم- في مـدن: القاهـرة والإسـكندرية والسـويس والفيوم، وغيرهـا. انتفضـت كتلـةٌ حَرِجـةٌ مـن الشـعب ليـومٍ واحـدٍ، أظهَـرَت فيـه وجهًـا لـن ينسـاه كلُّ مَـن عـاصره، وجهًـا سيسـبغ ملامـح كلِّ وَعـيٍ لاحـقٍ عـلى هـذا التاريـخ، لقـد دارت عجلـةُ الثـورة رغـمًا عـن أنـف الجميـع، رغـم أنـف المتحمِّسـين لهـا قبـل أعدائهـا، ونزلـت عـلى التاريـخ السـابق عليهـا نُـزولَ المـوت، لم يمكـن إخفـاء صـوت الانفجـار ولا يُمكـن نسـيانه، لقـد حـدث مـا حـدث.

لكـن مصـير الثـورات ومسـاراتها الناجحـة لا يتحـدَّد فقـط بوقـع وتأثـير لحظـة الانتفـاض الأولى عـلى المجتمـع مهـما كان مُزلـزلًا وعنيفًـا، بـل بالعلاقـة الصراعيـة والتسـابقية بـين شرطـين موضوعـين أساسـيين:

الـشرط الأول: هـو مسـتوى تفـكُّك البنيـة الحاكمـة ودرجـة تـآكُل شرعيتهـا في الفـترة التـي سـبقت لحظـة الانتفـاض الأولى أو بسـبب مفاعيـل اندلاعهـا، وذلـك عـلى مسـتوى تماسُـك الشـكل السـياسي والتنظيمـي والحـزبي للتحالُـف الطبقـي الاجتماعـي المُهيمـن الـذي يصيـغ علاقـة الطبقـة الحاكمـة بالدولـة، أو عـلى مسـتوى تفـكُّك الكتلـة

الحاكمة بالمعنى الفني والتقني للكلمة، بمعنى عدم قدرة مؤسسات الدولة على العمل في تناغُم، وضعف مستوى الاتصال والتماسُك والثقة المطلوبة فيما بينها، بسبب غياب القيادة السياسية الموحَّدة، خاصَّةً في البلدان هرميَّةَ السُّلطة، التي تتجمَّع فيها كلُّ خيوطِ السلطان في يدِ رجلٍ واحدٍ.

أمَّا **الشرط الثاني**: فهو وجود كتلة اجتماعية صاعدة تمتلك الإمكانيات المادية والرؤية السياسية والمشروع الحضاري الذي يُمكِّنها من قيادة تحوُّلٍ اجتماعي وسياسي كبير، قادرٍ على إعادة تشكيل وجه البلاد وقادر على إحداث قطيعة واضحة مع الماضي، ليؤسِّس نظامًا سياسيًّا جديدًا بالكامل، هذه الكتلة في مسارِ صعودها عادةً ما تصيغ عددًا من الخطابات والتصوُّرات التي تصبغ الجدل العام بصبغتها هي، فتصبح تلك الكتلة هي صانعة الخيالات السياسية والمرجعيَّات القِيَميَّة ومناط الشرعية الفعلي؛ هذا الشرط تحديدًا هو ما مَيَّز الثوراتِ الكبرى المؤسسة في التاريخ الإنساني الحديث كالثورتين: الفرنسية والأمريكية، وبالتحديد: الدور التي لعبته الطبقة البرجوازية الصاعدة في تفكيك أنماط الإنتاج الإقطاعية، وتحطيم النفوذ المالي والسياسي للكنيسة، وإنهاء الحُكم الملكي وإعلان الجمهوريات وسَنِّ الدساتير.

يمكن لأيٍّ من الشَّرطَيْن أن يزداد وزنه النسبي على الشرط الآخر، إلى حَدٍّ أن يسود عليه ويقود مساره ومصيره، فمثلًا؛ في حالة الثورة الفرنسية عام 1789 لم يكن من الممكن وصف حُكم لويس السادس عشر في السنين التي سبقت اندلاعها بأنه كان حُكمًا ضعيفًا أو مُتهالِكَ الشرعية، فالملك لويس نفسه كان عرشه يملك من الاستقرار ما جعله يخطو بثقةٍ عددًا من الخطوات الإصلاحية التي أفضت لاحقًا إلى الثورة، على سبيل المثال لا الحصر: تأييده للثورة الأمريكية عام 1776، وإرساله فرقة عسكرية لدعمها بقيادة الماركيز لافاييت، الذي سيصبح لاحقًا أحد أهم رموز الثورة الفرنسية في بداياتها، فلقد كانت الدولة الفرنسية القديمة وبنيتها في حالة تماسُكٍ نِسبيٍّ وقدرة فعَّالة على ممارسة سُلطتها، لكن معدل تصاعُد الكتلة التاريخية الاجتماعية الجديدة الممثَّلة في الطبقة البرجوازية الراغبة في التغيير كان أسرع وأقوى من قدرة الدولة القديمة والحُكم الملكي على مجاراة صعودها؛ لذا حين سيطر على مقاليد الحكم كلٌّ من المؤتمر الوطني المُنتَخَب ولجنة الأمن العام المنبثقة عنه، والتي كان رموزها حديثي العهد بالسياسة والسُّلطَة مثل:

چـاك دانتـون، وماكسـميليان روبسـبيير، وسـان چوسـت، كان تحـت أمرهـم جهـاز دولـة قـوى مـوروث مـن العهـد المَلَـكي، مَكَّنَهـم مـن فـرض وإنفـاذ قوانـين راديكاليـة صعبـة التنفيـذ، بـل والقـدرة عـلى تأسـيس وحشـد جيـوش وطنيـة حديثـة ومتطـوِّرة لمواجهـة جيـوش القـارة الأوربيـة المجتمعـة عـلى إسـقاط الثـورة الفرنسـية، والتمكـن مـن دحرهـا.

لكـن يُمكـن أيضًـا للعلاقـة بـين تـآكُل شرعيـة البنيـة الحاكمـة وبـين صعـود كتلـة تاريخيـة للتغيـير أن تكـون علاقـةَ سـباقٍ زمنيٍّ بـين صراع الشَّرطَـيْن، بمعنى: هل سـتتآكل البنيـة الحاكمـة وشرعيتهـا بسرعـة أعـلى مـن سرعـة صعـود وبلـورة الكتلـة التاريخيـة التـي سـتحلُّ مَحلَّهـا؟ أم أن صعـود وهبـوط الشرطـين في صراعهـما سـيتعادلان في لحظـةٍ زمنيـة تاريخيـة متقاربـة؟ يُمكننـي أن أغامـر بالقـول إن الثـورة الروسـية عـام 1917 كانـت الأقـربَ لهـذه العلاقـة؛ فانهيـار سُـلطة القيـصر نيكـولاي الثـاني وشرعيـة عرشـه بصيغتـه الدينيـة -ومـن بعـده سُـلطَة الأحـزاب البرچوازيـة- كان أسرعَ مـن صعـود نفـوذ الطبقـة العاملـة الروسـية تحـت قيـادة البلاشِـفَة؛ وهـو مـا جعـل لحظـة اسـتلام السـلطة العُمَّاليَّـة لحظـةً مأزومـة؛ لأن الكتلـة الاجتماعيـة العُمَّاليَّـة عـلى الرغـم مـن صعودهـا السـياسي الجـارف إلا إنهـا لم تكـن بالقـوة والهيمنـة الكافية لتأسـيس سـلطتها بشـكل نافِـذٍ وحاسـم؛ مـمَّا فجَّـر حربًـا أهليـةً ضروسًـا، اسـتمرَّت لأربـع سـنوات، انتـصر فيهـا المُعَسـكر العُـمَّالي السـوڤييتي، ولكـن بعـد تعرُّضـه لضربـاتٍ قاسـمة أثَّـرَت عـلى تماسُـكه هـو نفسـه؛ مـمَّا أفـضى إلى تـآكُل السُّـلطة العُمَّاليـة السـوڤييتية لصالـح سـلطة الحـزب الشـيوعي الـذي أسَّـس سـلطةً بيروقراطيـة وأمنيـة اعتمـدت في المقـام الأول عـلى إرهـاب الدولـة.

ويمكـن لعلاقـة السـباق الزمنـي تلـك بـين الشرطـين أن تأخـذ إيقاعًـا آخـر، يمكننـا اعتبـاره وصفـةً مُجرَّبـةً للثـورات المُتعـثِّرة أو للحـروب الأهليـة الطويلـة، وهـي العلاقـة التـي لا تتناسـب فيهـا بالمـرة عمليـة تسـارُع تـآكل شرعيـة الحُكـم مـع عمليـة صعـود الكتلـة الاجتماعيـة التاريخيـة القـادرة عـلى قيـادة عمليـة التحـوُّل وتأسـيس المـشروع الجديـد، فتكـون عمليـة تـآكل البنيـة القديمـة للدولـة وتهاويهـا أسرعَ بكثـير مـن عمليـة تكويـن وصعـود الكتلـة الجديـدة، وهـي حالـة كثـير مـن الثـورات المتعـثِّرة، كالثـورة الوطنيـة الصينيـة، التـي أعلنـت الجمهوريـة الصينيـة الأولى عـلى رُكامِ الحكـم الإمبراطـوري عـام 1911، وكذلـك تجربـة إعـلان الجمهوريـة في إسـبانيا عـام 1933،

وكلاهـما تطـوَّر سريعًـا في اتجـاه صـدامٍ واسـعٍ بـين القـوى الرئيسـية في المجتمـع، مـن دون قُـدرَة إحداهـا عـلى حسـم الـصراع؛ مـمَّا فَجَّـر حروبًـا أهليَّـةً طاحنـةً، اسـتمرَّ بعضهـا لمـا يزيـد عـن العشريـن عامًـا، كـما في حالـة الصـين، والتـي انتهـت بانتصـار جيـوش الحـزب الشـيوعي الصينـي عـلى جيـوش الحـزب الوطنـي الصينـي، وإعـلان جمهوريـة الصـين الشـعبية عـام 1949، أو بانتصـار المَلَكيِّـين وقـوى الثـورة المضـادَّة في أسـبانيا، واسـتيلاء الچـنرال الفـاشي فرانشيسـكو فرانكـو عـلى السـلطة عـام 1939.

حالتنـا المصريـة كانـت في كثـير مـن جوانبهـا أقـرب إلى شـكل العلاقـة الثالثـة، فملابسـات إسـقاط مبـارك أظهـرت مـدى تَضعضُـع البنيـة الحاكمـة في مـصر للحـد الـذي عطَّـل الدولـةَ عـن اسـتعادة قدرتهـا عـلى العمـل بسـابق قدراتهـا لفـترةٍ طويلـةٍ جـدًّا، اقتربـت مـن السـنتين، تجـلَّى ذلـك في ظهـور شـقاقات كـبرى داخـل بنيـة السـلطة أثنـاء الانتفاضـة الثوريـة، حيـث كان الحـزب الوطنـي وجهـاز الشرطـة ومباحـث أمـن الدولـة في المعسـكر المضـاد لعمليـة التغيـير التـي أعلنـت القـوات المسـلحة تأييدهـا علانيـةً تحـت ضغـط انتفـاض القطـاع الأوسـع مـن الشـارع المـصري، وفي نفـس الوقـت، لم تكـن هنـاك كتلـة اجتماعيـة صاعـدة تمتلـك المقوِّمـات الفكريـة والتنظيميـة التـي تسـمح بالتدخُّـل لإعـادة ترتيـب البيـت الجمهـوري مـن جديـد ومـن موقـع القيـادة وبشـكلٍ فعَّـالٍ، فالبرچوازيـة المصريـة وطبقـة رجـال الأعـمال لم يطرحـوا مشروعًـا سياسـيًّا للعبـور مـن الأزمـة مـن موقـع مسـؤول أو أمـين، ولا دعَّمـوا قـوى أخـرى صاعـدة لديهـا تصـوُّرات أكـثر تبلـورًا، وكانـوا أشـبهَ بالطفـل الأنـاني المذعـور الـذي لا يبحـث إلا عـن مصالـح شـديدة الضيـق، في وقـتٍ شـديدِ الحساسـية، لم تَقُـم البرچوازيـة المصريـة المدنيـة أو حتـى أجنحـة فيهـا بتمثيـل نفسـها سياسـيًّا بشـكلٍ جـادٍّ وجامـعٍ؛ وبذلـك حُرِمَـت مـصر مـن إمكانيـة صياغـة مسـتقبل أكـثر تعدُّديَّـة واتِّزانًا على مسـتوى العلاقـات المدنيـة/ الأمـن- عسـكرية، فبـدون البرچوازيـة لا وجـود للديمقراطيـة، كـما قـال بارينجتـون مـور.[1]

أمَّـا الطبقـة العاملـة المصريـة فكانـت -ولا زالـت- تفتقـر إلى الحَـدِّ الأدنى مـن التنظيـم الـذي يسـمح لهـا بالدفـاع عـن مصالحهـا الفئويـة المبـاشرة والضَّيِّقـة عـلى مسـتوى التفـاوض والمسـاومة الجماعيـة؛ لـذا -وبالتبعيـة- كانـت في وضـعٍ لا يسـمح

(1) The Social Origins of Dictatorship and Democracy, p 418.

لها بالمرة بالانخراط السياسي بالأصالة عن نفسها في الثورة، وذلك على الرغم من مشاركتها الحاسمة في الثورة خاصة في الأيام الخمسة الأخيرة من حكم مبارك، لكن في العموم كان من الصعب القول بأن الصوت العُمَّالي في الثورة كان حاضرًا بشكلٍ لافتٍ، اتحاد نقابات عمال مصر -وهو التنظيم النقابي الرسمي كيانٌ دَولتيٌّ- خاضِعٌ لسيطرة الأجهزة الأمنية بالتعريف، ومؤيِّدٌ ذليلٌ لها، والحركةُ النقابيةُ المستقلَّة كانت شديدة البدائية والجنينية بشكلٍ لا يسمح لها بلعب أدوارٍ ذات أهمية.

التعطُّل السياسي البرچوازي والغياب العُمَّالي حوَّلا المشهد السياسي المتشكِل حديثًا إلى خليطٍ من قوى إسلامية مُحافظة لها شعبية مُعتَبَرَة، ولكنها لا تحمل أيَّ مشروعٍ جادٍ للتغيير؛ بحُكم تفاهُمِها الموضوعي مع النظام السياسي الحاكم منذ منتصف السبعينات، وقوى ثورية ناشئة تتحسَّس خُطاها الأولى في عالم الممارسة السياسية الحرة؛ لذا ظهرت مبكِّرًا ملامح الفراغ السياسي وغياب البدائل الجادَّة والمسؤولة في الشهورِ التالية لإسقاط مبارك؛ ممَّا جعل المشهد السياسي يبدو في عيون الكتلة الأكبر من المصريين وكأنه مجرَّد ساحةِ تظاهُر لكتلٍ مختلفةٍ وغير مُتبلورة، استمرأت حالةَ الفوضى والسيولة، في مُقابل دولة عاجزة عن استرداد شرعيتها وكفاءة عملها وملء الفراغ الذي سبَّبَه غياب قيادتها السياسية التي استمرَّت لثلاثين عامًا.

يُهيَّأ لي أن يناير كانت انتفاضةً شعبية حقيقية لم تخمد نارها لشهورٍ، قامت بقتل كل احتمالات "الإصلاح" من داخل النظام تمامًا، وخرَّبَت فكرةَ الدمج النيو-ليبرالي بيمينها ويسارها، وفقًا لصيغ العالم المباركي، بحيث بترت إمكانيته، وعرَّت تناقضاته، وجعلت أطرافَ المشهد أكثر تطرُّفًا وتَمَتْرُسًا ووعيًا بأزماتهم الوجودية، لقد كانت الثورة -كاضطراب تاريخي سريع للأبنية القديمة- أسبقَ من فاعليها الأيديولوچيين ومن الخطابات التي حاولت أن تتسيَّدَها؛ لذا كانت الأحداث أسرعَ من قدرةِ الأطراف على ملاحقتها. لقد كان هناك شرطٌ موضوعيٌّ ثوريٌّ، لكن ما تمَّ طرحه من داخل هذا الشرط هو في أفضل الأحوال آفاق إصلاحية "متردِّدة" ذات طابع إجرائي بالأساس، مثل جدل "الدستور أوَّلًا أم الانتخابات أوَّلًا؟"، الذي تسيَّد الصراع السياسي لشهورٍ طويلةٍ في لحظات حسَّاسة من تاريخ مصر.

في الوقت نفسه، كانت عملية إسقاط مبارك مُفاجأةً للدولة نفسها على مستوى الفراغ الذي أحدثته، فانتقال السلطة لم يكن سلميًّا، وكان الشارع المصري طرفًا رئيسيًّا فيه بتضحياتٍ شُجاعة واستثنائية؛ لذا فحين انتقلت السُّلطة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة في 11 فبراير 2011، الذي كان يعي وجود شركاء كُثُر له في عملية التحوُّل تلك، وأن المعادلة فيها أكثر من فاعل، وهناك الكثير من التناقضات بينهم، وأن شعار "الشعب يريد" سيستمرُّ لفترة مُدوِّيًا في الشوارع؛ لذا واجه المجلس العسكري في الشهور الأولى أزمةً سياسيةً عنيفةً؛ فهو من زاويةٍ في حالة صِدام مع عددٍ من أجهزة الدولة التي أظهرت تمرُّدًا يمسُّ بهيبة الدولة ربما أكثر من الثورة نفسها، وفي نفس الوقت كان المجلس العسكري مُدرِكًا لضرورة احتواء هذه التمرُّدات والصبر عليها، ومِن زاويةٍ أخرى وَجد المجلس العسكري نفسه في تحالُفٍ موضوعيٍّ مع أطراف سياسيةٍ مدنيَّة، يُكِنُّ لها الريبة والعداء أكثر من الود والثقة، لكن في العموم تمكَّن الجيش -وعلى الرغم من ضَعفِ خبرته السياسيَّة- من مَوْضَعَة نفسِه سريعًا في موقعِ مناط التوافُق بين كل الفُرَقاء، ورُمَّانة ميزان كل الصراعات، قدَّم نفسَه كعامود أخير في خيمة الدولة المنهارة، وهو تَمَوضُعٌ تلقَّفه التَّيَّارُ المحافظ الأوسع في المجتمع، وتعامل معه كبديهية سياسية غير قابلة لأي تأويل.

وعلى مستوى المعسكرات الثورية، كان المِزاج الديمقراطي الإصلاحي هو المُعبِّر عن روح الحراك الثوري كفاعلٍ تاريخي للتقدُّم، لكنه وجد نفسَه بدون أي ظهيرٍ اجتماعيٍّ، إلَّا جناحًا متمرِّدًا شابًا داخل الطبقة الوسطى المدنية وفئاتها البَينيَّة، وما لبث هذا الجناح طويلًا حتَّى تراجع تأييده لمسار الثورة تحت وطأة الخوف الطبقي الغريزي من عملية التجذير الثوري التي تسارعت بدون تحالُفٍ اجتماعي واسعٍ وصلب يدعمها، فهو في النهاية كان يدرك أنه مجرَّدُ مِزاج وجناح داخل طبقةٍ اجتماعيةٍ وسطى؛ السيولة هي عنوانها، ولا يرتقي لمرتبة العامود الذي يرفع سقف التحوُّلات الكبيرة المطلوبة، وأيُّ سقفٍ قابلٍ للحياة يحتاج لأكثر من عامود طالَمَا كان الحديث عن عقد اجتماعي لبلدٍ كبير بحجم مصر، عَقدٍ عنوانه الدائم هو التواطؤ والتفاوض والحلول الوَسَط، لا الصراع والتجذير والحسم بالسلاح.

وعلى جانب آخر، تخلَّى الجسمُ الأكبر للدولة وللبرجوازية البيروقراطية عن المزاج الديمقراطي الثوري بمجرد ما فرغ من التخلُّص من حسني مبارك ودائرته، واختار -لأوَّل مرَّة، وبوضوحٍ- القوَّاتِ المُسلَّحَة كمُمثِّلٍ سياسي استراتيجي له، وبمنتهى الرضوخ والاستسلام والاستعداد التام لتقديم كل التنازُلات التاريخية والمفاهيمية المرتبطة بهذا الاختيار الجديد، متغاضيًا في ذلك عن تلك التنافُسات القَبَليَّة والعُصبويَّة على إثبات مَن هو أعلى كعبًا داخل أروقة الدولة المصرية، تلك التي حكمت العلاقة بين الجيش والشرطة والقضاء لعقود طويلة، وفي المقابل أثبتت برجوازية الإمَّعات المدنية أنها دون مستوى تأسيس وصيانة مجال سياسي أو استبطان موقع القيادة الرائد لمجتمعٍ تريد أن تَنهَلَ من ثرواته بلا توقُّفٍ، بمنتهى الجشع والشَّرَه، دون الاستعداد لتحمُّل أيَّة تكلُفة سياسية أو اجتماعية، وكأن هذا المجتمع خُلِقَ بكامل قوامه فقط لخدمة مصالحها وهواجسها ولذائذها.

وبمنتهى الانحطاط والغباء التاريخي النادر والاستثنائي لم تستطع جماعة الإخوان المسلمين -تحت قيادةٍ استثنائيَّةٍ الغرور من خيرت الشاطر- تقديمَ نفسها كمُمثِّل اجتماعي أمين لمصلحة ما أو لمشروعٍ متماسكٍ تلتفُّ حوله كتلة اجتماعية متبلورة، بل اختارت التَّمترُس الطائفي، والمزايدة الإسلامية، ومُغالَبة الجميع، بشكلٍ كان مُنفِّرًا ومُخيفًا في نفس الوقت لكل من عاداهم؛ فقط مِن أجل تحقيق تصوُّرات ضبابية مخبولة عن التمكين المنفرد بحكم مصر، في لحظة شديدة التأزُّم لا يقوى أي طرف مدني -مهما بلغت درجةُ غروره أو استعلائه بالحق على كل خصومه- على الانفراد بها والتصدِّي لها وحيدًا. تعامَل الإخوان مع مصر المأزومة كغنيمة سياسية؛ فكانوا أشبهَ بالثُّعبان الذي صمَّم على ابتلاع فيل، ليمزِّق أحشاءه.

استمرار الأزمة التأسيسية

فجَّرَت فترةُ الحراك الثوري -التي بدأت مع انتفاضة يناير 2011 وحتى انعطافة يونيو 2013 - كلَّ الأزمات والكوابيس التأسيسية التي يمكن أن تنال من مُجتمَعٍ كُتلَتُه الكبرى مُحافِظَة النَّزعة، ودولته في طَوْرٍ شديد الهشاشة، أول تلك

الأزمـات وأكثرهـا مركزيـة كانـت أزمـة تعريـف مَـن هـو الشـعب منـاط الشرعيـة، وكيـف يمكـن لنـا تعيـين حـدوده؟

هـل مـن الاكتظـاظ البـشري في الميادين، أم مـن الأصـوات المعـدودة مـن داخـل صنـدوق الانتخابـات؟ هـل مـن اعـتراف المؤسسـات بحركـة الكُتَـل الشـعبية والتصديـق عـلى شرعيَّتهـا، أم مـن قُـدرَة الكُتـل الشـعبية المنتفضـة عـلى فـرض إرادتهـا بالقـوة؟ الأزمـة الأساسـية تلـك يُشـتَقُّ منهـا أزمـة انحطـاط البرچوازيـة المصريـة، وضعـف قدرتها عـلى التمثيـل السـياسي والهيمنـة الفكريـة، وهـي أزمـة مَرجِعُهـا الأسـاسي أكثر عمومية وتاريخيـة، وهـي أزمـة غيـاب التنظيـمات المجتمعيـة الكـبرى القـادرة عـلى تمثيـل مصالـح الفئـات المختلفـة بشـكلٍ سـلمي، والناتجـة بدورهـا عـن غيـاب ثقافـة العمـل الجماعـي والنفـور مـن التنظيـم الـذي يرافقـه في نفـس الوقـت خـوفٌ مَـرضيٌّ مـن الفـوضى، وكل مـا سـبق هـو إرثٌ متراكِـمٌ ينتقـل مـن جيـلٍ إلى جيـلٍ منـذ تأسـيس الجمهوريـة اليوليويـة وتأصُّـل خصالهـا السياسـية والأمنيـة لمـدة تتعـدَّى الخمسـين عامًـا.

الأزمـات السـابقة -مُجتَمِعَـة- رافقَتهـا أزمـةٌ أخـرى لا تَقِـلُّ تَفجُّـرًا، تَمَثَّلَـت في حضـورٍ مُهَيمِـن لتيَّـارات دينيـة وطائفيـة مُختلفـة لا تحمـل في جَعبَتِهـا أي أفـق بنـاء للمسـتقبل، أو صياغـة مُخلِصـة وأمينـة للتعايُـش المشـترك، تصـدَّرَت هـذه التيـاراتُ المشـهدَ السـياسي؛ فتعـرَّت الجمهوريـةُ المترنِّحـة أكثر وأكثر، وانكشـف ضعفهـا للخـارج الإقليمـي والـدولي؛ مـمَّا سـبَّب أزمـةً وطنيـةً بالكُلِّيَّـة، وهـي أزمـة التدخُّـلات الإقليميـة المُتبادَلـة في الشـؤون المحليـة لـكل دولـة، وهـي أزمـة سـبَّبها مـن ناحيـةٍ انـدلاعُ ثـورات الربيـع العـربي بشـكلٍ مُتزامـنٍ في كلِ المنطقـة؛ مـمَّا أدَّى إلى تضـارُب عـددٍ مـن المصالـح الإقليميـة مـع المصالـح المصريـة، أو العكـس، لدرجـةٍ أخلَّـت بمفهـوم السـيادة الوطنيـة؛ مـمَّا عبَّـأ كُلَّ أجهـزةِ الدولـة السـيادية والمُسـلَّحة ضـدَّ أي عمليـة تغيير سـياسي وحـركي جـاد؛ بدعـوى أنهـا سـتُفضي إلى تقويـض أركان الدولـة بالكامـل لصالـح قـوى إقليميـة ودوليـة، وهـو تصـوُّر مـا زال مهيمنًـا إلى حـدِّ الهَـوَس التـام.

عقـودٌ طويلـةٌ مـن المـوات في ظـل حكـم حسـني مبـارك جعَلَـت مـن سـؤال "أيـن الشـعب" سـؤالًا مُلِحًّـا، خاصَّـةً مـع ظهـور انشـقاقات داخل بنية السُّـلطة بشـأن مسـألة توريـث جـمال مبـارك، لدرجـة جعلـت الاحتـكام إلى الشـارع هـو الحـل الحاسـم، بَيْـدَ

أن الشعب غير موجود لأنه غير مُنظَّم؛ لذا كانت إجابة عبد الحليم قنديل -أحد قادة "حركة كفاية" وقتها- هو أن احتشاد مليون مواطن في ميدان التحرير سيقلب المعادلة، ويعلن أين هي إرادة الشعب "الحقيقي"، واستمر ترديد فكرة الاحتشاد في ميدان التحرير لعدَّة سنوات، حتى تحقَّق هذا التكتيك "القنديليُّ" بالفعل في مليونية 1 فبراير 2011، لكن مشكلة هذا التكتيك أنه لا يعلن أن المحتشدين هم الشعب بذاته، بل هم مجرَّد "إرادة شعبية" كافية لجعل القوات المسلَّحة قادرة على التَّحرُّك والإطاحة بحسني مبارك، أي أن الكلمة الأخيرة تظل للقوات المسلحة؛ فهي مَن يُقيِّم إرادة الشعب المُحتشِد ويَزِن تأثيرها.

هذه الصيغة البدائية لإعلان اسم وجسم الشعب مِن حيث كونه كُتَلًا بشريَّةً من اللحوم المكتظَّة والحناجر المدوية في ميدانٍ كبير- كانت صيغة خَطِرةً بالفعل؛ لأنها لم تضع في اعتبارها مُستقبلًا إمكانية احتشاد ميادين أخرى مضادَّة، مليئة هي الأخرى بكُتَلٍ بشريةٍ من اللحوم المكتظَّة والحناجر المُدَوِّية، تُطلِق على نَفسها هي الأخرى اسم "الشعب" بألف لام التعريف، بَيْدَ أن الأمر مع حسني مبارك كان سهلًا؛ نظرًا لأنه كان هناك ما يشبه التوافق على رحيله في لحظتها.

المشكلة اتَّضَحَت بشكل أكبر في 30 يونيو 2013، والتي احتشدت فيها جماهيرُ هي أضعاف تلك التي احتشدت في يناير 2011؛ فشكَّلَت إرادةً شعبية كافية؛ عددًا وحضورًا شرعيًّا، يعطي الغطاء لتحرك القوات المُسلَّحة للإطاحة بمحمد مرسي الذي تمَّ انتخابه قبلها بسنة واحدة بفارق 1% عن منافسه الرئيسي، حاول مُرسي خلال تلك السنة -في أكثر من محطَّة- التصرُّف كحاكمٍ مطلقٍ، وفتَحَ الباب للإطاحة به بإصداره للإعلان الدستوري المُكمِّل في 22 نوفمبر 2012، والذي حاوَلَ من خلاله تحصينَ قراراته كرئيس للجمهورية من الطَّعن عليها دستوريًّا، وتحصين عمل اللجنة التأسيسية لصياغة الدستور الجديد، والتي لم تكن مَحلَّ توافُقٍ وطنيٍّ بالمرَّة.

لقد شكَّلَت احتشادات 30 يوليو سؤالًا جادًّا عن معنى الشرعية، فالعدد الذي أيَّد الإطاحة بمحمد مرسي كان عددًا كبيرًا بالفعل، بشكل يخلق أزمة شرعية تنتقص من شرعية صناديق الانتخابات السلمية التي أتت وصعدت به

إلى كرسي الرئاسة، وما زاد الطين بلَّة هو احتشاد مؤيِّدي محمد مرسي في ميدان رابعة العدوية، ليصبح لدينا ميادين مختلفة وإرادات شعبية مختلفة، بصرف النظر عن تفاوُت أعداد المحتشدين في كل ميدان، هنا أصبح الأمرُ صدامًا أهليًّا مُعلنًا، تطوَّر، لتبدأ معه صدامات أهلية أكثر جدِّيَّة واتِّساعًا في عددٍ من مناطق الجمهورية، جعلت من تحرُّك القوات المسلحة والاستيلاء على السُّلطة فعلًا حتميًّا ومُبَرَّرًا بدعوى وضع حدٍّ لفوضى مُحتملة وصدام أهلي واسع محتوم، قد لا يمكن السيطرة عليه حال تمدُّدِه في الريف المصري، وأعقب تحرُّك الجيش في 3 يوليو 2013 شهرٌ ونصف من التَّردُّد وعدم القدرة على إدارة المشهد سياسيًّا، انتهى بتصفية الاعتصام الإخواني في رابعة العدوية، في كارثة دموية لم تعرف مصر لها مثيلًا من قبل.

لا شكَّ أن مصر الآن تُعاني من أزمة ثقة عميقة بين الدولة والمجتمع، أو بمعنى أدق: أزمة ثقة من جانب الدولة ناحية المجتمع. الدولة المصرية على الرغم من أنها موضوعيًّا أكثر حداثةً وتنظيمًا من أي تنظيمٍ اجتماعي آخر، وقدرتها على الوفاء بالخدمات العامة والعمليات المعقَّدة تتجاوز قدرة أي قوى أخرى، لكنها مصمِّمَة أن تحتكر اسم الشعب وصفته، ومصمِّمة على الاستثمار إلى ما لا نهاية في النتائج المترتِّبة على ضعف التنظيم الاجتماعي المدني؛ لتبرير احتكارها الرؤية والقرار، على الرغم من عدم قدرتها الفعلية على السيطرة التنظيمية اليومية على أنشطة الناس، مهما بلغ انتشار الشرطة، أو درجة عنفها.

إن التصوُّر المؤسِّس لدولة 23 يوليو عن الهيمنة التنظيمية كان مختلفًا عن مثيله في الدول التي يحكمها حزب أيديولوچي واحد، بدءًا بالحزب الشيوعي الصيني، نزولًا لحزب البعث العراقي، حيث كانت المنظمات الحزبية مُهَيمِنَة على كل مناحي الحياة، ولكن بالنسبة للنظام المصري، كان الضبط التنظيمي لإيقاع المجتمع يتمُّ عبر إلحاق التنظيمات الموجودة عمليًّا بالدولة، عبر تحويلها إلى ساعي بريد ينقل هموم أعضائه للقيادة السياسية، أو بالسماح بتكوين أشكال تنظيمية تعمل تحت رقابة أجهزة الدولة الأمنية في أحسن الأحوال.

لكن مع الوقت صار هذا الترتيب خيالًا، أو بالأصحِّ: صارت فاعليته تتضاءل باستمرار؛ فقد طرأت تحوُّلات اجتماعية عديدة، بالإضافة للزيادة السكانية الكبيرة؛

الأمر الذي أدّى إلى عجز هذا الترتيب عن استيعابه تنظيميًّا، وأصبح الحل الوحيد للتعامُل مع الوضع هو وأد أيَّة محاولة تنظيمية اجتماعية، والشك فيها من حيث المبدأ؛ فأصبح الهيكل التنظيمي المحكوم الذي أنشأته دولة يوليو يحوِّل الناس إلى أفراد منعزلين. فالفرد -ما دام فردًا- تكون خياراته قليلة؛ لأنه مغترب عن مجتمعٍ تَضعُفُ فيه سلطة الدولة، وتتفاوت فيه معايير سيادة القانون بشكلٍ مذهلٍ، يخسِف بمستويات الأمان إلى الحضيض. في نفس الوقت، يستطيع هذا الفرد أن يُلاحظ أن الدولة تحارب بشكل غريزي أيَّةَ مبادرة تنظيمية واسعة، أو تفتح لها بابًا ضيِّقًا عبر نظرة تحمل روح الارتياب في مُجرم، حتى لو كانت تلك المبادرة التنظيمية هي رابطة تشجيع نادٍ رياضي.

هذه العملية المستمرَّة تُدمِّر المعنى العميق لوجود الشعب أو لإمكانية تحقيق وجوده، فالشعب موجود بقدر ما هو مُنظَّم.. وبقدر ما يستطيع أن يطرح من بين فئاته أشكالًا ومؤسَّساتٍ حُرَّة تعبِّر عنه، وتجعل عملية الإنابة عن كتله الضخمة المتنوِّعة فعلًا ممكنًا.

لكن الوضع في مصر كان -وما زال- كارثيًّا بالفعل في هذا الصدد؛ فمصر خالية من التنظيمات الأهلية الكبرى، وغالبية الأشكال التنظيمية الأهلية متآكلة البنية، وتتعامَلُ مُعاملةَ السجين المتمرِّد، وطالما استمرَّ هذا الوضع فستظل الفئات الاجتماعية في مصر لا تعي نفسها بالشكل والإمكانية الصحيحة؛ فالفئات الاجتماعية توجد بقدر وجود أبنيتها التنظيمية وأشكال تمثيلها وتعبيرها السياسي والثقافي، ومن خلال ذلك يتحقَّق وعيها بذاتها، وما ينتجه هذا الوعي من تجلِّيات مختلفة لتلك الأبنية على مستوى المعرفة والإنتاج الثقافي والممارسات الحياتية المتشابهة والحس التضامني اليومي. لقد كان لغياب التنظيمات الاجتماعية المدنية الكبرى في المجتمع المدني المصري أثرٌ مدمِّرٌ على إمكانية دفع معاني التقدُّم إلى الأمام في مصر قبل الثورة، وكانت التنظيمات الكبرى الباقية، والتي تحمل قدرًا ما من التماسُك الخطابي، هي: القوات المسلحة، والإخوان المسلمين، والكنيسة الأرثوذكسية... فانظروا ماذا حلَّ بنا؟!

الفصل السابع

نحو إتمام الجمهوريَّة

إذا كانت رحلتنا الاجتماعية والسياسية الممتدَّة لنحو مائتي عام هي رحلة تحوُّلنا التدريجي من رعايا وعبيد إحسانات مولانا السلطان العثماني وحضرة أفندينا والي مصر إلى مواطنين مصريين، نسعى لنَيْلِ حَقِّ المواطنة الكاملة، فلا يزال هناك حتى لحظتنا المعاصرة مَن يُشكِّك في وصول الإنسان المصري إلى درجة الأهلية الكاملة التي يستحقُّ معها كامل مُواطَنَتَه، نتذكَّر في ساعات الحقيقة الجَليَّة أثناء ثورة يناير كيف عبَّر نائب رئيس الجمهورية المصري الأسبق عمر سليمان لإحدى المحطات التلفزيونية الأمريكية، وبمنتهى الصراحة التي لا تحتمل أي لَبْسٍ، عن أن الشعب المصري ليس جاهزًا بَعدُ للديموقراطية، على الرغم من أننا جميعًا نريدها.

لا شكَّ أن معنى الجمهورية في سياق تجربة التحديث المصري أعمق بكثير من أن يتمَّ ربطها ربطًا مباشرًا بتحقُّق الديمقراطية أو بغيابها؛ وذلك لعوامل اجتماعية وثقافية تداخَلَت معًا لتصبغ معنى الجمهورية في بلد مثل مصر. ليست كل

الجمهوريـات ديمقراطيـة بالتعريـف، فالصـين الشـعبية -مثـلًا- جمهوريـة، وشـعبها مـن المواطنـين، عـلى الرغـم مـن أنهـا بلـد لم تعـرف الديمقراطيـة التمثيليـة ولا التعدُّديـة السياسـية عـلى الإطـلاق منـذ نشـأتها، ربمـا يكـون النمـوذج المثـالي للجمهوريـة عنـد أغلـب رفيعـي الثقافـة في مـصر مُسـتَقًى مـن المبـادئ المؤسِّسـة للجمهوريـة الفرنسـية أو الجمهوريـة الأمريكيـة، لكـن السـياق السـياسي والثقـافي الأكـثر عامِّيَّـةً وابتـذالًا في مـصر ربمـا يكتفـي في تعريفـه للجمهوريـة بأنهـا حُكـمُ رَجُـلٍ مـن أبنـاء الفلاحـين للدولـة المصريـة، مـن دون التَّنكُّـر لشـعبه أو التعـالي عليهـم، رَجُـلٌ ربمـا يملـك كل السـلطات، لكـن شريطـة أن يكـون واحِـدًا مـن النـاس.

نصف الجمهورية، أو الجمهورية المُعَطَّلة

لكـن للأسـف الشـديد لا تتأسـس الـدول الحديثـة وفقًـا للتصـوُّرات العاميـة والمُبتَذَلَـة، مهـما كانـت مرتفعـة الشـعبية وذات مـردود عاطفـي جـذَّاب، فأنـا أؤمـن تمـام الإيمـان بـأن الجمهوريـة المصريـة التـي تأسَّسَـت في أعقـاب ثـورة 23 يوليـو 1952 هـي تجربـة مُرجَـأة ومُبتَـسَرَة منـذ لحظـة إعلانهـا، وتاريـخ الثامـن عـشر مـن يونيـو مـن عـام 1953 -تاريـخ إعـلان الجمهوريـة المصريـة- ليـس تاريخًـا مُهـمًّا في الوجـدان الشـعبي، ولا حتـى في ضمـير المثقفـين المصريـين وذاكرتهـم. ابتسـار الجمهوريـة المصريـة وإرجـاء إتمـام مقوِّماتهـا كان -ولا يـزال- هـو المصـدر الأعمـق لـكل أزمـات الشرعيـة، وسـببًا في سـيادة الطغيـان الـذي يطاردنـا جيـلًا وراء جيـل، بـل أدَّعـي أنـه العائـق الرئيـسي أمـام تطـوُّر اجتماعنـا المشـترك نحـو تعايُـش أكـثر تقدُّمًـا وحداثـة، فإعـلان نهايـة الملكيـة وانتهـاء حكـم سـلالة محمـد عـلي باشـا لم يعـنِ أن الجمهوريـة الجديـدة جمهوريـة حقيقيَّـة بالفعـل، تتحقَّـق فيهـا المواطنـة والمسـاواة أمـام القانـون بالمعنـى الكامـل، ويتسـيَّد فيهـا الشـعب قـراره ومصـيره، فأزمـة الجمهوريـة المصريـة هـي أزمـة وعـي مَـن أعلنوهـا بعـد يوليـو 1952، أزمـة عـدد مـن ضبـاط مـن القـوات المسـلحة يؤمنـون أنهـم مـا زالـوا في طـور البحـث عـن معنـى الشـعب واسـمه وضمـيره ووجـوده المـادي، وأن رحلتهـم تلـك لم تنتـهِ بعـد، لقـد أعلنـت الجمهوريـة باسـم الشـعب وتجسـيدًا لإرادتـه بالطبـع، لكـن أيـن هـو هـذا الشـعب فعـلًا، أيـن يوجـد بالضبـط، أيـن يبـدأ وأيـن ينتهـي، كيـف يتجسَّـد وجـوده ماديًّـا كبـشر مـن لحـم ودم؟ بمعنـى

أصح: لو كان من السهل على البعض تعريف ماهية روح الشعب وفقًا لتصوُّرات ثقافية، فكيف لنا الإمساك بجسده؟

عملية "ابحَثْ عن الشعب" تلك قديمة قِدَم ثورة 1919، فلقد وُلِدَت الحركة الوطنية العظمى وقتها كإجماع شعبي جارف والتفاف كامل حول الوفد المصري، كمُمثِّل وحيد للأمة في معركة الحصول على الاستقلال؛ لذا كانت حركة البرچوازية المصرية المُمثِّلة للوطنية المصرية غير تَعدُّدية منذ ميلادها، لقد اكتسب الوفد المصري شرعيَّتَه من توكيلات المصريين المُوثَّقة لسعد زغلول وصحبه، التي تعطيهم حَقَّ التفاوُض باسمهم مع الاحتلال البريطاني، أي بالتفويض الشعبي المباشر، وهو تفويضٌ لم يتسنَّ للمصريين مراجعته وتطويره بكيفيَّةٍ شاملة، يستطيعون من خلالها اختبار إرادتهم الحرة أكثر من مرة، فالوفد لم يتمكَّن أبدًا من حُكم مصر مُنفَرِدًا، ولم يستثمر في شعبيته الطاغية لدرجة التصعيد الجريء ضد المَلِكَيْن: فؤاد وفاروق، واتخاذ خطوة إعلان الجمهورية باسم إرادة الأمة الذين يدَّعون أنهم مُمثِّلها الوحيد، الوفد ظلَّ وفيًّا لأُسُس وقواعد النظام الملكي، الذي طالما اشتكى منه ومن افتئاته على شعبيته وحرمانه من تمثيل الأمة سياسيًّا وتزوير السراي للانتخابات أكثر من مرة، فظل الوفد هو وكيل الأمة بالمعنى الوجداني والعاطفي للكلمة فقط، حيث لم يسمح الإطار الدستوري والقانوني الحاكم للمجال السياسي المصري بعد ثورة 1919 للوفد بممارسة هذه الوكالة بمعناها الصحيح، وذلك في ظل نظام ملكي نَظَّمَه دستور 1923، كان للملك فيه صلاحيات كبيرة، وما لبث أن أُلغِيَ هذا الدستور عام 1930 لصالح دستور يكرِّس الحكم الملكي المُطلَق، ينسى البعض في إطار الحنين الجاهل لعالَمِ ما قبل الضُّبَّاط الأحرار أن الملكية في مصر كانت مَلكيَّةً مُطلَقَة بالفعل، ملكية من النوع القديم الذي يحطُّ في بداهةٍ من قيمة المساواة؛ فالملك كان يملك ويحكم، وله القول الفصل في دولته، وكان المجال السياسي -المنفتح نسبيًّا في عهده- تكميلًا لشرعية حُكمِه، وتثبيتًا له، وليس انتقاصًا منه.

لكن هناك أيضًا ما ينساه البعض أو يتناساه عمدًا بخصوص فضائل النظام الملكي المصري، من حيث كونه عالَمًا بأكمله، له شفراته الخاصة في تعريف معنى الشرعية وأوزانها ومقاماتها، فصحيح أن الحركة الوطنية المصرية كانت حركة دستوريَّةً، إلَّا أنها لم تكن إلغاءً كاملًا لمعنى الملك وتقاليده، وصحيح أن الأمة

نظريًـا أصبحـت مصـدرَ السُّـلطات بموجـب الدسـاتير الحديثـة، لكـن الملـك لم يكـن مجـرَّدَ رمـز، بـل هـو منـاط الشرعيـة الرئيـسي، حتـى وفقًـا للتقليـد الإسلامي المتـوارَث، ولم تكـن محاولـة الملـك فـؤاد الأول إعـلان نفسـه خليفـة للمسـلمين مـن مـصر بعـد انتهـاء الخلافـة في تركيـا مجـرد فانتازيـا دينيَّـةٍ لرَجُـلٍ بـلا وظيفـة فعليـة، بـل كانـت تصـوُّرًا سياسـيًّا لمحاولـة تعضيـد مقـام ملكـه وتثبيـت سـلطته الاسـتبدادية الموجـودة أصـلًا، وبسـط نفـوذه الروحـي -وربمـا- المـادي عـلى سـائر العـالم الإسـلامي بموجـب شرعيتـه الدينيـة كخليفـة للمسـلمين، وعلينـا ألَّا ننسى أيضًـا أن جـذر الـصراع الوطنـي في مـصر الـذي بـدأ مـع صراع أحمـد عـرابي مـع الخديـوي توفيـق كان محـوره محاولـة تفكيـك الحكـم الاسـتبدادي الخديـوي السـلطاني، والدعـوة إلى دَسْتَرَتِه لصالـح صيغـة أكـثر تشـارُكيَّة تحتـوي باقـي فئـات المجتمـع.

العالَـم المَلَـكيُّ الـذي أنهتـه الجمهوريـة اليوليويـة كانـت فضيلتـه الرئيسـية هـي سـد ثغـرات الشرعيـة الناتجـة عـن غيـاب سـيادة الشـعب عـلى نفسـه، فـكان عالَـمًا يُشـكِّل مصـدًّا طبيعيًّـا أمـام سـؤال "أيـن شـعبنا، السَّـيِّد في وطنـه؟ وأيـن كامـل إرادتـه المُرتجـاة؟". كان وجـود الملكيـة نفسـها هـو إجابـة سـؤال عـدم اكتـمال الشـعب، فالشـعب المُرجَـأ غـير مكتمـل النمـو والأهليـة، فهـو جاهـل في أميتـه، غالبيتـه فلاحـون موحولـون في طـين الزراعـات، غـير مُنظَّمـين، ويبيعـون أصواتهـم في الانتخابـات البرلمانيـة للمُرشَّـحين مـن طبقـة الباشـوات مقابـل حفنـة مـن غـلال القمـح والـذرة، هـؤلاء البؤسـاء جميعًـا هـم في نهايـة الأمـر رعايـا لحـضرة صاحـب الجلالـة ملـك مـصر والسـودان، الملـك وبلاطـه وحُكمـه الرشـيد الـذي يأخـذ بيـد هـذا الشـعب الطيـب وإرادتـه المختلَّـة والواهنـة، عـبر تحديثهـا وتعليمهـا وتحسـين أحوالهـا؛ لتلتحـق بالحداثـة والأمـم المتمدينـة.

لكـن المـزاج السـياسي تغـيَّر بشـدَّة بعـد انتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، ومالـت الحركـة الوطنيـة والطلابيـة الشـابَّة إلى اعتبـار الملكيـة بهـذه الصيغـة تغييبًـا مُتعمَّـدًا لفكـرة الشـعب، وتعطيـلًا لوجـوده ولإرادتـه المادية المرتجـاة، وأن شرط اسـتمرار الملكية كصيغـة حُكـمٍ راعٍ هـو اسـتمرار أوضـاع الشـعب البائسـة التعيسـة تلـك، ووصـل هـذا الميـل إلى ذروتـه عـام 1952، وتـمَّ اعتبـار المَلَكيَّـة وعالمهـا نصـف الديمقراطـي تناقُضًـا جوهريًّـا مـع معنـى الشـعب وإرادتـه؛ لذلـك فأنـا لا أعتـبر مقولـة جـمال عبـد النـاصر بـأن "حريـة رغيـف الخبـز ضـمانٌ لا بُـدَّ منـه لحريـة تذكـرة الانتخابـات" كانـت مجـرَّد

مقولـة تكتيكيـة، أراد بهـا تبرير وتسـويغ الاسـتبداد وتأجيـل الديمقراطية إلى مـا لا نهاية، بعـد اسـتيلائه عـلى السـلطة، وأن ربـط تحقيـق الديمقراطيـة السياسـية بضـمان حـدٍّ أدنى مـن الكرامـة الاجتماعيـة كان مجـرَّدَ منـاورة سياسـية منـه؛ للتملُّـص مـن تحقيـق الهدفـين معًـا، فسـؤال العدالـة الاجتماعيـة والاختـلال الطبقـي كان مُلِحًّـا بالفعـل، في ظـل انعكاسـه عـلى النظـام السـياسي الانتخـابي الـذي لم يُنتِـج إلَّا إعـادة سـيطرة طبقـة الباشـوات والأعيـان وفقـط، والضبـاط الأحـرار كانـوا في ظنـي أمنـاء لعالمهـم الجديـد، حيـث الاعتقـاد بـأن تسريـع التحديـث مـن أعـلى -وبشـكل سـلطويٍّ- لصالـح توسـيع الطبقـة الوسـطى وتحسـين حـال الطبقـات الأدنى هـو الـشرط الـلازم لوجـود مجـال سـياسي صحِّـيٍّ أو حيـاة ديمقراطيـة "سـليمة "، عـلى حـد تعبـير برنامـج النقـاط السـتة لثـورة 23 يوليـو.

لقـد اعتـبر عبـد النـاصر -بوضـوح وصراحـة- أن شرط تأسـيس الجمهوريـة وتمكـين الشـعب مـن المواطنـة هـو تغييـب الديمقراطيـة التعدُّديـة؛ لأنـه الضمانـة الوحيـدة لعـدم تمكُّـن القـوى الرجعيـة مـن التَّحكُّـم في رقـاب الشـعب مـرة أخـرى، لكـن هـذا اليقـين النـاصري كان مرهونًـا أيضًـا بتفويـض الشـعب وثقتـه المُطلَقَـة في حُكَّامـه الجـدد وإيمانـه بنزاهتهـم، وفي قيامهـم بمَهمَّـة تمكينهـم الاجتماعـي فعـلًا، بعـد أن عيَّنـوا نفسـهم ثُـوَّارًا بالنيابـة عـن الجميـع، وهنـا كان إعـلان الجمهوريـة تسريعًـا فجًّـا لطـرح سـؤال الشرعيـة الجديـدة، حيـث لا ملـك ابنًـا لملـك يجلـس عـلى العـرش، ولا حكـم تقليـدي خـلافيٌّ بالمعنـى الإسـلامي، وأصبحـت السـلطة الآن "نظريًّـا" في طريقهـا إلى الشـعب، لكـن أيـن هـذا الشـعب؟

ظنِّـي أن في بدايـة زمـن الضبـاط الأحـرار كان يمكـن لبرنامـج الحركـة الوطنيـة وشـعاراته الأساسـية التـي تبلـورت في برنامـج النقاط السـتة أن يحـلَّ مَحلَّ الشـعب، على المسـتوى المعنـوي والمـادي، لفـترة، طالمـا تحوَّلَـت بنود هـذا البرنامـج إلى إجـراءات عملية ونافـذة، فـإرادة الشـعب هـي في تقدُّمـه وتحسـين أحوالـه واسـتقلاله، وجميعهـا أمـور كانـت تبـدو محـلَّ إجـماع، ومعهـا كذلـك المكتسـبات الاجتماعيـة والحقـوق الاقتصاديـة التـي تكفلهـا لـه، ومـا الضبـاط الأحـرار في تلـك اللحظـة التاريخيـة التأسيسـية إلا مبعوثي التاريـخ لإنفـاذ تلـك الإرادة والرسـالة الخالـدة، التـي طالمـا انتظـرت مَـن يحملهـا حتـى أُلقِيَـت في حُجورهـم هـم فقـط؛ لأنهـم أخـذوا بزمـام المبـادرة وتحرَّكـوا انقلابيًّـا في 23 يوليـو 1952، فكانـوا في موعـدٍ اسـتثنائي مـع التاريـخ. لقـد حـاول الضُّبَّـاط الأحـرار حـلَّ

مشكلة غياب الشعب في جمهوريته الجديدة، بادِّعائهم هم تمثيل الإرادة الغائبة للشعب الغائب مؤقَّتًا، لحين استكمال مقوِّمات بناء التنظيم السياسي الجماهيري الجامع لإرادة هذا الشعب، والتي اتَّخَذت لاحقًا صيغة "تحالف قوى الشعب العامل" الذي يمثِّل العُمَّال والفلاحين والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية، وتم اعتبار مَن هم خارج هذا التحالُف أعداء للشعب، كانت صيغة الاتحاد الاشتراكي العربي مستدعاةً من أدبيات الممارسة السياسية السوفييتية، وعلى الرغم من ضعفها تنظيميًّا على الأرض وسط الجماهير، لكن دعايتها واحتكارها للممارسة السياسية كان كافيًا لإرجاء الوجود المادي للشعب لعَدَدٍ من السنوات باسم أعلى الشعارات العاشقة في جماله، وبينما كان النظام اليوليوي في ذروة فخره بشعاراته وتصوُّراته عن الشكل السياسي السليم لتمثيل الشعب، هَوَت السماء على رؤوس الجميع، ووَقَعَت هزيمة يونيو 1967 لتعيد سؤال الشرعية الجمهورية إلى المربع رقم صفر، وتتحوَّل نصف جمهورية الاستثناء الثورية التي تطمح إلى تسريع التحديث إلى نصف جمهورية الاضطرار والأمر الواقع، نصف جمهورية "الحفاظ على الدولة" التي استمرَّت معنا منذ هزيمة يونيو 1967 وحتى ثورة يناير 2011، حيث المحاولة الثانية المُتعثِّرة لتأسيس جمهورية جديدة، أو لأكون أكثر دِقَّةً، محاولة إتمام تأسيس الجمهورية الأولى غير المكتملة.

استمرَّت الأزمة الجمهورية لما يقارب الخمسين عامًا، انتهت الشرعية الثورية لجمهورية يوليو على وقع الهزيمة المزلزلة في يونيو 1967، ارتكنت الجمهورية المترنِّحة في تجديد شرعيتها لعَقدٍ من الزمان على جماهير 9 و10 يونيو 1967 التي نزلت الشوارع تحت وقع الصدمة؛ رفضًا للهزيمة، ومُطالِبةً عبد الناصر بعدم الهرب من منصبه لحين إدراك تبعات الكارثة، واعتبرت دولة يوليو أن مظاهرات رفض الهزيمة هي تجديد لشرعية النظام، في واحدة من أَحَطِّ الصياغات السياسية لمعنى الشرعية الجمهورية، فلقد تحوَّلَت شرعية الجمهورية المصرية إلى شرعية الهلع والاضطرار: ادعَمْ دولَتَكَ وإلَّا سينتظرك ما هو أسوأ! أصبح الخوف مِمَّا هو أسوأ هو علَّة الاجتماع السياسي العام، وصارت علاقة الدولة بالمجتمع علاقة ارتهان كامل، بحيث أصبح الاستقرار هدفًا في حَدِّ ذاته لدرجَةٍ مَكَّنَت حسني مبارك من حكم مصر لمدة ثلاثين عامًا بشعار الاستمرار من أجل الاستقرار، أو الاستقرار من أجل الاستمرار، حيث لا فَرقَ فعليٌّ في المعنى لو قدَّمنا إحدى

الكلمتين على الأخرى؛ فالاستمرار والاستقرار هدفهم الفعلي هو البقاء بأي شرطٍ، حتى لو تمَّ ترحيل الأزمة وتوريثها من جيل إلى جيل. لقد قال نائب الرئيس الأمريكي الأسبق هنري والاس يومًا إن الخوف هو مصدر كل الأخطاء الكبرى، ومِن أَسْرِ الخوف تتصرَّف الأمم العظيمة كوحوش مُحاصَرَة في ركن ضيق، بحيث لا تُفكِّر إلَّا في البقاء.

حاوَلَت الدولة اليوليوية نصف الجمهورية الاحتيالَ على الأزمة بمحاولة شَرْعَنَة وضعها في السبعينات بصياغات شديدة الالتباس، بدأها أنور السادات، ولم يتمكَّن من إنهائها بنفسه؛ بسبب اغتياله في عام 1981، فمصر -نظريًّا- تحوَّلَت إلى دولةٍ تَعدُّديَّة حزبية وصحافة حرة ودستور دائم وانتخابات دورية لمجلس الشعب، تأتي بأغلبية كاسحة للحزب الوطني الديمقراطي بالطبع، بينما ظلَّ منصب رئيس الجمهورية مُحصَّنًا بالاستفتاء عليه، مع وجود تواطؤ عام على حصرية استحقاقه لأبناء المؤسسة العسكرية، خاصَّة بعد الدفع بجيل العسكريين الأكفاء الذين خاضوا حرب أكتوبر 1973 إلى واجهة المشهد السياسي، لم تفلح المساحيق الديمقراطية في نفي الطبيعة الارتهانية لعلاقة الجمهورية بشعبها لعقود، وظلَّت الأزمةُ مُؤجَّلَةً حتى انفجرت مرة أخرى في يناير 2011، في لحظةٍ بَدَت فيها السلطة عاجزة بشدَّة عن الانتقال إلى مرحلة جديدة بطريقة سلمية.

إمَّا اكتمال الجمهورية أو الفوضى

لقد اعتدنا في استهلالات دساتيرنا ومواده الأولى النَّصَّ على أن الشعب هو المصدر الأعلى لكل السلطات، وأن المساواة مبدأ مُطلَقٌ يعلو على أي مبدأ آخر، بصرف النظر عن الطبقة والجنس والدين، على الرغم من إدراكنا الواعي أن هذه المواد الدستورية المؤسِّسة هي مواد ديباجيَّة غير واقعية، إلا إنها تظل هي المبدأ المرجعي، حتى ولو لم يتحقَّق، ويظل عدم تحقُّقه أزمةً صامتةً تَلفُّ كل جوانب حياتنا، ففكرة أن السيادة للشعب وحده وأنه المصدر الأعلى والوحيد للسلطات ليست بالفكرة السهلة إذا ما تمَّ اتخاذها مأخذ الجدِّ، والاعتقاد فيها كمبدأ حاكِمٍ مؤسِّس، تُسَنُّ من رَحِمِه باقي القوانين والعلاقات؛ ذلك أن معنى سيادة الشعب لا يقبل التحايُلَ عليه أو تعطيله بتغييب الشعب نفسه، بدعوى

عـدم اكتـمال مقوِّمـات وجـوده؛ فالشـعب إمَّـا موجـودٌ أو غـير موجـود، وهـو أمـر لا يقبـل القِسـمة عـلى اثنـين، وصيغـة نصـف الشـعب ونصـف الجمهوريـة لا يمكـن لهـا أن تسـتمرَّ إلى مـا لا نهايـة؛ فإمَّـا أن تكتمـل الجمهوريـة أو نرتـدَّ عنهـا لصالـح أنمـاط مـن الحُكـم السُّـلطاني الإسـلامي الـذي يعنـي انتهـاء مـشروع الحداثـة.

وبـدون مواربـة، فـإن الجمهوريـة في تَحَقُّقهـا الكامـل هـي صيغـة علمانيـة بالتعريـف، مهـما حـاول البعـض التحايُـلَ لغويًّـا عـلى جوهـر معانيهـا، سـيادة الشـعب وكونـه المصـدر الوحيـد لـكل السـلطات السياسـة هـو المعنـى المبـاشر للعلمانيـة، وليـس فصـل الديـن عـن الدولـة، المسـاواة بـين كل المواطنـين، حيـث المسـاواة تعنـي المسـاواة، وأي مسـاواة مشروطـة بنـصٍّ آخـر ينتقـص منهـا ليسـت بمسـاواة، فالمسـاواة معنـى لا يتحقَّـق إلا كامـلًا: مسـاواة الفـلاح بالباشـا، والنسـاء بالرجـال، وغـير المسـلمين بالمسـلمين؛ لـذا فاكتـمال شروط الجمهوريـة المصريـة وإتمامهـا يعنـي تأسـيس الدولـة العلمانيـة، وهنـا -وللغَرابَـة- أجـد نفـسي مُتفهِّـمًا لمنطـق تصـوُّرات أكـثر الجهاديـين الإسـلاميين تطرُّفًـا عـن دولتنـا المعـاصرة، ولكـن تفهُّمـي هـذا قـادم مـن الضفـة الأخـرى ومـن موقـع الضـد لهـم تمامًـا؛ فسُـلطَة الشـعب الجزئيـة بالنسـبة لهـم إن كانـت حـرَّة الإرادة نسـبيًّا فهـي شِركٌ باللـه، وافتئـاتٌ عـلى حُكمـه وسـلطانه، أمَّـا سـلطة الشـعب الكاملـة كمصـدر وحيـد للسـيادة والشرعيـة والتشريـع فهـي الكُفـر الكامـل؛ لـذا فنحـن إذا كُنَّـا في خيـارات حَدِّيَّـة عـلى المسـتوى النظـري كمصريـين، فالاختيـار النهـائي هـو بـين ضفتـين: إمَّـا داعـش وإمَّـا الجمهوريـة.

إتمـام الجمهوريـة ليـس عمليَّـةً نظريَّـةً أو صياغـات متماسِـكةً لمبـادئ تأسيسـية؛ فـما أحـلى الصياغـات ومـا أجمـل ديباجـات الدسـاتير، الجمهوريـة هـي التجسـيد المـادي لممارسـة سـلطة الشـعب وسـيادته في أدقِّ يوميـات حياتـه وببسـاطة وأريحيـة؛ فالشـعوب ليسـت مظاهـراتٍ كبـيرةً وبـشرًا تكتـظُّ في الميادیـن، ولا هـم بطاقـات اقـتراع تُعَـدُّ وتحـصى في مواسـم الانتخابـات؛ فتلـك مجـرَّد تعبـيرات عـن الإرادة الشـعبية في لحظـات بعينهـا، ولفـترات بعينهـا، يمكـن لهـا أن تتغـيَّر بـين فـترة وأخـرى، فـلا المظاهـرة الكـبرى لحظـة تأسـيس، ولا التصويـت الانتخـابي تفويضًـا على بيـاض، الشـعوب توجد في حركتهـا الدائمـة، ونشـاطاتها الحيـة، في تنوُّعاتهـا واختلافاتهـا. الشـعب تجربـة اجتماعيـة وسياسـية مسـتمرَّة، وليسـت مجـرَّدَ قِصَّـةٍ مسـطورة وحكايـة مكتملـة، ليـس أزليًّـا ولا أبديًّـا، بـل صراعـات وتسـويات وتوافقـات مسـتمرَّة بـين أبنـاء جماعـة بشريـة اختـارت

طوعًا العيش معًا وفقًا لقواعد وقوانين تجعل من عيشها المشترك سببًا للسعادة والرضا والتقدُّم. القواعد والقوانين تلك ليست أزليَّةً ولا أبدية هي الأخرى، بل موضوعًا دائمًا للإبداع والتطوير والمراجعة والتجاوز والخلق.

ولو كانت الدولة مؤسَّساتٍ فالشعوب مُنظَّمات، ولو كانت مقوِّمات الدولة تكتمل بوجودِ وفعاليةِ سُلُطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية وأجهزتها السيادية المُسلَّحة، فالشعوب ليست موضوعًا خاضِعًا لتلك السلطات، بل هي معينها ومصدر عناصرها، ليس بالمعنى الجسدي فقط، بل بالمعنى الروحي والأخلاقي والثقافي، والدولة الوطنية بلا مجتمعٍ حَيٍّ وحر هي سلطة احتلال ضعيفة أسيرة لشعبها المحتل مهما بلغ سلطان طغيانها؛ لأنها مهما حاولت خلق حواجز ثقافية وطبقية بينها وبين هذا الشعب كي تتمكَّن من ممارسة القهر والتجبر عليه بدون وخز للضمير، فهي تظلُّ كيانًا محليًّا في النهاية، لا مهرب له من وطنيته، لا مرفأ آخر له، سلطة لن تحمل عصاها وترحل كما قال عبد الناصر للإنجليز، بل ستنتظر حساب شعبها لها، طال الزمان أم قصر.

ولا يمكن الاستمرار في النظر إلى المجتمع باعتباره عبارة عن مصدر فوضى محتَمَلَة في أي وقت، ثم ننتظر بعد ذلك أي نتيجة إيجابية تصبو إلى تقدُّم أو تنمية، فصيغة المجتمع كفوضى متحرِّكة مقابل الدولة كضابط يطارده هي صيغة لا تُفضي إلَّا إلى إعياء المجتمع وتحطيمه، واستنزاف الدولة وإضعافها في نفس الوقت، ولطالما كانت قواعد العلاقة بين الدولة والمجتمع غير رشيدة وغير مُتَّفَقٍ عليها بشكل توافقي يخلق مساحات للتفاوض والحلول الوسط، فستمتدُّ أزمات الشرعية وتطول وتتراكم الإحَنُ والمرارات، وتزداد مساحات الشك وعدم الثقة المتبادَلَة بين مُكوِّنات المجتمع من جهة، وبين كل تلك المكوِّنات والدولة من جهة أخرى، بحيث تتحوَّل الدولة الوطنية مع الوقت إلى دولة احتلال محلِّيٍّ، في حالة ارتهانٍ مُتبادَلٍ بينها وبين شعبها المُتَّهم منها دومًا بشيء ما.

إن سيادة الشك والريبة وعدم الثقة بين مكوِّنات المجتمع لفترة طويلة لن يفضي إلَّا إلى تفخيخ كل أركانه، بحيث لن يمكننا أن نحدِّد زمن الانفجار أو مكانه. أكثر الأماكن استقرارًا هي القبور، في التحليل الأخير، لكن أخطر القبور تلك التي تعجُّ بالأحياء الصامتين، ومع صمتهم هذا تزداد الريبة والخوف المُتبادَل، فيتحوَّل

معه ما يبدو قبرًا مُستقرًا إلى ساحة لصراع الكلّ ضِدّ الكُلّ، وعملية رهن أي عمل أهلي أو سياسي باشتراطات أمنية شبه مستحيلة، فضلًا عن أنها تُجرِّف المجتمع تجريفًا، وتمسح ذاكرته الحضارية؛ فينحط تدريجيًّا دون أن يدري، حتى يصل إلى مرحلة السقوط الحر، فإنها أيضًا ستخلق ثقافات سرِّيَّةً لا يعلم عنها إلَّا أصحابُها، ولا تخاطب إلا نفسها وفئاتٍ بعينها، بحيث تسيطر التصوُّراتُ النمطية الفجَّة على علاقة أطراف المجتمع ببعض، وتنشأ مستويات من الكراهية البغيضة، ستحوِّل مكونات المجتمع إلى جزر شديدة التباعُد عن بعضها، زيادة عن تباعدها الحاصل بالفعل، وبشكل يُمهِّد الطريق للصيغة الكابوسية لذلك المجتمع المفخَّخ، الذي لا نعلم أين ومتى سينفجر.

لا شكَّ أننا نعيش أزمة سياسية ممتدَّة منذ صيف 2013، لكن لم تَعُد تلك هي المشكلة الأولى الجديرة بالتعامل الآن، فبالنظر إلى الوضع الذي ترتَّب عليها لاحقًا، سنجد مستوى غير مسبوق من تجفيف ومحاصرة لكل نشاط سياسي أو إعلامي أو ثقافي، تحوَّل معه أي إنتاج رمزي إلى موضع اشتباه في حدِّ ذاته، وبعد أن كانت الصحافة تتفاخر تفاخُرًا أدبيًّا بأنها سُلطَة خامسة، أصبح الشعار الحالي هو "الصحافة ليست جريمة"، وانحدر مستوى الإعلام المرئي والمسموع إلى مستويات من الانحطاط لم يكن على بال أكثر الناس تشاؤمًا أن تصل إليه، وسادت حالة من التفاخُر بالجهل، والاستثمار فيه، لدرجة خروج الصحف علينا بين يومٍ وآخر بأخبار عن مخترعين صغار من أطفال مدارس الأقاليم تمكَّنوا من كسر قوانين الجاذبية، أو صنعوا مركبات تتحرَّك بدون طاقة، كما لو كان هناك رسالة مطلوب إيصالها لكل متعلِّم في مصر أن وجوده لم يَعُد مرغوبًا فيه إلا بقدر ما ظلَّ صامتًا أو غير موجود بالفعل، فنحن صِرنا إزاء حالة أشبه بالعداء الغريزي لأي فكرة مُركَّبة وأي مغزى مُعقَّد. يتم التشكيك فيه بداهة باعتباره أوَّلَ الطريق إلى عودة " كابوس" ثورة يناير مرة أخرى، حتى وصلنا إلى مرحلة يتسيَّد فيها العداء للمثقفين أو إلى أي فكرة نقدية، عداء لم تشهده مصر منذ شروع الوالي عباس الأول في إغلاق المدارس الحديثة، وترصَّدَ لكلِّ مظاهر التفكير الغربي منذ ما يقارب 180 عامًا.

استمرار حالة العداء شبه الوجودي من جانب الدولة نحو الجماعة الثقافية المصرية بمعناها الواسع، والمعطوف بداهةً على العداء العُصابيِّ لثورة يناير أو

لأي معنى يُشتَمُّ منه علاقة بثورة يناير، لن يفضي إلا إلى تدمير مُقدَّرات مصر الحقيقة بمعدَّلات مأساوية التسارُع، فمصر بدون حضور ونفوذ ونشاط مثقَّفيها ومُتعلِّميها ليست إلا واديًا يعجُّ بالفقر والشُّحِّ المائي والتكدُّس السكاني والعصبية الطائفية، وشعبًا غالبيَّتُه من بسطاء القوم، الذين لا صوت لهم ولا ناظِمَ لحركاتهم وطموحاتهم.

والحقيقة أن الصيغة الحالية للحكم في مصر مُحيِّرة بالفعل لكلِّ ذي لُبٍّ، وفقًا لأي معيار، فالبُسَطاء ينظر إليهم كعبء كسول غير منتج بشكل كافٍ، وغير متعلِّم بالقدر الذي يجعل قوَّةَ عمله ماهِرةً وفارِقَةً، والمثقَّفون يُنظَر إليهم كخطرٍ مُستمرٍّ، أو ربما هم أكبر خطر على مصر، كما صرَّح رئيس اتحاد الصناعات الأسبق محمد فريد خميس منذ خمس سنوات تحت قُبَّة الجامعة البريطانية في القاهرة، وكأن مصر كلها أصبحت تحتاج إلى إعادة تربية من جديد، هذه ذهنية تفتقر إلى التواضُع والحكمة. الوضع الحالي أدنى من أن نتحدث في الشأن السياسي به، وأركانه المأساوية؛ فما أصبح محلًّا للتفاوض الآن هو تراث التجربة الحضارية المصرية المستمرَّة منذ عهد محمد سعيد باشا، على كل عوارها وسوءاتها وأزماتها، تراث الصحافة وتقاليدها، ما تبقَّى من حيثية للجامعات المصرية علًما ونشاطًا، محاولة استعادة جودة إعلام مصري انحطَّ إلى الحضيض، بل حتى عودة جماهير كرة القدم إلى مُدرَّجات الملاعب، ببساطة: الكفُّ عن التعامُل مع كل ما هو مدنيٌّ باعتباره موضوعًا للاشتباه والتَّشكُّك في نواياه أو في أخلاقه أو في ولائه لمصر.

الوطن هو تجربة اجتماعية مستمرَّة، وليس نَقشًا فرعونيًّا على حجر منذ آلاف السنين، تجربة اجتماعية حيَّة، أساس العلاقة فيها بين المواطنين ببعضهم البعض أو مع الدولة ليس الاضطرار أو الارتهان المتبادَل، بل سيادة القانون القابل للتنفيذ فعلًا، استنادًا إلى عقلانيته ومشروعيته، في وقتٍ أصبح وضع مبادئ جديدة لجمهورية جديدة أمرًا مُلِحًّا وليس تَرَفًا؛ لأن الجمهورية الجديدة هي المحطة الأكثر إمكانًا وعقلانية في مسيرة مصر نحو نحو الأمام، وعِوَضًا عنها سترتدُّ البلاد إلى صِيَغٍ سلطانية تقليدية، ستُدمِّر تمامًا أُسُسَ الدولة الحديثة بكل مقوِّماتها المادية والرمزيَّة، وبدونها لن نجد سبيلًا لأزمة الشرعية الطويلة والممتدة لعقود طويلة، والتي -بمنتهى الأسف- تزداد تعقيدًا يومًا بعد آخر، بشكل لا يجعلنا نملك تَرَفَ كَتْمِ الشهادة أو التَّنطُّع على التاريخ، أو حتى التضرُّع إلى السماء.



تاريخ العصامية والجربعة

خلَّفت ثورة يناير وراءها عالمًا أمسى قديمًا في وعي كل المعاصرين، يُشار إليه بالماضي أو "زمان"، حتى لو كان المقصود عَقدًا واحدًا مضى، وعلى الرغم من كونه قديمًا لم نكتشف بعد كل عناصره ولا تركيباته كي نفهم لحظتنا المعاصرة التي هي نتاج تفاعُلاته هو، أصبح المصريون بعد يناير يطلق عليهم أنهم شعب بلا كتالوج لأنهم أصبحوا شعبًا موجودًا من الأصل، يتحرَّك بشكل مَرئيٍّ بعدما عبَّر عن وجوده، لم يعد صُورًا مُخلَّقة في دراما مُوجَّهة، انهارت كل الصورة النَّمطيَّة القديمة رغمًا عن الجميع، وأصبح لزامًا على الجميع بذل الجهد اللازم لفهم الطبيعة المادية للمجتمع الذي يعيشون فيه، وجوهر صراعاته ودوافعها. لم تَعُد من الممكن صياغة مصر كعالم مُتخيَّل من عناصر بسيطة؛ فالبلد في تغيُّر مستمر، وكنس التراب ومُراكَمتُه تحت سجاجيد الواقع لن يُفضي إلى رؤية أي أفقٍ منبسط، بل سيجعل المسير أكثر بُطئًا وقلقًا داخل منعرجات أكثر خطورة وصراعية؛ فالمجتمعات لا تسكن أبدًا، يمكن أن تخفض صوتها، لكنها لن تتوقَّف عن الهمس والكلام، وفي الأثناء ستتشكَّل لغاتٌ جديدة، تتطوَّر وتتمايز وتصبح معها العوالم المتنوِّعة أكثر عُزلَة وتناثرًا، ولن تستطيع خطابات الصور النمطية التافهة احتواءها بحيث يسير كل شيء بالتوازي حتى تأتي لحظة تتقاطع فيها المتوازيات، فتصطدم العوالم بعضها ببعض؛ وحينها لن يمكن إخفاء صوت الانفجار.

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف



